

بيت المقدس

في العصر المملوكي

الدكتور
محمد حافظ النقر

دار البداية
ناشرون وموزعون

تـاريـخ بيـت الـمقدس
في العصر المملوكي




بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ بيت المقدس

في العصر المملوكي

الدكتور

محمد حافظ النقر



دار البداية ناشرون وموزعون

دار البداية

ناشرون وموزعون

تأليف: الدكتور: محمد الحافظ النقر

عنوان الكتاب: تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي

عدد الصفحات: صفحة

قياس القطع: ١٧×٢٤

تمت المراجعة والتصحيح والإخراج في دار البداية للطباعة والنشر والتوزيع

تطلب منشوراتنا على العنوان التالي:

دار البداية

ص. ب ٥١٠٣٣٦ عمان ١١١٥١ الأردن

هاتف: ٤٦٤٠٦٧٩ - تلفاكس ٤٦٤٠٥٩٧

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م - ١٤٢٦هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

وسط البلد - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري

المقدمـــة

يحتل تاريخ مدينة بيت المقدس أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي، فالمدينة هي أول القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. وبما أن المدينة مقدسة لليهود والنصارى، فقد خضعت بعض وقائع تاريخها إلى معالجات استندت على تفاسير متنوعة، وهي تفسيرات لم تكن تستند على روايات موثوقة بها بل وصل بعضها إلى مستوى التزوير.

وفي القرن الماضي ظهرت أبحاث عديدة عن تاريخ بيت المقدس تتسم بنظرات جديدة وكلها يدّعي الموضوعية، إلا أن القارئ المتعمق في هذه الدراسات يصدم بغلبة النظرات الكنسية المتعصبة الواضحة في كتابات المستشرقين من أمثال: ستفن رنسيمان (Runciman, S.) ولامونت (La-Monte) وديفيد جاكسون (Jackson, D.) وجوناثان رايلي سميث (Riley Smith, J.) وستون (Setton) وغيرهم. أما الدارسين اليهود، فقد حاولوا أن يجعلوا لليهود دوراً في تاريخ بيت المقدس طوال العصور الوسطى، وتخصص عدد منهم في التأليف عن تاريخ المدينة وظهرت لهم بحوث كثيرة ومتنوعة من أمثال: بوشع براور (Prawer, P.) وجاكوب ليف (Lev, J.) وسيفان (Sivan) وجوتين (Goitein) وكثير غيرهم. والواقع، فإن الروايات التاريخية في المصادر العربية لا تثبت لليهود دوراً في تاريخ بيت المقدس نسبة لقلة عددهم طوال العصور الوسطى.

ومنذ النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت مجموعة من الباحثين العرب المختصين بالتاريخ وغير المختصين به ممن كتبوا عن تاريخ بيت المقدس من أمثال عارف العارف، وكامل جميل العسلي وعبدالجليل عبدالمهدي وغيرهم. وكانت مؤلفات كامل العسلي الأكثر تنوعاً وأكثر عمقاً وتناولت موضوعات شتى شملت دراسة معاهد العلم في بيت المقدس ونظام الأوقاف، كما أن عبدالجليل عبدالمهدي تخصص في الكتابة عن المدارس والحركة الفكرية في المدينة في العصرين الأيوبي والمملوكي.

ويمثل عصر سلاطين المماليك، الذي امتد لأكثر من قرنين من الزمان، مرحلة هامة في تاريخ بيت المقدس، لها طابعها الخاص الذي يتميز بالأمن والاستقرار، وهو ما

لم يتوفر للمدينة في العهد الأيوبي السابق، فضلاً عن الثراء والازدهار، مما جعل المدينة مركزاً حضارياً وتعليمياً هاماً في المشرق الإسلامي.

وتحاول هذه الدراسة التعمق في تاريخ بيت المقدس خلال عهد سلاطين المماليك والتركيز على الجوانب السياسية والإدارية والثقافية والعمرانية في المدينة.

وقد قمت بتقسيم الدراسة إلى أربعة فصول، وتناول الفصل الأول تاريخ بيت المقدس من فتح المسلمين لها في خلافة عمر بن الخطّاب وحتى نهاية العهد الأيوبي، وهي فترة طويلة امتدت لأكثر من ست قرون. وقد ركزنا على بيان الدور المميز الذي أعطاه الإسلام للمدينة خلال هذه الفترة.

أما الفصل الثاني، فتناول دراسة الحياة السياسية والإدارية في بيت المقدس في العصر المملوكي. وقد استعرضت تاريخ المدينة خلال عصر سلاطين المماليك وأبرز مظاهر اهتمام السلاطين بالمدينة من الناحية السياسية والعمرانية، كما أوضحنا التنظيمات الإدارية والوظائف الرئيسة في المدينة بأقسامها الثلاث: أرباب السيوف، وأرباب الأقلام والوظائف الدينية. ويركز الفصل الثالث على دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بيت المقدس، وتم بيان سكان المدينة من مسلمين ونصارى ويهود، وكيف أن الحياة الاجتماعية ظل يسودها التسامح نتيجة سياسات السلاطين. ويوضح هذا الفصل أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية والمواسم والأعياد والاحتفالات الدينية لفئات المجتمع المختلفة.

أما الفصل الرابع، فقد تناول دراسة الحياة العلمية في بيت المقدس خلال عصر سلاطين المماليك، وأوضحنا فيه عوامل ازدهار الحياة العلمية والثقافية نتيجة هجرة العلماء من المشرق والمغرب الإسلاميين إضافة إلى ظهور أسرات مقدسية أسهمت في نشاط الحياة العلمية. ونجد في الفصل الرابع أيضاً ذكراً لأهم المدارس والمؤسسات التعليمية في المدينة، كما نتناول طرق التعليم في هذه المدارس والمؤسسات ونظام الوقف الذي ضمن لها الاستمرارية في أداء أدوارها.

وقد اعتمدت الدراسة على عدد كبير من المصادر العربية والأجنبية، إضافة لعدد هائل من الدراسات الحديثة باللغة العربية واللغات الأوربية، وحاول الباحث أن يوفق بين وجهات النظر المختلفة في بعض القضايا الهامة وإن كان الاعتماد الأكبر على توثيق صحة الروايات التاريخية. والواقع، فإن المصادر العربية تبدو أكثر دقة وتفصيلاً في كثير من الجوانب التي تغطيها مقارنة بالمصادر الأجنبية المتمثلة في كتابات بعض الرحالة والحجاج الأوربيين الذين زاروا بيت المقدس خلال عصر سلاطين المماليك.

ولقد ارتأيت في كتابة هذه الدراسة الالتزام بما توفر لديّ من معلومات، والاعتماد عليها اعتماداً مباشراً في تدوين تاريخ مدينة بيت المقدس في العصر المملوكي؛ ذلك لأن العودة إلى ينابيع التراث ضرورة تفرضها هموم المرحلة التي نعيشها ووجوب تأصيل هذه الينابيع، دون أن تكون هذه العودة شغفاً بهذا الماضي التليد، بل وعياً به وشحذاً للعواطف وإثارة لنفوس المسلمين في مواجهة الهجمة الصهيونية الشرسة ومحاولات تهويد بيت المقدس.

والواقع فإن التراث التاريخي المتعلق ببيت المقدس يضم العديد من المؤلفات في شتى المجالات من الحوليات وكتب التاريخ العام، وكتب التراجم، وكتب الفضائل، وكتب الجغرافيا، وكتب الحسبة والنظم الإدارية وغيرها. وقد اعتمدنا على ستين مصدراً من المصادر العربية المطبوعة. ومن المصادر التي اهتمت بتاريخ بيت المقدس خلال عصر سلاطين المماليك كتاب ابن أيبك الدواداري (ت 734هـ/ 1333م) الموسوم بـ: " كنز الدرر وجامع الغرر "، وكتاب المقريزي (ت 845هـ/ 1441م) الموسوم بـ: " السلوك لمعرفة دول الملوك ".

ويعتبر كتاب " الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل " أهم كتب التراث التي اعتمدت عليها الدراسة. وقد تخصص الكتاب في التاريخ المحلي لمدينة بيت المقدس، كما ضم معلومات هامة في السير، والأدب، وفي مجال الحياة الاقتصادية والاجتماعية، والعلاقات بين الطوائف المختلفة في المدينة ومؤلف الكتاب هو مجير الدين الحنبلي (ت 9207هـ/ 1520م) وهو أحد العلماء المقادسة الذين عاصروا الفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك، ويعتبر من أصدق شهود العيان لكثير من الأحداث التي تفرد بذكرها.

ومن نماذج المصادر العربية الشاملة التي اعتمدت عليها الدراسة كتاب: " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " لمؤلفه ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد المقدسي الأصل، كاتب السر بالديار المصرية (ت 749هـ/ 1348م). وترجع أهمية هذا المصدر إلى أنه يشتمل معارف وعلوماً عديدة، إذ يشتمل على معلومات في الأدب، والديانات، والتاريخ، فضلاً عن المعلومات الوافرة المتعلقة بالحياة الاجتماعية، والأقليات الدينية، وعلاقتها الرسمية بالدولة المملوكية. والواقع، فإن موقع ابن فضل الله العمري كواحد من أبرز رجالات الإدارة في العصر المملوكي، وعمله في ديوان الإنشاء هو الذي حدا به إلى اختيار الموضوعات التي عالجها في كتابه. ولقد أمدنا

الكتاب بمعلومات قيمة عن بيت المقدس ضمن الفصل الذي عنوانه: (باب عن مملكة مصر والشام والحجاز)، والذي أوضح فيه عناية سلاطين وأمراء المماليك بمدينة بيت المقدس، كما حوى معلومات غاية الأهمية عن جغرافية المدينة، ومدارسها، وموارد المياه فيها.

ويندرج تحت المؤلفات الإدارية الهامة كتاب القلقشندي (ت 821هـ/ 1418م) الموسوم بـ: " صبح الأعشى في صناعة الإنشا ". وقد استفادت الدراسة من كتاب القلقشندي في تعريف النظم الإدارية في بيت المقدس خلال عصر سلاطين المماليك.

كذلك اعتمدت الدراسة على عدد كبير من الدراسات الأجنبية وكتب الرحالة والحجاج المسيحيين واليهود الذين دونوا ملاحظاتهم عند زياراتهم لبيت المقدس خلال عصر سلاطين المماليك.

والواقع فإن كتب الرحالة والحجاج تحوي معلومات شيقة عن وصف الحياة الاجتماعية في بيت المقدس، والعلاقات بين مختلف الطوائف الدينية فيها، بالإضافة إلى وصف المقدسات والمزارات الدينية للنصارى واليهود، وهي موضوعات لم تهتم المصادر العربية بذكرها إلا في نطاق ضيق. ولكن كتابات الرحالة والحجاج الأوربيين وغيرهم من الرحالة اليهود يجب أن تعالج بحذر وهو ما حاولنا في الدراسة كما سيتضح للقارئ.

كانت هذه إشارة لبعض نماذج المصادر التي اعتمدنا عليها في دراستنا للجوانب المختلفة من تاريخ بيت المقدس خلال العصر المملوكي، إلا أن القارئ لهذا البحث سيجد العديد من المصادر الهامة التي تستخدم لأول مرة، والتي تلقي كثيراً من الضوء على جوانب الحياة المختلفة في المدينة المقدسة.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه وهو نعم المولى ونعم النصير.

د. محمد الحافظ النقر

دبي، أيار(مايو) 2004م

الفصل الأول

تاريخ بيت المقدس
من الفتح العُمَري حتى نهاية العهد الأيوبي

يتناول هذا الفصل عرضاً سريعاً لتاريخ مدينة بيت المقدس منذ أن فتحها المسلمون في خلافة الخليفة عمر بن الخطّاب وحتى نهاية العهد الأيوبي. وهي فترة تمتد لأكثر من ست قرون لا يمكن دراستها بالتفصيل في فصل واحد. ولتسهيل عرض تاريخ المدينة في هذه الفترة الطويلة، فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل هي: الفترة الإسلامية الأولى من الفتح العمري وحتى نهايات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حين استولى الفرنجة(الصليبيين) على المدينة. وتمثل فترة الاحتلال الفرنجي (الصليبي) لبيت المقدس، والتي استمرت طوال ثمانين وثمانين سنة، فترة انقطاع وطمس في هوية المدينة الإسلامية في حين يمثل استرداد صلاح الدين للمدينة من الفرنجة عقب معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، بداية مرحلة جديدة في تاريخها وعودة الهوية الإسلامية إليها خلال العهد الأيوبي الذي سبق العصر المملوكي.

بيت المقدس في الفترة الإسلامية الأولى

حتى نهايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي

يشير القرآن الكريم إلى الإسراء بالنبي ﷺ من المسجد الحرام (مكة) إلى المسجد الأقصى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]، وهناك روايات كثيرة مبكرة تفسر المسجد الأقصى بأنه يعني بيت المقدس، وبصورة أدق الحرم. ويرى البلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) أن الإسراء حدث قبل الهجرة بحوالي ثمانية عشر شهراً[2]، ويجعله ابن كثير سنة قبل الهجرة. ويرجح بأن تعظيم بيت المقدس عند المسلمين بدأ قبل الهجرة، وازدادت حرمة المدينة باتخاذها القبلة الأولى للمسلمين إذ يذكر الزهري (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١م) أن المسجد الذي بناه الرسول ﷺ في المدينة كانت قبلته باتجاه بيت المقدس[3]. واستمرت القبلة تجاه بيت المقدس حوالي سنة ونصف حتى نزلت الآية: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[4]. وبعدها بدأ المسلمون بالتوجه نحو مكة في صلواتهم.

وقد أسهمت الأحاديث النبوية في ترسيخ حرمة بيت المقدس عند المسلمين، خصوصاً الحديث الذي يقول: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام (في مكة) ومسجدي (أي مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة) والمسجد الأقصى). وإضافة إلى الأحاديث التي رويت عن الرسول الكريم، فإن الآثار والأقوال التي نسبت إلى بعض الصحابة والتابعين أسهمت في زيادة تعظيم بيت المقدس في نفوس المسلمين[5].

عندما بدأت الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام وفلسطين في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، كانت بيت المقدس تابعة للحكم البيزنطي. ونجد في المصادر الإسلامية العربية خلافاً كبيراً حول ظروف وملابسات فتح المسلمين للمدينة، كما اختلفت المصادر حول شروط الصلح لأهل المدينة. ويذكر سيف بن عمر (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٠م) في خبره الذي نقله عنه الطبري: " فإن بيت المقدس فتحت أبوابه في سنة ١٥هـ ". وتتفق معظم المصادر العربية أن فتح بيت المقدس تم في سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م، كما أن مصادر أخرى تذكر بأن فتح المدينة تم في سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م استناداً إلى بعض الأخبار التي أوردها البلاذري[٦].

وتذكر بعض المصادر العربية الإسلامية بأن بيت المقدس استسلمت للقائد أبو عبيدة بن الجرّاح، في حين تذكر مصادر كثيرة أن بطريرك المدينة سفرنيوس رفض أن يسلم إلا للخليفة عمر بن الخطّاب[٧]. وممن ذكر وجود الخليفة عمر عند فتح بيت المقدس ابن سعد الذي أورد: (خرج عمر إلى الجابية في صفر سنة ١٦هـ، ومكث عشرين ليلة، ثم حضر فتح بيت المقدس وقسم الغنائم بالجابية)[٨]. أما المصادر التي أنكرت وجود الخليفة عند فتح المدينة، فأهمها ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م) الذي أورد أن الخليفة: (أرسل أحد القادة من الجابية إلى بيت المقدس فسلمت إليه)[٩]. ويذكر اليعقوبي رواية مشابهة ويشكك في وجود عمر عند فتح المدينة[١٠].

ويبدو أن الروايات التي تؤكد مجيء الخليفة لتسلم المدينة وإجراء الصلح مع أهلها تهدف إلى إبراز أهميتها، وهو ما نجده في بعض المصادر الفرنجية خاصة حولية ثيوفان (Theophanes). ونجد اختلافاً واضحاً بين المصادر العربية المبكرة والمتأخرة حول شروط الصلح التي وقعت مع أهل بيت المقدس، كما نجد نفس الخلاف في المصادر الفرنجية والنصرانية. ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى قدسية المدينة لدى النصارى والمسلمين، كما لا ننسى بأن بيت المقدس كانت تضم عدداً كبيراً من الكنائس مثل: كنيسة القيامة، وبعض الأديرة الرئيسة.

ويُفهم من الروايات العربية المبكرة أن الصلح مع بيت المقدس كان لا يختلف كثيراً عن عهود الصلح التي وقعها المسلمون مع كثير من المدن الرئيسة

في بلاد الشام، مثل حمص ودمشق وغيرها، إذ التزم المسلمون بتوفير الأمان للنصارى وأموالهم وكنائسهم مقابل دفع الجزية[11]. وكان اليعقوبي أول من أورد نصاً لصلح بيت المقدس: (هذا كتاب عمر بن الخطّاب لأهل بيت المقدس .... إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب، إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً)[12].

ويورد ابن البطريق، وهو مؤرخ نصراني توفي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، نصاً مشابهاً لما ورد عن اليعقوبي، فيقول: (بسم الله من عمر بن الخطّاب لأهل إيلياء: إنهم آمنون على دمائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم ألا تهدم ولا تسكن)[13]. ونجد في المصادر المتأخرة نصوصاً مشابهة لكتاب عهد عمر لأهل بيت المقدس، فابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) ذكر في كتابه " فضائل القدس ": (كتب عمر لأهل بيت المقدس: إني قد أمنتكم على دمائكم وأموالكم وذراريكم وصلبانكم وبيعكم، لا تكلفوا فوق طاقتكم ... وأن عليكم الخراج كما على مدائن فلسطين)[14].

ورغم أن المصادر العربية المبكرة أوردت عهد عمر لأهل بيت المقدس، إلا أن النص الموسع للصلح المعروف بـ: " العهدة العمرية " لا يصل إلينا قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وكان أول من أورده المشرف بن المرجي في مخطوط له عن " فضائل بيت المقدس والشام ". وقد نقل عن المشرف من جاء بعده من المؤرخين، وخاصة ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م)، ومجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).

ومهما يكن الاختلاف بين المصادر العربية حول فتح بيت المقدس، وما تلاه من تأمين أهلها، إلا أنه من المؤكد أن المدينة سرعان ما اكتسبت أهمية متزايدة بعد الفتح الإسلامي إذ سكنها عدد كبير من الصحابة من أمثال: عبادة بن الصامت، وواثلة بن الأسقع، وأبو ريحانة شمعون الأنصاري، وفيروز الديلمي، وذو الأصابع التميمي اليمني وكثير غيرهم.

وفي زمن الأمويين (٤٠-١٣٢هـ/ ٦٦٠- ٧٤٩م)، نالت بيت المقدس اهتماماً خاصاً من الخلفاء، كما أن قُرب المدينة من مركز الخلافة الأموية في دمشق

جعلها محط أنظار الخلفاء الذين شيدوا بها بعض الأبنية العظيمة مثل مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى. وقد أوقفت على المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرهما من المنشآت الأوقاف الهائلة التي شملت ريع بعض الأراضي المحيطة ببيت المقدس. ورغم اهتمام الأمويين ببيت المقدس، إلا أنهم لم يتخذوها مركزاً إدارياً لوقوعها في داخلية فلسطين، لكن المدينة كان لها والٍ خاص، وقاضٍ وعدد من الموظفين الذين يمثلون الإدارة الإسلامية العربية. وقد انتعشت الحياة في بيت المقدس خلال العصر الأموي، ولم تتأثر المدينة بالصراعات بين أبناء البيت الأموي أو بالعصبيات بين القبائل العربية الرئيسة مثل القيسية المضرية. ويُفهم من المصادر العربية ازدياد عدد سكان المدينة من العرب، كما تلقي المصادر الضوء على عملية التعريب في المدينة. وتوضح المصادر الفرنجية ازدهار ظاهرة الحج إلى بيت المقدس خلال العصر الأموي، إذ يذكر الرحالة الفرنسي الأسقف اركولف (Arculf)، الذي زار المدينة حوالي سنة٦١هـ/ ٦٨٠م، بأن الحجاج النصارى كانوا يأتون إليها من بلدان وجنسيات مختلفة، ويعقدون فيها سوقاً سنوية. كما ذكر اركولف بأن الكنائس الرئيسة في المدينة، وخاصة كنيسة القيامة، كانت تؤدى فيها الشعائر الدينية النصرانية بكل اطمئنان[١٥].

وبسقوط الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، ازدادت أهمية بيت المقدس، ذلك أن العباسيين كانوا من آل البيت فأولوا المدينة اهتماماً خاصاً. ومن مظاهر عناية العباسيين ببيت المقدس زيارات الخلفاء المتكررة لها، وقيامهم بإصلاحات واسعة فيها، إضافة لتخصيصهم الأوقاف السنية على منشآتها الإسلامية. فقد حدثت خلال العصر العباسي الأول بعض الزلازل التي أحدثت أضرار بالغة بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة إضافة لهدم أسوار المدينة. ومن ذلك ما حدث في سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م حين وقعت (هزة شديدة خربت بيت المقدس)[١٦]. وفي خلافة المأمون، حدثت هزتان أرضيتان أصابتا المسجد الأقصى بأضرار جسيمة مما حدا بالخليفة لإصلاح الأجزاء المتهدمة[١٧]. كذلك قام الخليفة المهدي بإجراء إصلاحات واسعة في المسجد الأقصى في سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩ م بعد هزة أرضية كبيرة نتجت عنها أضرار واسعة[١٨].

واستمر الحج الأوربي إلى بيت المقدس زمن العباسيين ذلك أن سياسة العباسيين الأوائل الانفتاحية أدت لزيادة الصلات التجارية والثقافية والحضارية مع كثير من البلدان الأوربية، خاصة الدولة الكارولنجية في فرنسا. ويرجح بأن الخليفة هارون الرشيد سمح لشارلمان بإنشاء بعض النُزل (Hospices) لإقامة الحجاج النصارى في بيت المقدس[١٩].

ونجد في المصادر العربية المعاصرة إشارات كثيرة عن ازدهار الحياة الثقافية في بيت المقدس زمن العباسيين إذ قصد المدينة عدد كبير من العرب المسلمين الذين استوطنوها أو سكنوا بها لفترات متفاوتة مثل: التجار والعلماء والحجاج مما ساعد على ازدياد تعريبها وأسلمتها. وتتحدث المصادر عن العلاقات السلمية بين المسلمين والنصارى وغيرهم من الأقليات في المدينة، كما تتحدث عن الأمن النسبي نتيجة قلة الثورات والاضطرابات في المدينة.

إلا أنه منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ونتيجة لضعف وانحلال الدولة العباسية، بدأت الدويلات الانفصالية تستقل عن جسم الدولة وبذلك خرجت بيت المقدس عن سيطرة العباسيين. فقد آلت المدينة لحكم الطولونيين حوالي أقل من نصف قرن، ثم خضعت للأخشيديين لحوالي نفس الفترة. ولكن حركة الحج الأوربي ظلت مستمرة إلى المدينة، كما ظلت أحوالها مستقرة نسبياً. ومما يجدر ذكره أن بعض الأخشيديين أولوا المدينة أهمية خاصة فحرصوا على أن يدفنوا فيها، مثل محمد بن طغج الأخشيد[٢٠]، مؤسس الدولة الأخشيدية، وكافور الأخشيدي، وغيرهما[٢١].

وبقيام الدولة الفاطمية في المغرب في نهايات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ونجاحها في الانتقال بالخلافة الفاطمية إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، بدأت صفحة جديدة في تاريخ المشرق الإسلامي ذلك أن الفاطميين سرعان ما بدؤوا التوسع في بلاد الشام ودخلت بيت المقدس تحت سيطرتهم في سنة ٣٥٩هـ، ٩٧٠م[٢٢]. وفي ظل حكم الفاطميين، حدثت تغييرات كبيرة في بيت المقدس نتيجة سياسات بعض الخلفاء الفاطميين تجاه النصارى من جهة، ونتيجة الضغوطات الأوربية على الفاطميين من جهة أخرى. وينبغي التوقف لمناقشة أسباب هذه التغيرات والنتائج المترتبة عليها.

وتكشف المصادر العربية، خاصة كتب الرحالة والجغرافيين، مثل المقدسي وابن حوقل، تفاصيل وافية عن جوانب الحياة في بيت المقدس تحت حكم الفاطميين الذي استمر لأكثر من قرن من الزمان (٣٥٩هـ/ ٤٦٥م - ٩٧٠-١٠٧٠م). فقد اهتم الفاطميون بتطوير التجارة الخارجية لبلاد الشام مع الغرب الأوربي مما ساعد على انتعاش حركة الحج والرحلة إلى فلسطين عامة، وبيت المقدس خاصة. وإذا وضعنا في الاعتبار أنه منذ بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي دخلت في المسيحية أعداد هائلة من شعوب البلقان وروسيا نتيجة جهود الكنيسة البيزنطية الرسمية، لأمكننا تصور زيادة أعداد الحجاج إلى بيت المقدس في ظل التعاليم التي كانت تقول بأن الحج إلى المدينة يكفر بعض الذنوب الصغيرة. وقد جنى الفاطميون أرباحاً طائلة من ازدياد حركة الحج والتجارة لأنهم انشأوا الطرق والنُزل وفرضوا المكوس والضرائب على الحجاج والتجار الأوربيين[٢٣].

وقد شهدت بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقوع حادثة مهمة في تاريخ بيت المقدس تمثلت في هدم كنيسة القيامة سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، بأمر من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢١م). ويذكر المؤرخ النصراني يحيى بن سعيد الأنطاكي (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) أن الحاكم بأمر الله ضايق النصارى في بيت المقدس مما أدى إلى هجرة الكثيرين منهم إلى المناطق الحدودية في شمالي بلاد الشام التي كانت تخضع للنفوذ البيزنطي، ثم أعقب ذلك بهدم لكنيسة القيامة وتسويتها بالأرض[٢٤]. ورغم أن الحاكم تراجع عن سياسة مضايقة النصارى قبل وفاته في سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م، إلا أن " قضية كنيسة القيامة " ظلت موضوعاً رئيساً في العلاقات بين الفاطميين والإمبراطورية البيزنطية لفترة طويلة لاحقة.

وبعد وفاة الحاكم، بدأت العلاقات السياسة تتحسن بين الفاطميين والبيزنطيين مما أدى إلى تبادل السفارات بين الطرفين التي انتهت بالوصول لاتفاق في سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م، نص على إعادة بناء كنيسة القيامة. ويذكر المقريزي صراحة بأن الاتفاق تم بين الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن والخليفة الفاطمي الظاهر على إعادة بناء الكنيسة مقابل أن يُخطب للظاهر في المسجد

(الجامع) الذي كان في القسطنطينية[٢٥]. ويذكر يحيى بن سعيد الأنطاكي أن الإمبراطور البيزنطي طلب من الخليفة الفاطمي السماح أيضاً بإعادة بناء بقية الكنائس التي كان الحاكم بأمر الله قد أمر بهدمها في مصر وبلاد الشام[٢٦].

وقد اكتملت عملية إعادة بناء كنيسة القيامة في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٥هـ/ ١٠٣٥- ١٠٩٤م) ذلك أن الإمبراطور ميخائيل الخامس أنفق أموالاً طائلة في إعادة البناء كما استطاع استقطاب الدعم المادي من بعض الملوك والكنائس والأديرة الأوربية. وقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو، الذي زار بيت المقدس في سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م، الكنيسة بقوله: (وهذه الكنيسة فسيحة تتسع ثمانية آلاف رجل، وهي عظيمة الزخرف من الرخام الملون والنقوش والصور، وزينت بطلاء من الذهب)[٢٧].

وعقب إعادة بناء كنيسة القيامة، وطوال العصر الفاطمي، ازدهرت ظاهرة الحج والرحلة إلى فلسطين عامة، وبيت المقدس خاصة، كما تذكر المصادر العربية أن النصارى عاشوا في ظل تسامح ديني كبير. ونفهم من كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين أن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة من النصارى واليهود، كانت طيبة في بيت المقدس، إذ يذكر المقدسي أن المسلمين كانوا يشاركون النصارى الاحتفال ببعض أعيادهم[٢٨]. ومضى المقدسي أكثر من ذلك حين قال عن بيت المقدس: (قد غلب عليها النصارى واليهود)[٢٩]، ولا يعني ذلك أن النصارى واليهود كانوا يمثلون أغلب سكان بيت المقدس، ولكن الراجح أنهم غلبوا على الوظائف في دواوين المدينة. كذلك أورد المقدسي أن بيت المقدس كانت (لا تخلو كل يوم من غريب)[٣٠]، مما يمكن أن يُفسر على كثرة الحجاج إليها ليس من النصارى فحسب، بل من الحجاج المسلمين. ويضيف المقدسي بأن بعض الحجاج المغاربة القادمين للحجاز كانوا يبدأون إحرامهم من بيت المقدس[٣١]. ومن الطبيعي أن تزدهر الصناعات المختلفة والأسواق في المدينة نتيجة كثرة سكانها من المقيمين والحجاج إذ يورد الرحالة ناصر خسرو: (وبها أسواق جميلة وأبنية عالية ... وفي المدينة صناع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة)[٣٢].

أما النشاط الثقافي والعلمي في بيت المقدس زمن الفاطميين، فيُفهم من المصادر العربية اهتمام الفاطميين بتشجيع الحياة العلمية والثقافية في المدينة إذ أنشأوا بها (دار علم) لتعليم الفكر الشيعي. إلا أن المقدسي يذكر بأن عدد العلماء كان قليلاً في المدينة. كذلك أشار المقدسي إلى قلة حلقات التدريس والنقاشات النظرية بالمسجد الأقصى إذ يقول: (لا مجلس نظر ولا تدريس فيه)[٣٣]. أما فيما يخص العلوم التطبيقية كالطب والهندسة، فيذكر المقدسي ازدهارها في المدينة إذ يقول: (كان فيها كل حاذق وطبيب)[٣٤]. ومما يدل على صحة رواية المقدسي أن المصادر العربية الأخرى تؤكد ازدهار الطب وبروز عدد من الأسر المقدسية، سواء من المسلمين أو النصارى، ممن توارثوا الاشتغال بمهنة الطب.

وخلال العصر الفاطمي، حدث تطور هام في مفهوم قدسية بيت المقدس عند المسلمين إذ بدأت تظهر كتب الفضائل. وقد بدأ ظهورها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأهمها كتاب " فضائل الشام "، وكتاب " فضائل بيت المقدس " للواسطي، وكتاب " فضائل القدس والشام " لأبي المعالي المشرف بن المرجي بن إبراهيم المقدسي. وركزت كتب الفضائل على فضائل بيت المقدس وحرمة الأماكن الدينية فيها كالحرم وقبة الصخرة وغيرها. وقد استمد أدب الفضائل مادته الأساسية من الحديث النبوي الشريف وآثار الصحابة والتابعين، إضافة إلى القصص والموروثات الشفهية. وكانت من أهم الموضوعات التي تناولتها كتب الفضائل: فضل زيارة بيت المقدس، وفضل السكنى فيها، وأنها دار " الهجرة الثانية في نهاية الزمان " وأنها أرض المحشر ". كما ركزت كتب الفضائل على إبراز فضل الصلاة في المسجد الأقصى. وكان لكتب الفضائل أثر كبير بين المسلمين، والدليل على ذلك ما ذكره ناصر خسرو من سكنى بعض الناس في بيت المقدس ومجاورتهم في الحرم حتى وفاتهم، كما أشار إلى أن بعض من كانوا لا يطيقون الحج إلى مكة يذهب الواحد منهم إلى القدس: (في الموسم فيتوجه إلى الموقف ويضحي ضحية العيد كما هي العادة)[٣٥]. ويعرف هذا التقليد بالتقديس، وهي بدعة انتشرت بين بعض المسلمين وأشارت إليها مصادر أخرى غير ناصر خسرو. فالطرطوشي، المتوفى في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي

عشر الميلادي، يذكر: (وإذا كان يوم عرفة حُشر أهل السواد وكثير من أهل البلد(بيت المقدس) في المسجد مستقبلين القبلة مرتفعة أصواتهم بالدعاء كأنه موطن عرفة ... وهم يعتقدون أن من وقف ببيت المقدس أربع وقفات فإنها تعدل حجة إلى مكة)[٣٦].

وقد انتهت سيطرة الفاطميين على بيت المقدس في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إذ استولى عليها التركمان الذين استغلوا ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام الجنوبية. فقد قام أحد الأمراء التركمان، ويدعى اتسز بن أوق، بالاستيلاء على أجزاء واسعة من بلاد الشام كما استولى على بيت المقدس في سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م، واتخذها مركزاً لإقطاعية سلجوقية ضمت معظم فلسطين[٣٧]. وقد واجه اتسز مقاومة شديدة من أهل بيت المقدس، إلا أنه استطاع قمع هذه المقاومة باستخدام أساليب غاية في القسوة، إذ يذكر سبط بن الجوزي أنه خلال أحد الثورات، سمح اتسز لرجاله التركمان بقتل الناس ونهب الأموال: (فأخذوا منها شيئاً لا يبلغه الحصر بحيث بيعت الفضة بدمشق كل خمسين درهماً بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار)[٣٨]. إلا أن سيطرة اتسز على بيت المقدس لم تدم سوى ست سنوات إذ استطاع الأمير السلجوقي تتش بن ألب أرسلان، شقيق السلطان السلجوقي ملكشاة، أن ينتزع السيطرة على المدينة وقام بقتل اتسز سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م. وقد عين تتش أحد الأمراء التركمان، ويدعى ارتق بن أكسب، نائباً عنه في بيت المقدس. وينبغي ذكر أن التركمان والأراتقة الذين حكموا بيت المقدس كانوا من المسلمين المهتمين بنصرة المذهب السني، وهو التيار الذي بدأه السلاجقة الأتراك منذ بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

حكم الأراتقة بيت المقدس نيابة عن سلاجقة بلاد الشام لحوالي عقدين من الزمان (٤٧٢-٤٩١هـ/ ١٠٧٩ – ١٠٩٨م) تميزت بالهدوء النسبي وازدهار الحياة الثقافية والعلمية. فقد استقر في بيت المقدس عدد كبير من علماء الشافعية والحنفية، كما بنيت بها المدارس والمساجد. ومما يدلل على ازدهار الحركة العلمية والثقافية أن صاحب كتاب " الأنس الجليل " يذكر عدداً

كبيراً من مشاهير العلماء المسلمين الذين عاشوا في المدينة، أو زاروها، خلال الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من أمثال: أبو بكر الطرطوشي شيخ الشافعية في بلاد الشام حينذاك[٣٩]، والشيخ الغزالي، الذي كان يقيم في الزاوية النصرية حتى سميت باسمه (الغزالية)، وابن العربي، الذي زار المدينة سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م، ومكث بها ثلاث سنوات وسجل انطباعاته عن الحياة الفكرية والثقافية في المدينة في كتابه " قانون التأويل "[٤٠].

وفي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، استطاع الأفضل بن بدر الجمالي، وزير الفاطميين، أن يسترد بيت المقدس من الأراتقة دون مقاومة تذكر[٤١]. وتم ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحملة الفرنجية (الصليبية) الأولى قد وصلت مشارف بلاد الشام الشمالية وبدأت حصار مدينة إنطاكية. ولم تدم سيطرة الفاطميين على بيت المقدس سوى سنة واحدة إذ استولى عليها الفرنجة (الصليبيين) سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م.



احتلال الفرنجة (الصليبيين)
لبيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م

خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كان الغرب الأوربي يمر بمرحلة خطيرة من التطورات التي شملت الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد انعكست هذه التطورات في العلاقات بين الشرق والغرب إذ نجحت البابوية في دفع الآلاف من المتحمسين لفكرة " الحرب المقدسة" (War Holy)، للخروج في الحملة الصليبية الأولى التي استولت على أجزاء واسعة من بلاد الشام وانتهت بالاستيلاء على بيت المقدس. وظلت بيت المقدس مركز الصراع بين المسلمين والفرنجة لأكثر من قرنين من الزمان حتى استطاع السلطان المملوكي الأشرف خليل طرد آخر بقايا الفرنجة (الصليبيين) من عكا في سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

وفيما يتصل ببيت المقدس، فإن البابوية، ومن خلفها الكنائس والأديرة الأوربية الرئيسة، سعت خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي لتشجيع حركة الحج والرحلة إلى المدينة عن طريق تقديم التسهيلات الضخمة للحجاج. وكان ذلك في وقت بدأت تظهر فيه بعض الأفكار الدينية النصرانية التي شاعت بين الناس حول " حق النصارى الكاثوليك في بيت المقدس ". وقد تبلور ذلك التيار في ظهور تحولات خطيرة في بعض مفاهيم الرهبنة الأوربية، إذ بدأ بعض الرهبان ينادون بالتخلي عن مبدأ العزلة (Solitude)، الذي كان أحد أركان الحياة الديرانية، والخروج للمشاركة في قضايا المجتمعات الأوربية[٤٢]. ونتج عن ذلك خروج كثير من الرهبان، خاصة من دير كلوني (Cluny)، ودير بندكت (Bendict) ودير جورد (Gordz) وغيرها من الأديرة الرئيسة في فرنسا، إلى بيت المقدس حيث مكثوا بها فترات متفاوتة قبل أن يعودوا إلى الغرب الأوربي ويقوموا بتأليف مؤلفات تركز على " قدسية المدينة بالنسبة للنصارى "، وتدعو إلى " تحريرها من قبضة المسلمين وفتح طرق الحج إليها ". والواقع فإن

سيطرة السلاجقة الأتراك على الطريق البري المار عبر الأناضول وآسيا الصغرى إلى فلسطين، كان يعرقل طرق الحج الأوربي إلى بيت المقدس.

والثابت أن رحلات الحج الأوربي إلى بيت المقدس حدثت بها تطورات هامة في نهايات القرن الحادي عشر الميلادي. فقد أصبح الحج ظاهرة جماعية بعد أن كانت ظاهرة فردية لتكفير بعض الذنوب. ومن جانب آخر، أصبح الحج ممزوجاً بروح الحماسة الدينية إذ صار يخرج فيه أعداد هائلة من رجال الدين، والرهبان، والإقطاعيين، والفرسان، والعامة مدججين بالسلاح، ومن الأمثلة على ذلك " الحج الكبير " (The Grand Pilgrimage)، الذي قاده سيفريد (Siefried)، رئيس أساقفة مدينة مينز (Mainz) الألمانية، في سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م، وبلغ عدد المشاركين فيه حوالي عشرة آلاف حاج[٤٣]. وفي سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، قاد روبرت الفلاندرزي (Robert of Flanders)، دوق إقليم فلاندرز في فرنسا، مجموعة هائلة من الحجاج الأوربيين إلى بيت المقدس معظمهم من النبلاء والفرسان، وقد وصف ردولف جلابر (Rudolf Glaber)، أحد كبار رجال الدين الكاثوليك، الذي زار بيت المقدس حوالي سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، ازدهار ظاهرة الحج الأوربي وطغيان الحماسة الدينية على أولئك الحجاج[٤٤].

في ظل هذه المتغيرات في الفكر الأوربي الديني تجاه بيت المقدس، استطاع البابا اوربان الثاني (Urban II) أن يجد تأييداً لدعوته للخروج في حملة لقتال المسلمين في الشرق و " لتخليص القبر المقدسي من أيديهم وفتح طريق الحج إلى المدينة المقدسة (بيت المقدس) ".

وقد وجه البابا أوربان الثاني خطاباً في المؤتمر الديني الذي عُقد في مدينة كليرمونت الفرنسية، في نوفمبر ١٠٩٥م، دعا فيه المسيحيين للاشتراك في الحملة الصليبية لقتال المسلمين في الشرق. وقد وجدت دعوته استجابة كبيرة بين فئات المجتمعات الأوربية، خاصة بين النبلاء والإقطاعيين، ذلك أن نظام وراثة الأرض في الغرب الأوربي كانت قد تغيرت من نظام توزيع الأرض بين الأبناء الذكور عند وفاة والدهم إلى نظام البكورة (Primogeniture)، أي إعطاء الأرض للابن الأكبر. وهذا التغيير أدى لأن يصبح أبناء الإقطاعيين

والنبلاء من دون الأوائل دون فرصة لتكوين إقطاعيات لهم في بلادهم. وقد استجاب لدعوة أوربان كثير من الأمراء الإقطاعيين من الأبناء دون الأوائل من أمثال: غودفري البويوني (Godfrey De Bouillon)، دوق اللورين، وبوهيمند(Bohemond) النورماندي، وريموند دي تولوز (Reyomnd de Toulouse)، وستفن النورماندي (Stephen of Normandy)، وهيواوف فرماندوس الفرنسي(Hugh of Vermondos) ابن هنري الأول ملك فرنسا، وروبرت النورماندي (Robert of Normandy) ابن وليم الفاتح (Wiliam the Conqueror)[٤٥].

وقد خرجت حملة فرنجية، عرفت باسم حملة العامة، أو الحملة الشعبية (Common People Crusade) عقب انتهاء مؤتمر كليرمونت، وضمت جموعاً من الفقراء والرهبان والنساء والأطفال: (لكنها أبيدت على يد الأتراك السلاجقة بعد عبورهم البسفور ولم يسلم منهم إلا القليل)[٤٦].

ثم خرجت حملة النبلاء والأمراء في نهاية سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م، فيما عرف بالحملة النظامية التي كان غالبية المشاركين فيها من الفرسان والجنود المحترفين يقودهم نبلاء وأشراف وإقطاعيين من مختلف بقاع أوربا. وكان أغلب المشاركين في هذه الحملة من الفرنسيين. واستطاعت الحملة النظامية أن تشق طريقها بسرعة وسقطت في أيدي الفرنجة مدينة أنطاكيا في يونيو ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، ثم اتجهت الحملة نحو شمالي بلاد الشام متحاشية المرور بالمدن الداخلية الكبرى، مثل حلب ودمشق، وأثناء تقدمها استمرت المدن الساحلية التابعة للفاطميين تسقط بأيدي الفرنجة الواحدة تلو الأخرى أو تسالمهم، ولم يقاومهم إلا القليل. وباختصار، فقد لجأ أهل بيروت للمسالمة، وصمد أهل صيدا أمام الحملة الفرنجية، في حين سقطت بأيدي الفرنجة الرملة وبيت لحم. ووصلت الحملة إلى مشارف بيت المقدس أوائل حزيران (يونيو) سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م وضربت الحصار عليها[٤٧].

استمر حصار الفرنجة (الصليبيين) لبيت المقدس حوالي أربعين يوماً قبل أن يستولوا عليها في ١٥ يوليو ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م. وتتفق المصادر الفرنجية على أن الفرنجة ارتكبوا فظائع كثيرة ضد سكان المدينة من المسلمين، والنصارى

واليهود، وتمثلت هذه الفظائع في نهب البيوت وتقتيل الناس. ورغم المبالغة في أوصاف الكتاب الفرنجة، إلا أننا نرجح بأن معظم سكان المدينة قتلوا وأبقى الفرنجة على حياة البعض الآخر حتى يقوموا ببعض الخدمات لاحقاً. ويورد المؤرخ المجهول صاحب كتاب الجستا (Gesta) صراحة: (ولما دخل حجاجنا المدينة جدوا في قتل المسلمين وطاردوهم حتى قبة المسجد العمري حيث تجمعوا هناك واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيها أبشع أنواع القتل وأفظعه طوال اليوم بأكمله، حتى فاض المكان كله بدمائهم...)[٤٨].

ويؤكد مؤرخ فرنجي آخر عاصر الحملة الصليبية الأولى، ألا وهو ريموند دي جيل (Reymond de Agiles)، الفظائع التي ارتكبت في حق سكان بيت المقدس عند سقوطها فيقول: (وبعد سقوط القدس وأبراجها بات بإمكان المرء رؤية أفاعيل مثيرة، فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة، في حين اخترقت السهام الموجهة إلى الأبراج آخرين، وفي الوقت نفسه عذب آخرون بشدة وأحرقوا حتى الموت في النار المتأججة وتكدست في الطرقات والبيوت الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام، وبالفعل كان الفرسان والرجالة يروحون ويجيئون ذهاباً وإياباً فوق الجثث)[٤٩].

ولا تختلف رواية فوشية الشارتري (Fulcher of Chartres)، وهو مؤرخ فرنجي رافق الحملة الفرنجية الأولى، عن رواية من ذكرنا من المؤرخين الفرنجة، إذ يذكر: (.. وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في الهيكل (المسجد الأقصى)، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى، ماذا أقول ؟ لم يبق منهم واحد ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً)[٥٠].

ولم يبد المؤرخون الفرنجة الذين أشرنا لرواياتهم أي نوع من الاشمئزاز تجاه الفظائع التي ارتكبها الصليبيون في حق سكان بيت المقدس عند سقوطها، بل حاولوا أن يجدوا لها مسوغاً لأن المسلمين في نظرهم " كفرة ووثنيين " (infidels and atheists) وأن " في قتلهم عدالة ربانية ". والواقع، فإن فوشية الشارتري نظر للحملة الفرنجية (الصليبية) الأولى على أساس أنها "حرب مقدسة " (Holy War) تشبه حروب بني إسرائيل في العهود القديمة،

واعتبر المسلمون " أعداء للمسيح يستحقون القتل لأنهم كفرة ووثنيون وبرابرة قساة ". ومن ناحية أخرى، بالغ فوشية في تمجيد قادة الفرنجة في الافتخار بشجاعتهم وانتصاراتهم وعزا دخولهم بيت المقدس " لرضى الرب عنهم ".

وباختصار، فإن جميع المصادر اللاتينية المعاصرة للحملة الفرنجية الأولى، أو المصادر المتأخرة التي نقلت عنها، تتفق في الإطار العام للأحداث المتصلة بسقوط بيت المقدس في يد الفرنجة (الصليبيين)، كما تتفق على الفظائع الوحشية التي ارتكبت في حق سكان المدينة من المسلمين، واليهود والنصارى الشرقيين. والراجع أن أعداد كبيرة من اليهود جُمعوا في الكنيس ثم أحرقوا، أما النصارى فكان عددهم قليلاً عند سقوط المدينة لأن أغلبهم كانوا قد غادروها إلى مدن أخرى مثل: بيت لحم واللد وغيرها. ورغم عدم الاتفاق على عدد من قتلوا عند سقوط بيت المقدس، إلا أن المصادر العربية تبالغ في ذكر عدد القتلى، فمثلاً ابن القلانسي يقول: (وقُتل خلق كثيراً وجُمع اليهود في الكنيس وأحرقوه عليهم)[٥١]. ويقدر ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) عدد القتلى بالمسجد الأقصى وحده بأكثر من سبعين ألف إذ يقول: (وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً)[٥٢]. أما المقريزي (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)، فقد قدر عدد من قتلوا في المسجد الأقصى والحرم الشريف بحوالي مائة ألف نسمة[٥٣].

والواقع فإن التعصب الديني للعصور الوسطى الأوربية يبدو قوياً في المصادر الفرنجية، كما أن المبالغة في وصف المجازر والقتل قد تعود للفكر النشوري (Apocalyptic thinking) الذي يقول بأن الأحداث الإنسانية الكبيرة لا تتم إلا بحدوث مذابح واسعة مما يعني قرب نهاية العالم كما يرد في الـ:(Apocalypse)، وهي الكتاب الأخير من العهد الجديد (New Testament).

بيت المقدس في فترة الاحتلال الفرنجي (الصليبي)
(٤٩٢-٥٨٣هـ/ ١٠٩٩ – ١١٨٧م)

استمر احتلال الفرنجة (الصليبيين) لبيت المقدس حوالي ثمان وثمانين سنة حتى استرد صلاح الدين الأيوبي المدينة للمسلمين بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. وخلال فترة احتلالهم للمدينة سعى الفرنجة لتغيير هويتها الإسلامية، وجعلها (مدينة فرنجية) تلبي حاجات سكانها الجدد من الفرنجة فأضافوا في عمرانها الكنائس، والأديرة، والأسواق، والمستشفيات وأحدثوا تغييرات جذرية في البُنى الاقتصادية والاجتماعية مما كان سبباً في تغير وظيفة بيت المقدس السياسية والإدارية التي عرفناها في الفترة الإسلامية الأولى الممتدة، من الفتح العمري وحتى نهايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

كان أول تغير هام في وظيفة بيت المقدس أن اتخذها الفرنجة مركزاً لملكة بيت المقدس الفرنجية التي نشأت عقب سقوط المدينة وأعلن قيامها بانتخاب غودفري البويوني (Godfry de Bouillon) أول ملك لها[٥٤]. وكان انتخاب غودفري بداية ظهور ملكية اقطاعية انتخابية، ثم أصبحت وراثية، مما يعني انتصاراً لطموحات فئة كبيرة من الأمراء الإقطاعيين اللاتين. وقد أرسى غودفري قواعد التنظيمات الإدارية في بيت المقدس على أسس مشابهة للنظام الإقطاعي الأوربي، فكان أول ما قام به توزيع الأراضي والمنازل التي أفرغت من المسلمين وغيرهم بين الفرنجة. وقد أقر غودفري مبدأ " حق الاستملاك " الذي كان الفرنجة قد اتفقوا عليه قبل احتلال المدينة كما يذكر فوشيه الشارتري: (وبعد هذه المذبحة العظيمة دخلوا (أي الفرنجة) بيوت المواطنين يمتلكون ما وجدوا بها، وقد رتبوا ذلك بحيث أن أول من يدخل بيتاً سواء كان غني أو فقيراً فلن يعارضه بذلك أي فرنجي، وله أن يسكن ويمتلك ذلك البيت وكل ما فيه كما لو بيته حقاً)[٥٥]. وقد أقر غودفري مبدأ " حق الاستملاك " فاصدر ما عرف بـ: " قانون السنة واليوم "، والذي نص على أن كل فرنجي يضع يده على منزل أو أرض شاغرة لمدة سنة ويوم واحد يكون له الحق في ملكيتها ملكاً مطلقاً، كما أن كل من يغيب عن عقاره سنة ويوماً يفقد حقه في ملكيتها[٥٦].

وكان واضحاً منذ البداية قلة السكان في بيت المقدس الفرنجية ذلك أن غالبية من شاركوا في الحملة الصليبية الأولى عادوا إلى الغرب الأوربي ولم يبق من الفرنجة ما يكفي لتسيير أمور الحياة في المدينة. وقد وصف وليم الصوري، المؤرخ الرسمي لمملكة بيت المقدس الفرنجية، قلة السكان في مدينة بيت المقدس في البداية إذ قال: (كانت المدينة المقدسة خالية تقريباً من السكان إذ لم يكن فيها من الناس ما يكفي للأعمال والخدمات التي تحتاجها الدولة الجديدة ... وفي الحقيقة فإن سكان المدينة كانوا من القلة بحيث لم يكونوا كافين لحماية أبواب المدينة وللدفاع عن أبراجها وأسوارها في حالة الهجوم عليها)[٥٧].

وقد سعى ملوك مملكة بيت المقدس الفرنجية لسد النقص في سكان المدينة عن طريق تشجيع النصارى المحليين في فلسطين للهجرة والاستيطان في المدينة مما أدى إلى زيادة ملحوظة في عدد السكان حتى وصلوا إلى حوالي عشرة آلاف شخص استقروا فيها بشكل دائم. وقد استقر في المدينة عدد كبير من النصارى المحليين الذين أصبح لهم حي خاص يسمى باسمهم (حي النصارى السوريين)، كما جاءت أجناس أخرى للاستقرار فيها مثل: الأرمن، والألمان والروس وغيرهم. وظل الفرنجة من اللاتين طوال الفترة الفرنجية يسكنون في حي خاص بهم عرف باسم (حي البطريرك)، الذي أصبح من أكبر أحياء بيت المقدس.

وقد أشار بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا القدس في فترة الاحتلال الفرنجي إلى التنوع السكاني في المدينة، ومن هؤلاء الرحالة الألماني يوحنا الورزبرجي (John of Wurzburg)، الذي زار المدينة في بداية العقد السابع من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والذي قال: (كان في القدس اليونان والبلغار واللاتنين والمجريون والاسكتلنديون والنافاريون والبريطانيون والإنجليز والفرنج والكرج والأرمن والسوريون والهنود والمصريون والأقباط وآخرون)[٥٨].

ورغم هذا التنوع السكاني، ظل اللاتين يكونون غالبية سكان مدينة بيت المقدس طوال فترة الاحتلال الفرنجي. ولم يسمح للمسلمين واليهود أن يسكنوا بيت المقدس في بداية الفترة الفرنجية، لكن كان يسمح لهم بزيارة المدينة بموجب تصريح خاص.

ولعل أهم جانب طاله التغيير في بيت المقدس زمن الاحتلال الفرنجي تمثل في التغيرات العمرانية التي تمثلت في إنشاء الكنائس، والأديرة، والأبراج، والأسوار، والمستشفيات، والأسواق، والفنادق، والأحياء السكانية. فقد قام ملوك الفرنجة بتقوية أسوار بيت المقدس عقب سقوطها كما شيدوا بعض الأبراج لزيادة تحصينات المدينة. ومن المنشآت الرئيسة التي أقامها الفرنجة القصر الملكي الذي أقيم في حوالي سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م قرب برج داؤد وأصبح مقراً لملوك مملكة بيت المقدس الفرنجية. وتعتبر فترة الاحتلال الفرنجي فترة ازدهار كبير في بناء الكنائس والأديرة في بيت المقدس. فقد بنى الفرنجة كنيسة يعقوب الأصغر إلى الشرق من قبة الصخرة، كما بنيت كنائس للألمان إلى اليسار من الحرم[٥٩]. كذلك قام الفرنجة بتغيير استخدامات بعض المساجد والمباني الإسلامية، ومن الأمثلة على ذلك أنهم قاموا بتحويل قبة الصخرة إلى كنيسة أسموها " كنيسة السيد " (Templum Domini)، ووضع فوقها صليب كبير، وزينت بالصور والتماثيل[٦٠]. كذلك قام الفرنجة بتغيير هوية المسجد الأقصى، والذي أسموه معبد سليمان (Templum Solominis)، إذ أنقص حجمه إلى الحجم الموجود الآن (وجعل قسم منه كنيسة، في حين أن القسم الأكبر منه جُعل مقراً ومسكناً لهيئة فرسان الداوية (Templars) والذين يعرفون أيضاً باسم " فرسان الهيكل ". ويذكر الأدريسي أن الفرنجة جعلوا السراديب التي في أسفل المسجد الأقصى اصطبلاً لخيولهم ودوابهم[٦١].

وقام الفرنجة أيضاً بتغيير هوية بعض المدارس الإسلامية، ومن ذلك انهم حولوا المدرسة الشافعية في بيت المقدس إلى كنيسة سموها كنيسة صند حنة[٦٢] (St. Anne). وقد أولى الفرنجة الكنائس التي كانت موجودة في بيت المقدس عناية فائقة فقاموا بتوسيع كنيسة القيامة[٦٣]. كما أكثر الملوك الفرنجة من تقديم الهبات (donations) لكنيسة القبر المقدس (Holy Sepulchre)، وكنيسة القديس لازاروس (St. Lazarus)، وكنيسة القديسة مريم (St. Mary /Sanata Mari) وغيرها من الكنائس الرئيسة.

وكذلك حظيت الأديرة في بيت المقدس برعاية الفرنجة إذ قاموا بزخرفة دير مار سابا (Mar Sabas)، الذي كان أكبر أديرة المدينة، وبالغوا في تقديم الهبات للجماعات الدينية التي كانت تقيم فيه. كذلك وضحت العناية بدير جبل

صهيون. وأعطى ملوك بيت المقدس الجاليات الأوربية التي أقامت في بيت المقدس، أو كانت تحج إليها سنوياً، الحق في إقامة كنائسهم وأديرتهم الخاصة بهم. فقد ذكر الرحالة الأوربيين الذين زاروا بيت المقدس في فترة الاحتلال الفرنجي عدداً كبيراً من هذه الكنائس والأديرة مثل: كنيسة الألمان، ودير الروس بجوار كنيسة القديسة مريم(٦٣).

وازدهرت أسواق بيت المقدس في فترة الاحتلال الفرنجي نتيجة قدوم أعداد هائلة من الحجاج للمدينة سنوياً. وفي الواقع وجد نوعان من الأسواق هما: أسواق الجملة (Wholesale)، وتقع قرب بوابات المدينة، وأسواق المفرق (Retail) وأقيمت في وسط المدينة. وكانت أهم أسواق الجملة: سوق الحبوب، وسوق الحلال، وسوق تجارة الطيور. أما تجارة المفرق، فكانت مركزة في ثلاثة أسواق سميت باسم: السوق الثلاثي(٦٤). وكانت حوانيت تجارة المفرق صغيرة الحجم، وأقيمت أمامها شرفات يتم فيها نشر البضائع. وكانت أغلب حوانيت المفرق تُطل على الشوارع الرئيسة، مثل شارع القديس اسطفان حيث الكثافة السكانية العالية، إضافة لوجود كنيسة القيامة، والتي يزورها آلاف الحجاج سنوياً، في المنطقة المجاورة(٦٥).

ومن التغيرات التي حدثت في مدينة بيت المقدس زمن الاحتلال الفرنجي، إنشاء عدد من المستشفيات، وأهمها: مستشفى القديس يوحنا (Hospital of St. John)، ومستشفى لعلاج المصابين بمرض البرص (Hospital for the treatment of Lepers). والواقع، فإن مستشفى القديس يوحنا كان قد تم إنشاؤه منذ نهايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حين منح الخليفة الفاطمي المستنصر بالله تجار مدينة أمالفي (Amalfi) الإيطالية، حق إقامته على قطعة أرض كبيرة تقع إلى الجنوب من كنيسة القيامة. وفي البداية تم بناء دير للرهبان، عرف باسم " دير القديسة مريم اللاتينية " (St. Mary of the Latins)، ثم بُني في فترة لاحقة نُزل (Hospice)، وكنيسة عرفت باسم كنيسة القديس يوحنا. وتطور النُزل ليصبح مستشفى كبير منذ بداية الفترة الفرنجية وصار يتولى الخدمة فيه والإشراف عليه عدد من الممرضين (Hospitalers)، وهم الذين أصبحوا جماعة من الرهبان العسكريين لاحقاً.

وقد وصف بعض الرحالة الأوربيين نشاطات المستشفيات في مدينة بيت المقدس. فقد أشار الرحالة الألماني يوحنا الورزبرجي إلى مستشفى القديس يوحنا

حين قال: (ويقع المستشفى بالقرب من كنيسة القديس يوحنا ويحتوي على غرف عديدة تضم عدداً كبيراً من المرضى سواء من الرجال أو النساء)[٦٦]. كذلك وصف الرحالة الألماني ثيودريش (Theoderich)، الذي زار بيت المقدس ما بين سنة ٥٦٨-٥٧٠هـ/١١٧٢-١١٧٤م، المستشفى بقوله: (كم هي جميلة مباني المستشفى، وهي مجهزة بالحجرات والأسرة والمستلزمات الأخرى لعلاج المرضى ... وعدد الأسرة يقدر بأكثر من ألف سرير)[٦٧]. ومن الرحالة الذين اهتموا بوصف المستشفيات في بيت المقدس زمن الاحتلال الفرنجي الرحالة اليهودي الإسباني بنيامين التطيلي (Benjamin of Tudelo)، الذي زار المدينة في حوالي سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، إذ يذكر أن بالقدس عدد من المستشفيات أكبرها مستشفى القديس يوحنا ومستشفى علاج المصابين بالبرص[٦٨].

ولعل من أكبر التغيرات التي حدثت في الحياة العامة في مدينة بيت المقدس زمن الاحتلال الفرنجي كثرة الأعياد والاحتفالات الدينية. فقد ازدهر الحج إلى المدينة المقدسة ازدهاراً واضحاً، كما تعددت الاحتفالات والأعياد بحضور الحجاج أو في أوقات أخرى غير مواسم الحج. وظل الاحتفال بعيد الفصح أهم الاحتفالات الدينية على الإطلاق إلا أنه اختلف في بعض مظاهره عمَّا كان سائداً قبل الفترة الفرنجية، إذ كان في الفترة قبل السيطرة الفرنجية احتفالاً بسيطاً، لكن الفرنجة أضافوا إليه مظاهر جديدة تمثلت في الطواف على بعض الأماكن المقدسة، مثل وادي جهنم، قبل الخروج بباب الرحمة، الذي كان يفتح خصيصاً كل سنة لهذه المناسبة إلى ساحة قبة الصخرة حيث ينتهي الاحتفال[٦٩].

واستحدث الفرنجة احتفالات جديدة في بيت المقدس أهمها: الاحتفال بيوم الخامس عشر من يوليو (تموز)، وهو اليوم الذي سقطت فيه المدينة في أيدي الفرنجة، والاحتفال بالذكرى السنوية لانتخاب غودفري البويوني كأول ملك لمملكة بيت المقدس الفرنجية، ويتم هذا الاحتفال في كنيسة القيامة ويقوم فيه الملك المحتفى به بتوزيع الصدقات والهبات على الفقراء[٧٠]. ويعكس هذين الاحتفالين جانباً هاماً من جوانب الحياة العامة في المدينة إذ حرص الملوك الفرنجة وكبار رجال الدين ورجال الدولة مشاركة السكان النصارى تلك الاحتفالات. وكان فترات الاحتفالات عموماً فترات انتعاش كبير للتجارة نتيجة قدوم أعداد هائلة من الحجاج والزوار للمدينة كما ذكرنا سابقاً.

بيت المقدس في زمن الأيوبيين
(٥٨٣-٦٥٠هـ/ ١١٨٧-١٢٥٢م)

استمر الاحتلال الفرنجي لبيت المقدس قرابة ثمان وثمانين سنة ظهرت خلالها بعض المحاولات لتوحيد جهود المسلمين لاسترداد المدينة. وابتدأت هذه الجهود في عهد الأتابك عماد الدين زنكي (ت ٥٤١هـ/ ١١٤٦م) الذي بدأ حركة الرد الإسلامي المعاكس للفرنجة، واستولى على إمارة الرها الفرنجية، ثم أكمل ابنه نور الدين محمود بن زنكي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) جهوده فيما بعد. فقد استطاع نور الدين محمود أن يوحد معظم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام تحت سلطته متخذاً من الموصل مركزاً لدولة إسلامية قوية مؤمنة بالجهاد للقضاء على الخطر الفرنجي في بلاد الشام[٧١].

وكان تحرير بيت المقدس من الاحتلال الفرنجي حلماً ظل يراود نور الدين محمود طوال حياته. وبدأ نور الدين يرسل الغارات على حدود مملكة بيت المقدس الفرنجية وسيلة لزعزعة الأمن فيها حتى يتم له توحيد مصر مع أملاكه في بلاد الشام، وبذلك يضع الفرنجة بين نارين. وفي إطار سعيه للسيطرة على مصر الفاطمية، أرسل نور الدين محمود ثلاث حملات عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين الأيوبي. وقد خرج صلاح الدين في شبابه مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر وهناك بدأت تظهر عبقريته العسكرية والسياسية. فقد استطاع صلاح الدين مساعدة عمه أسد الدين في التصدي لجهود الملك الفرنجي عموري الأول للسيطرة على مصر في وقت سادت فيه مظاهر الفوضى والانحلال في الدولة الفاطمية في خلافة المعتضد. وانتهى التسابق بين الفرنجة وجنود نور الدين بتولي أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة العاضد. ولما توفى شيركوه سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م، خلفه صلاح الدين في الوزارة.

كانت تولية صلاح الدين الوزارة للعاضد، بداية النهاية للدولة الفاطمية إذ تمكن في فترة بسيطة أن يضعف النفوذ الشيعي الإسماعيلي في مصر ويقوي

المذهب السني في المقابل عن طريق تولية أنصاره المناصب الرئيسة في الدولة الفاطمية. وفي نفس الوقت، شرع صلاح الدين في اتخاذ موقف استقلالي عن سيده نور الدين محمود. ولما جاءت سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، كان صلاح الدين في موقف قوي مكنه من قطع الخطبة في مصر عن الخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستنصر بأمر الله. وقد تمّ هذا التحول في هدوء ودون إراقة دماء كما تذكر المصادر العربية. وكان إسقاط الخلافة الفاطمية إيذاناً بعودة مصر " لحظيرة السنة " كما يقول ابن الأثير، وبذلك أعيدت الوحدة المذهبية السنية للعالم الإسلامي في الشرق الأدنى وأكملت جهود السلاجقة في نصرة المذهب السني، كما تمت الوحدة السياسية بين مصر وبلاد الشام وبذلك بدأت مرحلة جديدة من مراحل توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة الفرنجة (الصليبيين) تحت لواء الأيوبيين، خاصة، وأنه بعد وفاة نور الدين محمود في سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م أصبحت الساحة خالية أمام صلاح الدين ليتبوأ زعامة المسلمين السنية في مصر وبلاد الشام والجزيرة الفراتية.

واستطاع صلاح الدين أن يستغل فترة الفوضى السياسية في بلاد الشام التي أعقبت وفاة نور الدين محمود، فاستولى على دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، ثم على حمص وحلب وحماة[٧٢]. ولم يأت شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م، حتى كان صلاح الدين قد بسط سلطته على كل بلاد الشام، وبعدها بدأ يفكر في تحقيق الحلم الذي راوده سنين عديدة، ألا وهو استرداد بيت المقدس من الفرنجة (الصليبيين). وكانت الأحوال السياسية في مملكة بيت المقدس مساعدة لتحقيق هدف صلاح الدين، إذ تفاقمت مشكلة وراثة العرش أثناء مرض الملك بلدوين الرابع وبدأ الصراع بين الأمراء والنبلاء الإقطاعيين الفرنجة. ورغم أن الأمر انتهى باختيار جاي لوزينان ليتولى العرش بعد وفاة بلدوين الرابع، إلا أن ذلك لم ينهي الصراع حول السلطة.

ولم يشأ صلاح الدين أن يكون البادئ بالحرب ضد المملكة الفرنجية نسبة لوجود هدنة لمدة سنتين كانت وقعت بينه وبين بلدوين الرابع سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م. إلا أن رينولد شاتيون (ارناط) أمير الكرك، نقض الهدنة حين استمر

في مهاجمة قوافل التجارة الإسلامية التي كانت تمر عبر الكرك، ومضى أكثر من ذلك حين قام بمحاولة مهاجمة الأراضي المقدسة في الحجاز في سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م[٧٣].

وحدث في بلاد الشام آنذاك ما جعل صلاح الدين يصل إليها من مصر، فقد توفى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، صاحب حلب، وخلفه ابن عمه عز الدين مسعود، فخشي صلاح الدين من استيلاء الفرنجة على حلب. واستغل رينولد شاتيون خروج صلاح الدين من مصر، فقام بإقناع الفرنجة بمهاجمة جيش صلاح الدين الذي وصل سالماً إلى دمشق سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وبدأ صلاح الدين يعمل لإضعاف قوة مملكة بيت المقدس الفرنجية عن طريق مهاجمة حصونها وقلاعها الرئيسة. وعند وفاة الملك بلدوين الخامس سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م، ازداد الصراع بين الأمراء والنبلاء والإقطاعيين في مملكة بيت المقدس الفرنجية، وتحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، صاحب طرابلس، مما أتاح له فرصة التدخل في السياسة الداخلية للفرنجة. واستطاع صلاح الدين أن يكسب ولاء بوهمند الثالث، صاحب إنطاكية أيضاً، وبعدها بدأ يفكر جدياً في إعلان الحرب على مملكة بيت المقدس الفرنجية بسبب استمرار رينولد شاتيون في مهاجمة القوافل التجارية الإسلامية المارة عبر الكرك في طريقها من مصر إلى بلاد الشام(٧٤). واستطاع صلاح الدين أن يجر الفرنجة لمعركة حاسمة في حطين في شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/ حزيران ١١٨٧م، حيث سجل عليهم انتصاراً حاسماً. وكان الانتصار في حطين بداية معركة تحرير فلسطين من الفرنجة لأنها فتحت الطريق لاسترداد بيت المقدس.

وقد وصفت المصادر العربية أهمية النصر الباهر في حطين والنتائج المترتبة عليه، ويقول عنها ابن واصل: (كانت معركة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية، وبها فتح بيت المقدس)[٧٥]. وبالفعل، فبعد حطين غدت بلاد الشام تحت رحمة صلاح الدين الذي شرع بفتح المدن والقلاع الفرنجية واحدة تلو الأخرى، فتحاً سريعاً متواصلاً. وبعد أن فرغ من فتح بعض المدن الساحلية، اتجه صلاح الدين لفتح بيت المقدس، التي كانت قد عزلت كلياً عن بقايا الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، ووصل أسوارها في رجب سنة ٥٨٣هـ/ أيلول ١١٨٧م.

ومنذ بداية حصار بيت المقدس، كان صلاح الدين مصمماً على الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح بعد أن وضح له رفض سكانها التسليم بالشروط التي كانت قد استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الفرنجية بعد حطين. والواقع، فإن بيت المقدس استقبلت أعداداً هائلة من الفرنجة الذين فروا إليها من المدن والمعاقل الفرنجية القريبة، ومن بعض مناطق فلسطين الساحلية والجنوبية، طلباً للحماية خلف أسوارها الحصينة. ولم يدم حصار المدينة سوى أيام قليلة حتى استطاع المسلمون ثقب السور من الجهة الشمالية في عدة مواضع مما ترتب عليه سقوط جزء من السور، وعندها طلب الفرنجة الأمان، وأرسلوا وفداً إلى صلاح الدين. وكان الوفد الفرنجي برئاسة هرقل، بطريرك المدينة، وباليان الابليني، صاحب بانياس. وعرض الوفد تسليم المدينة بشرط احترام من فيها من الفرنجة، والسماح لهم بمغادرتها بسلام، وكانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين عرضها على باليان الذي رفض قبولها. ويذكر ابن الأثير بأن صلاح الدين كان واثقاً من فتح المدينة عنوة ويدلل على ذلك بقوله للسكان: (لا أفعل بكم (أي بالفرنجة) إلا كما فعلتم بأهله (أي بأهل بيت المقدس) حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها)[٧٦].

وأمام إصرار صلاح الدين على أخذ بيت المقدس عنوة، لجأ باليان إلى التهديد بقتل من كانوا عنده من الأسرى المسلمين (والذين قيل أن عددهم كان حوالي خمسة آلاف)، إضافة لقتل النساء والأطفال الفرنجة في المدينة، كما هدد بهدم وتخريب الأماكن الإسلامية المقدسة[٧٧]. ويعلق الدكتور مصطفى الحياري، أحد أبرز المتخصصين القلائل في تاريخ بيت المقدس، على هذا الموقف بقوله: (ولا نستطيع أن نقدر في ضوء المعرفة المتوافرة، مدى صدق هذا التهديد، لكن الشروط التي قدمت ألانت موقف أمراء السلطان)[٧٨]. ويعلل الحياري لين موقف أمراء وقواد صلاح الدين بسبب طول المدة التي ظلوا يقاتلون فيها مع السلطان منذ خروجه من مصر سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، إضافة إلى أن القبول بشروط باليان يحقق الحفاظ على المدينة سالمة، وهو الهدف الأساسي من استعادتها للمسلمين.

ووافق صلاح الدين، بعد مشاورة مجلس حربه وكبار قواده، على خروج الفرنجة من بيت المقدس بما يستطيعون حمله من الأموال والممتلكات وأن يتركوا وراءهم الأسلحة والخيول. كذلك أُتفق على أن يدفع كل من يغادر المدينة من الفرنجة فدية قدرها عشرة دنانير عن الرجل، وخمسة دنانير عن المرأة، وديناريين عن الأطفال من الأولاد والبنات، واشترط صلاح الدين أن يدفع الفداء المقرر في مدى أربعين يوماً، ومن يفشل في دفع الفداء يصبح مملوكا[٧٩].

ويذكر ابن شداد بأن فداء الرجل يومذاك كان عشرة دنانير، وخمسة عن المرأة وديناراً واحداً عن الطفل[٨٠]. وبالفعل خرج أغلب الفرنجة عن بيت المقدس، وقام صلاح الدين بتزويدهم بعساكر لحراستهم حتى يصلوا مأمنهم. وتساهل صلاح الدين مع من لم يقدروا على دفع الفدية إذ يذكر العماد الأصفهاني، وهو من شهود العيان ومن المقربين من صلاح الدين، أن نحو عشرين ألف من الفرنجة الفقراء لم يستطيعوا تدبير الفداء المقرر عليهم، فوافق صلاح الدين على أن يدفع باليان عنهم مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثين ألف دينار[٨١]. وقبل صلاح الدين طلب باليان في إطلاق سراح حوالي خمسمائة من الأسرى الفرنج الفقراء، كما قبل شفاعة بطريرك بيت المقدس اللاتيني في عدد آخر من الأسرى. ويذكر ابن الأثير بأن عدد الأسرى الفرنج الذين استرقوا بسبب عجزهم عن دفع الفدية المقررة عليهم، بلغ حوالي ستة عشر ألف أسير[٨٢]، ولا شك أن في ذلك مبالغة واضحة. ولم يذكر العماد الأصفهاني، وهو من شهود العيان المقربين من صلاح الدين، عدد الأسرى الذين تم استرقاقهم. أما النصارى المحليين الذين كانوا في بيت المقدس حينذاك، فقد قرر أغلبهم البقاء في المدينة، وطلبوا من صلاح الدين السماح لهم بذلك والعيش كأهل ذمة، فوافق السلطان بشروط أن يدفعوا الفدية المقررة وأن يلتزموا بدفع الجزية لاحقاً مقابل حماية الجيش الأيوبي لهم. كذلك سمح صلاح لدين لليهود بالعيش في المدينة. بعد ذلك دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ/ الموافق الثاني من أكتوبر سنة ١١٨٧م، وهو اليوم الذي صادف ذكرى الإسراء والمعراج. وشتان ما بين تحرير صلاح الدين لبيت المقدس وسقوطها في أيدي الفرنجة سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م.

ويذكر بعض الدارسين بأن عدداً من المسلمين ألحوا على صلاح الدين بتدمير كنيسة القيامة عقب استرداد بيت المقدس دون أن يذكروا المصدر الذي اعتمدوا عليه. والثابت في المصادر العربية، أن صلاح الدين اتخذ بعض الإجراءات السريعة لإعادة الهوية الإسلامية للمدينة التي كانت قد طمست أيام الاحتلال الفرنجي، فقام على محو الآثار النصرانية، كأن أمر بإنزال الصليب الذهبي الكبير الذي أقامه الفرنجة في أعلى قبة الصخرة وإزالة الصور والنقوش الدينية النصرانية. كما أمر بتنظيف قبة الصخرة والمسجد الأقصى وإعادتهما إلى سابق مظهريهما الإسلامي إذ أمر بإزالة المنشآت التي كان فرسان الداوية قد أقاموها في منطقة الحرم الشريف. ويذكر العماد الأصفهاني بأن صلاح الدين أمر بغسل الصخرة بماء الورد، كما أورد بأنه صلى في المسجد الأقصى في يوم الجمعة الرابع من شعبان/ الموافق التاسع من أكتوبر ١١٨٧م، شكراً لله على استرداد المدينة(٨٣). وأمر صلاح الدين بتغيير هوية بعض المنشآت النصرانية، ومن الأمثلة على ذلك أنه أمر بأن يستبدل مكان كنيسة صند حنة (St. Anne) ليصبح مدرسة للشافعية. ومن ما قام به صلاح الدين في بيت المقدس كشف الجدار الساتر لمحراب المسجد الأقصى وترخيمه، ووضع محراب نور الدين محمود بن زنكي، الذي أحضر من دمشق، مكان المحراب القديم(٨٤).

ويذكر ابن واصل بأن صلاح الدين أمر بإزالة مقابر الفرنجة المجاورة للصخرة المشرفة والجدار الشرقي للحرم الشريف(٨٥) وبعدما انتهى صلاح الدين من تطهير الأماكن المقدسة، قام بتعيين الخطباء، والأئمة والقراء والمؤذنين للحرم الشريف، كما عين والياً للمدينة وأقام بها حامية عسكرية لحمايتها(٨٦). وقام صلاح الدين أيضاً بوقف قصر بطريرك الفرنجة رباطاً للصوفية، كما وقف كنيسة فرسان القديس يوحنا لتصبح مارستاناً لعلاج المرضى(٨٧).

والواقع، فإن صلاح الدين كان يرى إعادة الهوية الإسلامية لبيت المقدس أمراً أكثر إلحاحاً من تحصين المدينة التي لم يكن يهددها خطر مباشر من الفرنجة بعد هزيمتهم الحاسمة في حطين. ولم يفكر صلاح الدين في إعادة بناء أسوار المدينة وزيادة تحصيناتها إلا في سنة ٥٨٧هـ/ ١٩٩١م، وذلك بعد أن استولى

بقايا الفرنجة على مدينة عكا وعلى أغلب الساحل الجنوبي لفلسطين حتى عسقلان. وتذكر المصادر العربية أن صلاح الدين جدد بناء الأسوار وأمر بحفر خندق عميق في الجهة الشمالية، ويذكر العماد الأصفهاني بأن بعض الأسرى الفرنجة استخدموا في حفر الخندق(٨٨).

وخلال الفترة من سنة ٥٨٧هـ/ ١٩٩١م وحتى وفاته سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، كرس صلاح الدين وقتاً كبيراً لبناء المدارس والخوانق وتشجيع الفقهاء والعلماء للهجرة والاستقرار في بيت المقدس. وكان بناء المدارس من أهم أهداف صلاح الدين لتكوين طبقة مثقفة تكون له سنداً في حكمه وتساعد في إزالة ما تبقى من رواسب المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي نشره الفاطميون في مصر وبلاد الشام. ومن المدارس التي اهتم بها صلاح الدين، المدرسة الشافعية، التي عرفت في زمنه بالمدرسة الصلاحية، وأوقف عليها الأوقاف السنية وعين لها أشهر الشيوخ مثل القاضي بهاء الدين بن شداد، صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة بـ: " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ". وأقام صلاح الدين عدداً كبيراً من الكتاتيب لتعليم أبناء الفقراء، وعين عليها المختصين، وأجرى عليها الجرايات الكبيرة(٨٩) وأوقف صلاح الدين أوقافاً كثيرة على الزوايا والخوانق وغيرها من مؤسسات الزهاد والمتصوفة. وأثمرت جهود صلاح الدين في إعادة الهوية الإسلامية لبيت المقدس إذ هاجر للمدينة واستقر بها عدد كبير من العلماء والفقهاء، خاصة فقهاء الشافعية، ذلك أن صلاح الدين كان شافعياً. كذلك بدأت ظاهرة استقرار عدد من العلماء المغاربة في بيت المقدس منذ حوالي سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م عندما طلب صلاح الدين معونتهم ضد الفرنجة، وقد بقي كثير منهم بالمدينة واستوطنوها. كذلك استقر في المدينة عدد كبير من الأكراد بحيث تكون لهم حي خاص عرف بـ " حي الأكراد "، وكان أغلبهم من القواد والجند الذين صحبوا صلاح الدين من مصر وشاركوه العمليات الحربية في بلاد الشام.

ولم تؤثر أحداث الحملة الفرنجية (الصليبية) الثالثة على استقرار الأوضاع في بيت المقدس. ورغم أن ريتشارد قلب الأسد الإنكليزي استطاع هزيمة جيش صلاح الدين في ارسوف في شعبان ٥٨٥هـ/ سبتمبر ١١٩١م، إلا أنه مال إلى

التفاوض بشأن بيت المقدس فتم توقيع صلح الرملة في تلك السنة الذي نص على حق النصارى وكافة الفرنجة في زيارة بيت المقدس. ويذكر أبو شامة بأن صلاح الدين سمح، بعد الصلح، بتعيين اثنين من رجال الدين اللاتين، وأثنين من الشمامسة اللاتين في كل من كنيسة القيامة، وبيت لحم، والناصرة ليقوموا بتأدية القداسات والإشراف على الكنائس الكاثوليكية، إلى جانب رجال الدين الأرثوذكس الذين كانوا في تلك الكنائس(٩٠).

وازدهرت الحياة الثقافية والعلمية في بيت المقدس منذ أيام صلاح الدين واستمرت على ذلك النشاط لحوالي ربع قرن من فترة خلفاء صلاح الدين رغم الصراعات بين أبناء البيت الأيوبي. والواقع، فإن صلاح الدين كان قد وزع أملاكه، قبل وفاته، بين أبنائه. وكانت دمشق من نصيب ابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي، وتبعت بيت المقدس إدارياً لدمشق. وكان من أهم أعمال الأفضل الذي حكم دمشق، وما يتبعها من المدن في فلسطين، لمدة عشر سنوات، أن اهتم بإسراع عملية إعادة الطابع الإسلامي لبيت المقدس، وكان من أهم إنجازاته بناء حي المغاربة بالقرب من المسجد الأقصى زيادة على إنشاء مدرسة للمالكية فيه(٩١). ورغم الصراع بين الأفضل وشقيقه العزيز عثمان، صاحب مصر، إلا أن الأوضاع ظلت مستقرة نسبياً في بيت المقدس، وتم إعادة توطين المزيد من المسلمين في المدينة مما أدى إلى زيادة نشاطاتها الثقافية والعلمية وعمران حاراتها.

إلا أن الأحوال في بيت المقدس بدأت تضطرب حين جاءت الحملة الفرنجية (الصليبية) الخامسة واستولت على مدينة دمياط في مصر سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، وعندها سرت الإشاعات بنية الفرنجة التقدم نحو فلسطين لاسترداد بيت المقدس من المسلمين فخاف الملك الأيوبي المعظم من سقوط المدينة في أيديهم فأمر بتخريب أسوارها. ويذكر المؤرخ سبط بن الجوزي، على لسان المعظم قوله حين قرر تخريب أسوار بيت المقدس: (إنه إذا تمكن الفرنجة من الاستيلاء على القدس فإنهم سيقتلون كل من فيها ويسيطرون بعدها على الشام وبلاد الإسلام جميعاً)(٩٢). وبالفعل، تم هدم أسوار بيت المقدس وأجزاء من المدينة، ولم ينج

سوى برج داؤود الذي كان يتمركز فيه الوالي والحامية العسكرية، ومسجد الصخرة، والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة. ويصف سبط بن الجوزي، وكان معاصراً للأحداث، تخريب بيت المقدس وردود فعل الناس فيقول: (ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشباب والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم وخرجوا هاربين تاركين أموالهم وأهاليهم ... ومات خلق كثير من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم تكن في الإسلام)[٩٣].

وفي الحقيقة كان تخريب بيت المقدس، سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، فاجعة حقيقية لسكانها وكارثة على العالم الإسلامي بأسره لطخت سمعة الأيوبيين. وكان ذلك الحدث بداية تدهور المدينة تدريجياً إذ هجرها معظم السكان لفقدانهم الإحساس بالأمن. والراجح أنه لم يبق في المدينة سوى الحاميات العسكرية، وبعض موظفي الدولة، وعدد قليل من المتصوفة والمجاورين في الأماكن المقدسة. وغادر بيت المقدس أغلب النصارى المحليين، وكذلك فعل اليهود[٩٤].

وتعرضت بيت المقدس لمزيد من التخريب في سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، حين سار الملك المعظم، صاحب دمشق، وخرب ما بقي من القلاع وصهاريج المياه لما بلغه نية الفرنجة قصدها[٩٥]. ومما زاد في الإحساس بعدم الأمن في المدينة، أن الحاميات العسكرية التي كانت فيها نقلت إلى أماكن أخرى، كما نقلت خزائن السلاح إلى دمشق.

وفي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، حدث تطور آخر كانت له نتائجه المدمرة على بيت المقدس. فحين شعر الملك الكامل محمد بن العادل بنية أخاه الملك المعظم عيسى الاستعانة بالخوارزمية ضده، أرسل يطلب المساندة من الإمبراطور فردريك الثاني في صقلية. وتذكر المصادر أن الملك الكامل أرسل سفارة برئاسة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى صقلية لمقابلة الإمبراطور سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، ورد عليه الإمبراطور بسفارة قابلت الملك الكامل، الذي أرسل للإمبراطور يطلب منه: (أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه بيت القدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل)[٩٦]، مقابل مساندته له ضد خصومه السياسيين وعلى رأسهم الملك المعظم عيسى.

وقد تلكأ الملك الكامل في تسليم بيت المقدس للإمبراطور الذي وصل إلى عكا بداية سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م لينضم إلى الحملة الفرنجية (الصليبية) السادسة. وانقضت عدة أشهر في المساومات والمفاوضات بين الكامل والإمبراطور قبل أن يتوصل الطرفان لاتفاق عقد في يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م تضمن البنود التالية:

أولاً: يحصل الإمبراطور على مدينة بيت المقدس إضافة إلى بيت لحم وشريط ضيق من الأرض يخترق اللد وينتهي عند يافا في البحر، فضلاً عن الناصرة، وغرب إقليم الجليل، وما تبقى من الأراضي الإسلامية قرب صيدا، وتبقى أسوار بيت المقدس خراباً.

ثانياً: يظل في أيدي المسلمين منطقة المسجد بما تحتويه من قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، ويحق للمسلمين التردد إلى هذه الأماكن وممارسة شعائرهم الدينية بحرية، كما يجوز للنصارى زيارة هذه الأماكن[٩٧].

ويورد المؤرخ ابن العميد (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) تفاصيل أكثر دقة عن اتفاقية يافا فيقول: (وتبقى القدس خراباً ولا يجدد سورها، ولا يكون للفرنج شيء من قراها خارج السور بل تكون كلها للمسلمين، ويتولى أمورها والٍ مسلم مقامه بالبيرة شمال القدس ويظل الحرم وما حوله من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين يتولاه قوام منهم، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة)[٩٨].

وأثارت اتفاقية يافا ردود فعل عنيفة في العالم الإسلامي في المشرق عامة، وفي بلاد الشام خاصة. ويورد ابن الأثير: (فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه)[٩٩]. ويورد المقريزي: (واشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك)[١٠٠]. ويعلق النويري على الاتفاقية فيقول بأن الناصر داود أعلن الحداد في دمشق، وأقيمت مجالس الوعظ التي رثيت فيها بيت المقدس[١٠١]. و يورد المقريزي بأن الكامل حين شعر بحرج موقفه حاول أن يبرر تنازله عن بيت المقدس بقوله: (إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وأدر خربة، وإن المسجد على حاله وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله)[١٠٢].

وقد دخل الإمبراطور بيت المقدس في شهر ربيع الآخر ٦٢٦هـ/ مارس ١٢٢٩م في عدد قليل من العساكر الفرنجة، وبعض الأمراء الصليبيين، وثلاثة أساقفة، ولم يكن بالمدينة وقتها سوى مندوبين عن الملك الكامل. ولم يبق الإمبراطور في المدينة سوى ثلاثة أيام غادر بعدها إلى عكا قبل أن يبحر عائداً إلى قبرص. وبذلك انتهت الحملة الصليبية السادسة التي تعتبر من أكثر الحملات غرابة في أحداثها، ولكن فردريك استطاع أن يحقق دون قتال ما عجزت عن تحقيقه كل الحملات الفرنجية (الصليبية) من استرداد لبيت المقدس. أما تصرف الكامل وتنازله عن المدينة، فقد قضى على ما تبقى من سمعة للأيوبيين في العالم الإسلامي في المشرق.

وفي الحقيقة فإن اتفاقية يافا كانت تعاني منذ البداية من ضعف واضح، كما يقول فان كليف (Van Cleve): (كان الضعف البيّن في المعاهدة أنها تفتقر إلى تزكية عامة بين الشعبين اللذين عقدت باسميهما، إذ لم تكن معاهدة بين دولتين وإنما بين رجلين كل منهما قادر على إبداء التسامح أزاء خصمه، دون أن يشاركهما اتباعهما في ذلك)[١٠٣].

وبموجب اتفاقية يافا استمر الفرنجة يسيطرون على بيت المقدس لمدة عشر سنوات (٦٢٦- ٦٣٦هـ/ ١٢٢٩-١٢٣٩م)، إلا أنها كانت سيطرة أسمية إذ أن الصراعات بين الإمبراطور فردريك الثاني والبابوية من جهة وبينه وبين هيئات الفرسان الرهبان من جهة أخرى، منعت الاستفادة من استثمار ذلك الوضع. وقد تشجع بعض أبناء البيت الأيوبي لاسترداد بيت المقدس، وبالفعل قام الملك الناصر داؤود صاحب الكرك، بمهاجمة المدينة في شهر جمادى الأول سنة ٦٢٧هـ/ يناير ١٢٣٩م، وضربها بالمجانيق وهدم القلعة وبرج داؤود اللذين كان الفرنجة قد أعادوا تعميرهما، واستولى على المدينة وطرد الفرنجة منها[١٠٤]. غير أن الناصر داؤود سرعان ما هدم السمعة الحسنة التي نالها جراء استرداد بيت المقدس حين قام بالتنازل عنها للملك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، الذي سلمها بدوره للفرنجة سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م[١٠٥]. ويذكر أبو الفداء الشعور العام بالاستياء على تصرف الصالح إسماعيل خاصة بين العلماء والفقهاء، من أمثال عز الدين بن عبد السلام، ممن شنعوا عليه وقطعوا الدعاء له من الخطبة[١٠٦].

ولم تستمر سيطرة الفرنجة على بيت المقدس هذه المرة سوى سنة واحدة إذ استعان الملك الصالح نجم الدين بالخوارزمية الذين كانت جموعهم قد سيطرت على شمالي بلاد الشام والجزيرة فقاموا باقتحام بيت المقدس وأعملوا السيف في سكانها من الفرنج في سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م. ويذكر ابن العميد بأن الخوارزمية قتلوا كل من كان بالمدينة تقريباً، وخربوا كنيسة القيامة، كما نبشوا قبور النصارى وأحرقوا عظام الموتى[١٠٧].

ولم تستقر أوضاع بيت المقدس بعد ذلك إلا لفترة قليلة إذ استولى عليها سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، سفير الملك الكامل للإمبراطور فردريك الثاني الذي ذكرناه من قبل. ولم تدم سيطرة الأمير فخر الدين على المدينة سوى سنوات قليلة حتى تملكها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م[١٠٧]. ولم تبق بيت المقدس بيد الناصر صلاح الدين يوسف إلا سنة واحدة اتفق بعدها على تسليمها للملك المعز لدين الله أيبك التركماني، زوج الملكة شجرة الدر المملوكية، وبذلك دخلت بيت المقدس في سلطنة المماليك[١٠٩].

وكان لهذه التطورات المتلاحقة منذ العقد الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أثرها في زعزعة الأمن في بيت المقدس مما انعكس سلباً على الحياة فيها. فقد هجر المدينة أغلب السكان، وذبلت الحياة الثقافية والعلمية في مدارسها وفي الأماكن الإسلامية المقدسة. ويكفي أن ندلل على الآثار السلبية على المدينة أن نذكر ما أورده ابن فضل الله العمري من أن بيت المقدس أصبحت، بعد سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، مجرد " قرية صغيرة "[١١٠].



هوامش الفصل الأول

١. سورة الإسراء، الآية ١.
٢. البلاذري، أنساب الأشراف، القاهرة، ١٩٥٦م، ج١، ص ٢١٣.
٣. ابن سعد، كتاب الطبقات، ليدن، ١٩٠٥م، ج١، ص ٣٩.
٤. سورة البقرة، الآية ١٤٤.
٥. فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م، ج٢٠، ص ١٤٦ وما بعدها.
٦. البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٣٨.
٧. البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٣٩.
٨. ابن سعد: الطبقات، ج١، ص ٣٨٣.
٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص ٥٥٣.
١٠. أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦٠-١٦١.
١١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٩.
١٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٦٧.
١٣. سعيد بن البطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تحقيق لويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٩م، ج٢، ص١٦.
١٤. أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، فضائل القدس، ص ١٢٣.
١٥. عن الرحالة أركولف ورحلته إلى بلاد الشام وفلسطين انظر:
١٦. محمود عمران، "كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عهد الراشدين"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، المجلد الثالث، عمان ١٩٨٧م، ص ٣١١-٣٣٠.
١٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الركن، ١٣٥٧هـ، ج١، ص ٣١١.
١٨. ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ص ٣١٢.
١٩. محمد بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء دي خويه، ليدن، ١٩٠٩، ص ١٦٨.
٢٠. Wilkinson, J, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, London, 1977, P. 142.
٢١. شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج٢، ص ٥٥.
٢٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٠.
٢٣. درويش النخيلي، فتح الفاطميين لبلاد الشام، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٣٨ وما بعدها.
٢٤. Runciman, S, A History of the Crusades, London 1978, Vol. 1, P. 63.
٢٥. يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، تحقيق لويس

شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨، ص ٨١.

٢٦. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، القاهرة، (د.ت)، ج٢، ص ١٧٦.

٢٧. يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ، ص ٢٤٣.

٢٨. ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشّاب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٧٥.

٢٩. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٢.

٣٠. المقدسي: المصدر السابق، ص ١٦٧.

٣١. المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٦٦.

٣٢. المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

٣٣. ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٥٦.

٣٤. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٧.

٣٥. المقدسي، المصدر السابق، ص ١٦٧.

٣٦. ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٢٠.

٣٧. أبو بكر الطرطوشي، كتاب الحوادث والبدع، القاهرة، (د.ت)، ص ١٢٢.

٣٨. أبو يعلى حمزة بن أسد بن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسّان، دمشق، ١٩٨٣م، ص ٩٩.

٣٩. شمس الدين يوسف سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص ١٩٠.

٤٠. مجير الدين عبدالرحمن الحنبلي العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمّان، ١٩٧٣م، ج١، ص ٢٩٧-٢٩٨.

٤١. مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

٤٢. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ص ٢٠١.

٤٣. عن التطورات في الفكر الأوربي تجاه بيت المقدس: انظر:

٤٤. Jestice, P. G.: Wayward monks and the religious revolution of the eleventh century, Leiden, 1997, P.P. 44-89.

٤٥. Runciman, S., The Pilgrimages to Palestine before 1095, in: A history of the Crusades, by setton (ed), Vol. 1, Pennsylavania, U.S.A, 1969, P. 120.

٤٦. ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص ٢١.

٤٧. عن القادة المشاركين في الحملة الصليبية الأولى، انظر:

٤٨. William of Tyre, A history of deeds done beyond the seas, trans. by Babcock and Kerry, Octagon Books, New York, 1970, Vol. 1, 178-179.

٤٩. عن سير الحملة العامة، انظر:

.٥٠ المؤرخ المجهول، يوميات أعمال صاحب الفرنجة (Gesta)، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٧-٢٤.

.٥١ William of Tyre, A history of deeds, Vol. 1, P.P. 179-182.

.٥٢ عن سير الحملة الفرنجية (الصليبية) النظامية، انظر:

.٥٣ فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٠م، ص ٧٠.

.٥٤ محمد الحافظ النقر، تاريخ بيت المقدس من الفتح العمري حتى نهاية العهد الأيوبي، دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٣م، ص ٦٩.

.٥٥ محمد الحافظ النقر، المرجع السابق، ص ٨٥.

.٥٦ محمد الحافظ النقر، المرجع نفسه، ص ٩٥.

.٥٧ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٧.

.٥٨ علي بن محمد الشيباني بن الأثير، الكامل في التاريخ، باعتناء الشيخ عبد الوهاب النجار، دار الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٥٧هـ، ج٩، ص ١٩.

.٥٩ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ٢٣.

.٦٠ William of Tyre, A history of deeds, Vol. I, P. 453.

.٦١ فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص ٦٩.

.٦٢ William of Tyre, A history of deeds, Vol. I, P. 475.

.٦٣ Ibid, Vol. I, P. 507.

.٦٤ John of Wurzburg, Description of the Holy Land, trans. By Aubrey Stewart, in (P.P.T.S), Vol, V, London, 1896, Reprint, New York, 1971,P. 69.

.٦٥ مصطفى الحياري، القدس زمن الفاطميين والفرنجة، منشورات المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمّان، ١٩٩٤م، ص ٥٤.

.٦٦ شهاب الدين عبدالرحمن أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص ١١٣.

.٦٧ الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق جابرايللي، وديل فيلا، نابولي، ١٩٦٥-١٩٧٧م، ص ٣٦.

.٦٨ الملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت) ج٣، ص ٨٣.

.٦٩ لي سترانج غي (Le Strange, G.)، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمايرة، وزارة الأوقاف الإسلامية، عمّان، ط١، ١٩٧٠م، ص ١٣٥.

.٧٠ انظر: محمد الحافظ النقر "كتابات بعض الرحالة الأوربيين عن مملكة بيت المقدس الفرنجية"، مجلة المنارة، منشورات جامعة آل البيت، المجلد ٤، العدد ١، ١٩٩٩م، ص ١٩٣-٢٢٨.

٧١. مصطفى الحياري، القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، ص ٢٦.
٧٢. John of Wurzburg, Description of the Holy Land, P. 44.
٧٣. Theoderich, Theoderich's description of the Holy Land, trans. by Aubrey Stewart, in (P.P.T.S.), Vol. IV, London, 1895, Reprint, New York, 1971, P. 22.
٧٤. بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي إلى سوريا وفلسطين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م، ص ٨٣ وما بعدها.
٧٥. وصف الرحالة الروسي دانيال الاحتفال بعيد الفصح وصفاً شيقاً، عن ذلك انظر:
٧٦. Abbot Daniel, The Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land, trans. by A. Wilson, in (P.P.T.S.), Vol. IV, London, 1895, Reprint, New York, 1971, P.P. 72-74.
٧٧. Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, trans. by Janet Shirley, Amsterdam, 1974, Vol. I, P. 129.
٧٨. عن محمود نور الدين محمود بن زنكي، انظر:
٧٩. ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، بيروت، ١٩٦٣م. وانظر أيضاً:
٨٠. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٢، ٣ وما بعدها.
٨١. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١-٣)، تحقيق جمال الدين الشيّال، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٠م، ج٢، ص ٣٨.
٨٢. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٦-١٩٧٣م، ج١، ص ١٨٥-١٨٧.
٨٣. عن تحالفات صلاح الدين مع الأمراء الفرنجة، انظر:
٨٤. أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص ٢٧٢ وما بعدها.
٨٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٨٨.
٨٦. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٣٥.
٨٧. محمد بن صفي الدين العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٢٤.
٨٨. مصطفى الحياري، القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، ص ٧٩٨.
٨٩. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٢٦.
٩٠. بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، تحقيق جمال الدين الشيّال، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٣٥.
٩١. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٢٨.
٩٢. ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ٣٦.

٩٣. عن إجراءات صلاح الدين عقب استرداد بيت المقدس، انظر:
٩٤. العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٣٧ وما بعدها.
٩٥. العماد الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٣٧.
٩٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٣٠.
٩٧. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٤٢.
٩٨. العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص ١٤٢.
٩٩. العماد الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٤٥.
١٠٠. محمود بن أحمد بن جبير، تذكرة الأخبار في اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير)، دار الشروق، بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٥.
١٠١. أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص ٣٣٠.
١٠٢. ابن الأثير، الكامل، ج ١٥، ص ١٢٦-١٢٧.
١٠٣. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٥٧١.
١٠٤. سبط بن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٦٠١.
١٠٥. Powell, J, Anatomy of a Crusadle (The Fifth Crusade), Philadelphia, 1986, P.P. 175-190.
١٠٦. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٢٢٣.
١٠٧. المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٥.
١٠٨. شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٩٢، ج٢٩، ص ١٥٠.
١٠٩. ابن العميد، أخبار الأيوبيين، القاهرة (د.ت)، ص ١٣٧.
١١٠. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٣٥.
١١١. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٣٥٤.
١١٢. النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص ١٥١.
١١٣. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٣٥٤.
١١٤. Van Cleve, The Emperor Fredrick II, Oxford, 1972, P. 220.
١١٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٤٦.
١١٦. ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٢.
١١٧. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ٢٧٢.
١١٨. ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٥٥-
١١٩. ابن العميد، المصدر السابق، ص ١٦١.
١٢٠. ابن العميد، المصدر نفسه، ص ١٦٤.
١٢١. شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م، ج١، ص ١٣٨.

الفصل الثاني

الحياة السياسية والإدارية في بيت المقدس في العصر المملوكي (٦٥٠-٩٢٣هـ/ ١٢٥٢- ١٥١٧م)

تمهيد:

قبل الحديث عن العصر المملوكي، ينبغي التعريف بالمماليك وأدوارهم في العالم الإسلامي حتى نجاحهم في إقامة دولة حملت اسمهم ودامت لأكثر من قرنين ونصف في مصر وأجزاء من بلاد الشام.

أصل المماليك وظهور دولتهم:

المماليك، جمع مملوك، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم. ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار، والي الأمويين على خراسان، اشترى: (ألف مملوك من الترك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل)[1]. وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي للرقيق الأتراك ذلك أن المسلمين وصلوا في فتوحاتهم إلى تلك الجهات منذ خلافة الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥- ٧١٥م).

وفي العصر العباسي، تزايد استخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة لاستخدامهم في الجيش، وكان الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من ديوان الجند . وقد استكثر المعتصم من الجند الأتراك لدرجة أن تضايق منهم أهل بغداد، فقام الخليفة ببناء مدينة لهم هي سامراء وانتقل إليها معهم[2].

وفي الحقيقة، فقد شهد العصر العباسي ازدهاراً في تجارة الرقيق الأتراك نتيجة عوامل عديدة ذكرتها المصادر العربية أهمها: خدماتهم، وخصائلهم التي

تميزوا بها كالشجاعة، وتمام القامة، وظرافة الشمائل، كما أن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) يذكر سبباً آخر لكثرة الإقبال عليهم إذ يقول بأن الترك عندما يكونون فقراء يصبحون أتباعاً لمن يدفع لهم مقابل القيام بالخدمة العسكرية: (التي هي تجارتهم ولذتهم ومدينتهم حتى صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات)[٣].

ويذكر الرحالة والجغرافي المسلم ابن حوقل، الذي عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بأن خوارزم وسمرقند كانتا من أكبر أسواق جلب الرقيق الترك للعالم الإسلامي في المشرق عامة، وللعباسيين خاصة[٤].

والواقع، فمنذ العصر العباسي الأول اتخذ مصطلح " مماليك " معنى اصطلاحياً خاصاً عند المسلمين إذ اقتصرت التسمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشترى من أسواق النخاسة ويستخدم كفرق عسكرية خاصة. ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك، ذلك أن الدويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة، مثل: الطولونيين والأخشيديين في مصر[٥]، والصفاريين والسامانيين في خراسان[٦] وما جاورها، والغزنويين والغوريين في الهند[٧]، اقبلوا على شراء الأتراك الأرقاء لتأكيد سلطتهم.

وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح السياسة في المشرق الإسلامي، ازداد نفوذ الأتراك عموماً ذلك أن السلاجقة كانوا في الأصل من العناصر التركية، كما أن قيام الدولة السلجوقية زاد من الاعتماد على المماليك الأتراك نسبة لتطبيق نظام الإقطاع العسكري، الذي يقطع الأرض لعدد من كبار القادة العسكريين مقابل التزامهم بتقديم خدمات معينة في حالة الحرب للسلاطين السلاجقة. وكان أغلب المماليك الذين يخدمون الدولة السلجوقية يجلبون من بلاد القبجاق (أو القفجاق أو القبشاك)، شمالي البحر الأسود والقوقاز، وهي مناطق عرفها القلقشندي (ت ٨٢هـ/ ١٤١٨م) بأنها بلاد واسعة اشتهر أهلها، من ذوي الأصول التركية، بالبداوة والفروسية[٨].

وزاد الاعتماد على المماليك الأتراك حين ضعفت الدولة السلجوقية، ذلك أن الأتابكة (وهم قادة المماليك الأتراك الذين وصل بعضهم إلى درجة أن سمي

الواحد منهم أتابكاً، أي مربي السلطان)، استقلوا بإقطاعياتهم وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم: " دويلات الأتابكة ". وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتابكة، وأسس دولة ضمت الموصل، وحلب، وديار ربيعة[٩] ومصر. وعند وفاة عماد الدين زنكي، خلفه ابنه نور الدين محمود بن زنكي، الذي يعتبر أشهر ملوك الأتابكة، إذ استطاع أن يوسع أملاكه على حساب الأتابكيات الأخرى المجاورة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية[١٠]. وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يكونون غالبية جيشه.

وقد خدم بعض أبناء البيت الأيوبي الزنكيين، إذ تولى نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين الأيوبي، إدارة قلعة بعلبك لعماد الدين زنكي، كما أن أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين، كان من كبار قواد نور الدين محمود، وهو الذي أرسله في ثلاث حملات عسكرية إلى مصر ليمنع وقوعها في يد الفرنجة (الصليبيين). وكما ذكرنا من قبل، فقد خرج صلاح الدين مع عمه شيركوه إلى مصر وكان ذلك بداية ظهور نجمه العسكري والسياسي إذ استطاع أن يصل إلى مرتبة وزير للعاضد، آخر الخلفاء الفاطميين في مصر. وكان ذلك بداية تفكير صلاح الدين الجدي في إنهاء الخلافة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية. وقد لعب المماليك الأتراك في جيش صلاح الدين دوراً كبيراً في هذا التغيير.

وبعد إعلان صلاح الدين قيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م على أنقاض الفاطميين في مصر وأجزاء من بلاد الشام، زاد اعتماده على المماليك الأتراك عسكرياً وإدارياً. فقد كون صلاح الدين، وهو في مصر، الفرقة الصلاحية، التي عرفت أيضاً بالفرقة الناصرية، التي كانت فرقة خاصة به، وتكونت من بعض مماليك شيركوه، الذي كان قد مات سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م. وتذكر المصادر أن صلاح الدين اهتم بشراء المماليك، إذ يذكر النويري: (وكان الملك الناصر صلاح الدين ممن اهتم بتحصيلهم)[١١]. واشترك المماليك الأتراك بفاعلية في حملات صلاح الدين العسكرية على المغرب سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م[١٢]، وعلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤[١٣]، كما كان لهم حضورهم الواضح في حروب صلاح الدين لتوحيد بلاد الشام وضمها لمصر، وفي حروبه ضد الفرنجة (الصليبيين).

وفيما يخص حروب صلاح الدين في بلاد الشام وضد الفرنجة، فتتفق جميع المصادر العربية تقريباً، مثل: العماد الأصفهاني الكاتب (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، وابن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وابن العديم (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، وأبو شامة (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، وأبو الفداء ت ٥٧٢هـ/ ١٢٧٤م)، والنويري (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، على دورهم البارز فيها، قواداً وعسكراً. ومن قواد صلاح الدين من المماليك الأتراك الذين أسهبت المصادر العربية في وصف أدوارهم خلال هذه الحروب: عز الدين جاولي، وعز الدين جرديك، وصارم الدين قايماز النجمي وغيرهم[١٤]. وإلى جانب أدوارهم العسكرية المميزة، قام بعض القادة المماليك الأتراك بتولي وظائف رئيسة في إدارة الدولة الأيوبية أيام صلاح الدين الأيوبي، إذ تولوا وظائف: نيابة الغيبة، ومنصب الأتابكية، ووظيفة إمرة السلاح، ووظيفة الدوادارية، ووظيفة إمرة جاندار، ووظيفة الخازندارية، ووظيفة الاستادارية، ووظائف الولاية على المدن والقلاع. ويدلل تولي قادة المماليك الأتراك لهذه الوظائف على الثقة العالية التي كانوا يتمتعون بها عند صلاح الدين[١٥].

وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، تفتت وحدة الدولة الأيوبية فقد وزع صلاح الدين أملاكه قبل وفاته بين أبنائه وأخوته، وحمل هذا التوزيع بذور النزاعات بين أبناء البيت الأيوبي. وإضافة لاستمرار النزاعات بين الأيوبيين، استمر الخطر الفرنجي (الصليبي) يهدد مصر وبلاد الشام ممثلاً في الحملتين الفرنجيتين الخامسة سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، والسادسة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. وقد لعب المماليك الأتراك دوراً بارزاً في التصدي لخطر الحملة الفرنجية الخامسة[١٦]. أما الحملة الفرنجية السادسة، فلم يقاتل المسلمون فيها قتالاً واضحاً ذلك أن الملك الكامل بن العادل سلم بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني ليضمن مساندته له ضد خصومه السياسيين.

وباستمرار المنازعات بين أبناء البيت الأيوبي بعد الحملة الفرنجية السادسة، استكثر الفرقاء من الأيوبيين من شراء المماليك الأتراك. وقد اشتهر بعض القادة العسكريين المماليك خلال هذه الفترة ومنهم: الأمير مبارز الدين سنقر، والأمير عز الدين أيبك الجمدار، والأمير عز الدين أيبك المعظمي،

والأمير عز الدين ايدمر المعظمي وكثير غيرهم[١٧]. إلا أن الفترة الحاسمة في تعاظم دور المماليك جاءت في فترة حكم الملك الصالح نجم الدين الذي استطاع عن طريق الإكثار من شراء المماليك أن يقوي من موقفه ضد خصومه ويصل إلى السلطة سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م. وقد حكم الملك الصالح نجم الدين عشر سنوات تعرضت خلالها الدولة الأيوبية لمزيد من التمزق والانحلال. فبالإضافة لاستمرار النزاعات والخصومات بين أبناء البيت الأيوبي، تعرض إقليم الجزيرة لهجمات متواصلة من الخوارزمية، وسلاجقة الروم. وظل الصالح نجم الدين يستكثر من شراء المماليك ليس من بلاد القبجاق فحسب، بل كانوا يجلبون أيضاً من بلاد القوقاز قرب بحر قزوين.

واعتنى الصالح نجم الدين بتربية مماليكه وتدريبهم وكسب ولاءهم فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة وسط النيل، وأسكنهم بها فسموا بـ: " المماليك البحرية "[١٨]. وأطلق على هؤلاء المماليك " جند الحلقة "، وكانوا يقيمون في حجرات مجاورة لقصر الصالح نجم الدين في قلعة الروضة. وتختلف المصادر العربية في تقدير عدد مماليك الصالح ما بين ٨٠٠-١٠٠٠ مملوك، ولكن يرجح بأن هذا العدد ربما كان في بداية فترة حكمه، وأنه استمر يزيد في شرائهم حتى (صار أكثر جيشه مماليكه)[١٩]. وظل الصالح نجم الدين يستكثر من المماليك، ليس عن طريق الشراء فحسب، بل كان يضم إليه مماليك من ينتصر عليه من خصومه، كما حدث حين تغلب على الأمير المملوكي ايدكين علاء الدين البندقدار، واليه على مدينة عجلون، فاعتقله وأخذ مماليكه، ومن ضمنهم الظاهر بيبرس[٢٠]، سلطان المماليك لاحقاً.

وقام مماليك الصالح نجم الدين بمؤازرته ضد تحالفات بعض أبناء البيت الأيوبي مع الفرنجة (الصليبيين) في عكا. وتذكر المصادر أن جيش الصالح نجم انتصر انتصاراً باهراً قرب غزة، سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، على تحالف ضم الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل، صاحب دمشق، والناصر صلاح الدين داؤود بن المعظم، صاحب الكرك، والمنصور إبراهيم شيركوه، صاحب حمص، إضافة لعدد كبير من فرسان الداوية (Templars) والاسبتارية

(Hospitallers) الفرنج في عكا[٢١]. وبعدها تمكن الصالح نجم الدين، بتأييد من مماليكه إضافة لبعض الخوارزمية الذين انضموا إليه، من استرداد بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م من أيدي الفرنج الذين كانوا قد تسلموها من الإمبراطور فردريك الثاني سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م بعد عودته لقبرص بعد نهاية الحملة الفرنجية (الصليبية) السادسة. وحين انقلب الخوارزمية على الصالح نجم الدين لعدم وفائه لهم بمنحهم الإقطاعيات الواسعة، لعب المماليك دوراً كبيراً في هزيمة الخوارزمية وتشتيتهم[٢٢].

وفي نهاية فترة حكم الصالح نجم الدين بدأت الحملة الفرنجية (الصليبية) السابعة، التي استطاعت ضرب الحصار على مدينة دمياط في مصر سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. ورغم مرض الصالح نجم الدين خلال أحداث الحصار إلا أن قواده من المماليك، وخاصة الأمير ركن الدين بيبرس، استطاعوا السيطرة على زمام الأمور وتنظيم الدفاع عن المنصورة بعد سقوط دمياط[٢٣]. وقد توفى نجم الدين خلال تلك الأحداث إلا أن زوجته شجرة الدر كتمت خبر وفاته، وأرسلت تستدعي ابنه الملك المعظم تورانشاه من حصن كيفا في ديار بكر. واستطاع المماليك الظفر على الحملة الفرنجية السابعة كما يبدو ذلك جلياً من أوصاف المصادر العربية للأحداث، إذ يذكر ابن أيبك: (ثم أن الله أغاث المسلمين بطائفة من المماليك الصالحية المعروفة بالبحرية، إذ ركب الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في عدة جيدة من الترك فكانوا سبباً لإخماد الشرك)[٢٤]. ويؤكد المقريزي ما أورده ابن أيبك، إذ يقول: (ثم أن الله أغاث المسلمين بطائفة من المماليك الصالحية المعروفة بالبحرية، إذ ركب الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في عدة جيدة من الترك، فكانوا سبباً لإخماد جمرة الشرك)[٢٥].

وقد أشار جوانفيل، الذي كان شاهد عيان لأحداث الحملة الفرنجية (الصليبية) السابعة، إلى شجاعة المماليك الأتراك، وبراعتهم في الرماية مما كان له أكبر الأثر في إنزال الهزيمة بالفرنجة[٢٦].

وبعد استتباب الأمر للملك المعظم توارنشاه بعد دحر الحملة الفرنجية السابعة، انقلب على المماليك الصالحية فأبعد قادتهم وقرب إليه مماليكه الذين

اصطحبهم معه من حصن كيفا. كما تنكر لزوجة والده، شجرة الدر، التي حفظت له ملكه في أحرج الظروف. ونتيجة لذلك حقد المماليك البحرية على تورانشاه وبدأوا يخططون لقتله. وقد تزعم المؤامرة ضد تورانشاه مجموعة من الأمراء المماليك منهم: فارس الدين إقطاي، وركن الدين بيبرس، وقلاوون الصالحي، وعز الدين أيبك التركماني وغيرهم. وبالفعل نجح المماليك في قتل تورانشاه في فارسكور في نهاية شهر محرم سنة ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م، وبمقتله انتهى حكم الأيوبيين في مصر(٢٧).

وبعد مقتل تورانشاه، غدا أمراء المماليك أصحاب الكلمة العليا في شؤون مصر، فاختاروا شجرة الدر، أرملة الصالح نجم الدين، لتكون سلطانة على مصر وبلاد الشام. وكانت شجرة الدر في الأصل جارية تركية، وقيل أرمينية، كان الملك الصالح نجم الدين قد اشتراها وحظيت عنده فأعتقها وتزوجها، ولذلك فهي من حيث الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك. إلا أن موقف شجرة الدر السياسي واجه بعض الصعاب المعقدة، فمن جهة، فهي قد كانت امرأة والمسلمون لم تحكمهم امرأة في تاريخهم الطويل، ومن جهة أخرى، استمرت فلول الأيوبيين تقف موقفاً عدائياً ضدها وثاروا على حكمها. وكما يذكر بيبرس الدواداري انقسمت الجبهة الإسلامية يومها، فغدت مصر في يد المماليك في حين سيطر على بلاد الشام بعض أبناء البيت الأيوبي(٢٨). ولم تستطع شجرة الدر الصمود أمام تلك المعضلات، فخلعت نفسها عن حكم مصر، ووافقت على الزواج من الأمير عزالدين أيبك، أتابك العسكر حينذاك، وتنازلت له عن السلطة. وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/ يوليو ١٢٥٠م.

الحياة السياسية في بيت المقدس في العصر المملوكي

لم تهدأ الأحوال في بلاد الشام بعد قيام الدولة المملوكية في مصر مما كان له أثره على الحياة السياسية في بيت المقدس. والواقع، فإن بلاد الشام ظلت ميداناً للصراعات بين المسلمين والفرنجة من جهة، وبين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر من جهة ثانية، فضلاً عمّا كان بين ملوك بني أيوب بعضهم البعض. وقد دخلت بيت المقدس دائرة الصراع بين الأيوبيين، ممثلين في الملك الناصر يوسف صاحب دمشق، وبين المماليك بزعامة الملك المعز أيبك أول سلاطينهم[٢٩]. وقد حاول كل طرف الاستعانة بالفرنجة (الصليبيين) ضد الطرف الآخر، ويؤكد لنا جوانفيل، المعاصر للأحداث، أن الملك الفرنسي لويس التقي عندما كان في عكا سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، استقبل مبعوثين من الملك الناصر يوسف جاءوا يطلبون مساندته ضد المماليك في مصر، كما استقبل لويس في نفس الشهر مبعوثين من المماليك لنفس الغرض[٣٠].

وفي الحقيقة، فإن السلطان عز الدين أيبك كان محتاجاً لكي يوطد نفوذه في مصر أن يخرج إلى بلاد الشام للقضاء على الملك الناصر يوسف. ولكي يضمن النجاح حاول أن يضم الملك لويس التاسع إلى جانبه، إلا أن تدخل الخليفة العباسي المستعصم أنقذ الموقف الإسلامي، إذ كان يحس بالخطر المغولي المحدق بالمشرق الإسلامي، فاستطاع رسوله نجم الدين البادرائي من عقد صلح بين الملك الناصر والسلطان أيبك في المحرم سنة ٦٥٢هـ/ إبريل ١٢٥٣م على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس، على أن تظل بلاد الشام للملك الناصر يوسف[٣١]. إلا أن بيت المقدس لم تخضع طويلاً للسلطنة المملوكية نتيجة لهذا الاتفاق إذ بعد ما يقرب من ثلاث سنين تم توقيع معاهدة بين السلطان أيبك والملك الناصر يوسف تنازل فيها أيبك عن فلسطين، بما فيها بيت المقدس، بناءً على توسط الخليفة العباسي[٣٢]، وبذلك ظلت المدينة في الفترة ما بين ٦٥٤ – ٦٥٨هـ/ ١٢٥٦-١٢٦٠م بأيدي الملك الناصر يوسف. وفي

سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، بدأ اجتياح المغول لبلاد الشام من شمالها إلى جنوبها بعد نجاحهم في إسقاط الخلافة العباسية السنية في بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

وظهر جلياً تقاعس بني أيوب في الدفاع عن بلاد الشام خلال الغزو المغولي، كما ظهرت اتصالاتهم بالمغول ضد المماليك. ومن ذلك أن الملك الناصر يوسف أرسل ابنه العزيز محمد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م إلى هولاكو يخطب وده ويسأله المساندة في أخذ مصر من المماليك[٣٣]. وفي الجانب الآخر كان المماليك أكثر ثباتاً في وجه المغول، واستطاعوا هزيمتهم في موقعة عين جالوت، قرب بيسان في فلسطين، سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م[٣٤]. وقد ترتب على انتصار المماليك الساحق على المغول في عين جالوت نتائج عديدة أهمهما: تأكيد دور المماليك كقوة حامية للعالم الإسلامي في المشرق، كما تأكد خضوع بلاد الشام لهم. واستطاع المماليك بانتصارهم فعلاً تجنيب بيت المقدس الكثير مما لحق بغيرها من المدن الشامية من دمار وتدمير على يد المغول، كما حدث في حلب ودمشق وغيرهما[٣٥].

وقد حقق انتصار المماليك في عين جالوت لدولة المماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها في نفوس المعاصرين، كما ألقى على كاهلها مهمة إتمام ما بدأه صلاح الدين الأيوبي من حركة الاسترداد. ويرى سعيد عاشور بأن قدم المماليك رسخت بعد عين جالوت لأن كل غزوة مغولية على بلاد الشام كانت تقابل بجيوش المماليك، وبهجوم مضاد على أرمينيا والأناضول حيث تحالف الأرمن مع المغول ضد المماليك[٣٦]. وفي نفس الوقت بدأ المماليك مشروع طرد بقايا الفرنجة (الصليبيين) من بلاد الشام، وبذلك أصبحت دمشق بمثابة موقع متقدم للدفاع عن مصر، وحصن للدفاع عن مناطق داخلية بلاد الشام، كما أن قيليقية وأرمينيا أصبحتا ضمن المناطق الدفاعية الشمالية، وبذلك أصبحت بلاد الشام شبه مغلقة ضد الغزوات والأخطار الخارجية[٣٧].

وكان لبيت المقدس أهمية خاصة عند سلاطين المماليك بسبب طبيعتها الدينية وقدسيتها عند المسلمين. والواقع، فإن المماليك الأوائل اهتموا بالواجهة الدينية لحكمهم لأنهم كانوا مماليك أرقاء في أصولهم وبذلك رأوا في الاهتمام

بالدين وسيلة لإضفاء بعض الشرعية على حكمهم. صحيح أن المعاصرين في مصر ظلوا طوال عهد السلطان إيبك (٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م) يبدون استياءً واضحاً تجاه سلطة المماليك الأرقاء، ولكن انتصار المماليك الباهر في عين جالوت رسخ في عقول المعاصرين أنهم أكثر الناس فعالية في الدفاع عن الإسلام والمسلمين. وقد واجه السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٤هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٦م) بعض الثورات في بداية حكمه مما جعله يفكر في إيجاد دعامة يستند إليها في حكمه ويزيل بها من أذهان معاصريه " أنه مملوك " ومغتصب للسلطة بعد قتله السلطان قطز ". وكان سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م قد خلق موقفاً غريباً لم يعتاده المسلمون منذ بداية الخلافة الإسلامية عقب وفاة الرسول ﷺ . وبدأ بيبرس يفكر في إحياء الخلافة العباسية آملاً أن يعطيه ذلك الدعم والمشروعية التي يحتاج إليها. وبالفعل أحضر أحد أبناء البيت العباسي، وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر، من دمشق إلى القاهرة، ثم عقد مجلساً بالقلعة دعا إليه العلماء والقضاة والأمراء ليشهدوا بصحة نسبه. وبعد أن شهد الشهود بذلك، بايعه السلطان وبقية العلماء والفقهاء وسائر الناس، وتلقب باسم الخليفة المستنصر بالله. وبعد ذلك قام الخليفة بتقليد بيبرس السلطة، وبذلك تم له ما أراد[٣٨]. وقد تشكك بعض المعاصرين في صحة نسب الخليفة المستنصر فالمؤرخ أبو الفداء، الذي كان معاصراً للأحداث، ذكر في معرض حديثه عن حوادث سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م: (وفي هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر). ولكن المهم، أن الظاهر بيبرس حصل على تقليد بالسلطنة من الخليفة العباسي، وبذلك أضفى على نفسه، وعلى سلطته صفة شرعية.

ولكن العلاقات سرعان ما توترت بين السلطان الظاهر بيبرس والخليفة العباسي المستنصر إذ بدأ السلطان يحس بأن الخليفة أصبح يشاركه في الملك لأن النقود ضربت باسميهما كما أصبح يدعي للخليفة على المنابر قبل الدعاء للسلطان. وتذكر بعض المصادر بأن الظاهر بيبرس تخلص من الخليفة المستنصر بأن أرسله مع عدد قليل من الأمراء والترك لاسترداد بغداد من المغول فكان أن

مات مع أتباعه. وبعد ذلك استدعى بيبرس أميراً آخر من بني العباس، وهو الأمير أبو العبَّاس أحمد، وبايعه بالخلافة، وحصل منه على تقليد السلطنة سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وأنعم عليه الخليفة بلقب " قسيم أمير المؤمنين "، الذي كان من أرفع وأجل الألقاب كما يقول السيوطي(٣٩). وقد تلقب الخليفة العباسي بلقب " الحاكم بأمر الله "، ولكن بيبرس لم يترك له فرصة للظهور، وتأكيد نفوذه. وبذلك استطاع بيبرس إحياء الخلافة العباسية كاملة، كما استطاع أن يرسي أسس العلاقة بين السلطنة والخلافة طوال العصر المملوكي، حيث صار الخليفة يفوض الأمور العامة للسلطان، ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة، على أن يُدعى للخليفة على المنابر قبل السلطان. وقد عبر المقريزي عن الخلافة العباسية في وضعها الجديد تعبيراً صادقاً حين قال: (وخلافة الخليفة العباسي ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين)(٤٠).

واستفاد سلاطين المماليك من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة حيث شملتهم بالحماية الروحية إذ صاروا منذ بيبرس، وحتى الفتح العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامي، وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعاً باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها. وقد عبر عن ذلك الشعور ابن شاهين حين قال: (ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم مرتبة، سيد الأولين والأقربين، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعي بعقد الأئمة الأربعة)(٤١).

وكان على سلاطين المماليك أن يترجموا سياساتهم الدينية إلى واقع ملموس لكي يحظوا بتأييد المعاصرين لهم، لذلك ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية التي وضحت في مكاتباتهم الرسمية ونقشت على السكة، مثل: " أمير المؤمنين " و " سلطان الإسلام والمسلمين "، و " حامي الحرمين الشريفين والقبلتين " وأعلاها لقب " قسيم أمير المؤمنين "(٤٢).

وقد انعكست سياسة المماليك الدينية على بيت المقدس، فأولاها السلاطين عناية فائقة وأنشأوا بها المدارس والمنشآت الدينية، وعمروا الأماكن

المقدسة وأوقفوا عليها الأوقاف السنية. وليس من الممكن إيراد كل ما قام به سلاطين المماليك في بيت المقدس طوال العصر المملوكي الذي امتد لأكثر من قرنين ونصف (٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م) وإنما سنكتفي بإيراد بعض المنشآت الرئيسة.

كان الظاهر بيبرس أول سلطان اهتم ببيت المقدس إذ يذكر المقريزي أنه عمَّر قبة الصخرة سنة ٦١٦هـ/ ١٢٦١م ورتب برسم مصالح المسجد الأقصى خمسة آلاف درهم سنوياً[٤٣]. وفي سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، زار بيبرس المدينة وعمَّر خاناً كبيراً، عرف بـ: " خان الظاهر "[٤٤]، كما قام بتجديد قبة السلسلة[٤٥]. ويذكر ابن تغري بردي أن الظاهر بيبرس، وقف على الخان الذي أنشأه في بيت المقدس: (نصف قرية لفتا وبعض القرى الصغيرة بأعمال دمشق، وجعل بالخان فرناً وطاحونة، وجعل للمسجد الذي فيه إماماً وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح حال النازلين به)[٤٦]. ويذكر أن عبد الظاهر، صاحب " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر "، وهو من المعاصرين، أن الظاهر بيبرس أنشأ مدرسة بيت المقدس سميت " دار الحديث "، على طريق باب السلسلة[٤٧]، كما تم في عهده إنشاء المدرسة الأباصيرية، تجاه الرباط المنصوري بجوار باب الناظر.

ومن السلاطين الذين أظهروا اهتماماً فائقاً ببيت المقدس، السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨- ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ – ١٢٩٠م)، الذي تجمع المصادر على حسن سياسته وقوة شخصيته، وعدم ميله لسفك الدماء. واشتهر المنصور قلاوون بإنجازاته في مجال العمران إذ أقام العديد من المنشآت الحيوية التي خلدت اسمه في التاريخ الإسلامي عامة، والمملوكي خاصة. فإلى جانب اهتمامه بطرد بقايا الفرنجة (الصليبيين) من معاقلهم في بلاد الشام مثل: طرابلس، وبيروت وجبلة وعكار، اهتم المنصور بإنشاء المدارس، والقلاع، والبيمارستانات لدرجة أن المقريزي يقول عنه: (وهي أمور لم يسبقه إلى ذلك فيها أحد قديماً ولا حديثاً، شرقاً ولا غرباً)[٤٨].

وفيما يخص بيت المقدس، قام المنصور قلاوون بإعمار سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة عند جامع الأنبياء[٤٩]. كذلك أنشأ المنصور الرباط الذي حمل اسمه، وعرف بالرباط المنصوري، الذي يقع بباب الناظر، أحد أبواب المسجد الأقصى. وأقيم الرباط على قطعة أرض واسعة، وكان غاية في الحسن والبناء المحكم.

كذلك أبدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون خلال سلطنته الثالثة التي دامت لأكثر من ثلاثين سنوات (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) اهتماماً كبيراً ببيت المقدس، إذ تم في عهده إنشاء رباط كبير في المدينة، وعدد من الحمامات والقياسر[٥٠]، كما قام الناصر محمد بإعمار السور القبلي عند محراب داؤود، ورخم صدر المسجد الأقصى كما فتح في المسجد الأقصى الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله، وجدد قبة الصخرة وقبة المسجد الأقصى[٥١]. كذلك قام الناصر محمد بإعمار باب القطانين، أحد أبواب المسجد الأقصى، وبناه بناءً محكماً. ويذكر مجير الدين الحنبلي أن الناصر محمد قام بإعمار قناة السبيل، الواقعة عند بركة السلطان بظاهر القدس من جهة الغرب. وفي عهده، قام الأمير تنكز، نائب السلطنة في دمشق، ببناء مئذنة باب السلسلة، كما جدد مئذنة باب الغوانمة[٥٢]. كما أوقف الأمير تنكز أوقافاً جليلة على المدارس والرباطات في بيت المقدس، وبنى داراً للحديث، ومدرسة وخانقاة قرب المسجد الأقصى[٥٣]. وفي عهد الناصر محمد أيضاً قام الأمير علم الدين سنجر الجاولي بإنشاء المدرسة الجاولية في بيت المقدس، وكذلك المدرسة الكريمية بباب حطة[٥٤].

ويعتبر السلطان الناصر برقوق، مؤسس دولة المماليك البرجية (الثانية)، من السلاطين الذين اهتموا اهتماماً كبيراً ببيت المقدس تجلى في عدد من المنشآت الهامة. فقد أنشأ المدرسة الغزية على مقربة من باب الأسباط، كما أمر بتجديد القيسارية الموقوفة على الحرم الشريف. كذلك قام الناصر برقوق بتعمير بركة السلطان، وهي بركة كبيرة كانت بظاهر بيت المقدس من جهة الغرب، لحل ضائقة المياه في المدينة[٥٥].

وعلى الرغم مما اشتهر به السلطان الناصر فرج بن برقوق من سوء السيرة، إضافة لتزايد خطر المغول على بلاد الشام في عهده مما أدى لاضطراب الأحوال في المدن الرئيسة، إلا أنه كان حريصاً على زيارة بيت المقدس. وفي إحدى زياراته لبيت المقدس فرق على الناس خمسة آلاف دينار، وعشرين ألف درهم فضة[٥٦]، وهو مبلغ لا شك كبير بالنسبة لمقاييس ذلك العصر.

وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي حكم ستة عشر سنة (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م)، تميزت بالاستقرار والتركيز على الفتوحات الخارجية، وضح الاهتمام المتزايد تجاه بيت المقدس. ففي عهده عُمرت الأوقاف في بيت المقدس، وتم شراء عدة جهات للوقف من القرى المجاورة كذلك أمر برسباي بإصلاح قبة الصخرة[٥٧]، كما تم في عهده بناء أربع مدارس رئيسية في بيت المقدس هي:

- المدرسة الباسطية شمال الحرم بالقرب من باب الغنم.
- المدرسة القادرية بين باب حطة ومئذنة إسرائيل من الشرق.
- المدرسة الحسينية بباب الناظر غربي الحرم.
- المدرسة العثمانية بباب المتوضأ تجاه سبيل السلطان قاتيباي[٥٨].

وفي عهد الأشرف قاتيباي، أكثر السلاطين المماليك حكماً إذ استمرت فترة حكمه قرابة تسعة وعشرين سنة (٨٧٢-٩٠١م/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)، ورغم سوء الأحوال الاقتصادية وتفشي الطاعون، إلا أنه اهتم ببيت المقدس اهتماماً واضحاً تمثل في الأمور التالية:

١. صُنعت الأبواب النحاسية للمسجد الأقصى.
٢. تمت عمارة المسجد الأقصى.
٣. تم إنشاء المدرسة المزهرية بباب الحديد.
٤. تم إنشاء المدرسة الزمينية غربي الحرم.
٥. تم إنشاء المدرسة الأشرفية[٥٩].

وفي عهد السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠مم-١٥١٦م)، تم تجديد عمارة المسجد الأقصى، كما أصلحت الفصوص، وتم بياض الجدران ودهان الأبواب وغير ذلك من عمليات الترميم.

ونلاحظ مما ذكرناه سابقاً، أن العناية ببيت المقدس لم تكن قاصرة على السلاطين المماليك وحدهم بل شاركهم فيها كثير من الأمراء من أمثال: الأمير تنكز نائب السلطنة في دمشق، والأمير علم الدين سنجر الجاولي. كذلك نلاحظ أن العناية ببيت المقدس لم تكن قاصرة على المؤسسات الدينية، بل امتدت لتشمل المؤسسات العلمية كالمدارس والمؤسسات الخيرية والاجتماعية كالملاجئ والرباطات والخوانق لتوفير أسباب الحياة الطيبة في المدينة وتنشيط الحياة فيها. وقد تبارى السلاطين في وقف الأوقاف السخية على هذه المنشآت ليضمنوا استمراريتها في أداء وظائفها. وعلى الرغم من حالات الاضطراب السياسي التي كانت تتعاقب على الدولة المملوكية، مثل الفترة التي أعقبت مقتل الظاهر بيبرس وتلك التي أعقبت مقتل الأشرف خليل بن قلاوون، وكذلك في أواخر عصر سلاطين المماليك أيام قانصوة الغوري، إلا أن اهتمام السلاطين ببيت المقدس ورعاية مقدساتها ظل قوياً.

وفي الحقيقة فإن قيام دولة المماليك البرجية (الثانية) سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، جعل سلاطين هذه الدولة يحرصون على رعاية المقدسات في بيت المقدس حتى لا يكونوا في نظر معاصريهم أقل مرتبة من سلاطين دولة المماليك البحرية (الأولى) الذين سبقوهم (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م). ولذلك رأينا كثيراً من سلاطين الدولة البرجية، من أمثال الناصر برقوق، والناصر فرج بن برقوق، والأشرف برسباي، والأشرف قاتيباي، وقانصوه الغوري، يحرصون على بذل كل جهد ممكن للعناية بالحرم القدسي الشريف وقبة الصخرة، سواء بالإضافة أو الإصلاح أو الترميم. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن اهتمام السلاطين المماليك كان دائماً أن يرسخوا في نفوس معاصريهم أنهم حماة الإسلام والعقيدة الإسلامية، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض السلاطين الذين أكدت المصادر على تقواهم وصلاحهم فعلاً أمثال السلطان المنصور قلاوون من سلاطين الدولة الأولى، والسلطان الظاهر جقمق من سلاطين الدولة المملوكية الثانية المتأخرين (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م).

ونلاحظ أن المؤسسات الدينية والخيرية كانت كثيرة في عهد السلاطين دولة المماليك البحرية (الأولى)، بينما قلت هذه المؤسسات في دولة المماليك البرجية (الثانية)، ولعل ذلك راجع إلى سوء الأوضاع الاقتصادية نتيجة سياسات بعض السلاطين، مثل الأشرف برسباي، الاحتكارية إضافة للانقلاب الخطير في طرق التجارة الدولية في نهايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر نتيجة نجاح البرتغال في اكتشاف الطريق المباشر عبر رأس الرجاء الصالح إلى الهند مما كانت له نتائج خطيرة على دور مصر في التجارة الدولية بين الهند والصين من جهة والعالم الإسلامي في المشرق من جهة أخرى. وينبغي الإشارة إلى أن سلاطين المماليك سمحوا بإصلاح وترميم الكنائس والمؤسسات الدينية الأخرى كما يتضح ذلك من المصادر العربية. فقد ذكر المقريزي في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م: (وفيها قدم إلى يافا مركب فيه فرنج، معهم أخشاب، وعجل وصناع، برسم عمارة بيت لحم وغيرها من الكنائس ببيت المقدس وبيدهم مرسوم السلطان بتمكينهم من العمل، فدعوا الناس للعمل بالأجر، فأتاهم عدة من الفعلة والصناع، وشرعوا في إزاحة ما بطريقهم من الأوكار)[٦٠].

وسمح السلاطين المماليك أيضاً لليهود الذين سكنوا بيت المقدس، بإصلاح مؤسساتهم الدينية والاجتماعية، ومن الشواهد على ذلك أن الرابي موشي بن نحمان سُمح له ببناء كنيس يحمل اسمه في المدينة سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م.

التنظيمات الإدارية في بيت المقدس في العصر المملوكي

تطور النظام الإداري في بيت المقدس خلال العصر المملوكي تطوراً ملحوظاً، ويعكس هذا التطور اهتمام السلاطين بالمدينة من جهة، كما يعكس الوضع الإداري المتميز الذي حظيت به المدينة المقدسة.

بعد أن بسط المماليك سيطرتهم على كل بلاد الشام عقب موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، قسموا البلاد إلى ستة أقسام إدارية أطلقوا عليها اسم نيابات. وكان على رأس كل نيابة نائب للسلطان سمي نائب السلطنة. وقد ظهرت هذه النيابات تدريجياً، وأولها نيابة دمشق، ثم تبعها نيابة حلب ونيابة حماة، وبعد ذلك اكتمل البناء الإداري بظهور نيابة الكرك والأردن، ونيابة صفد، وأخيراً نيابة طرابلس. وكانت نيابة دمشق أكبر نيابات بلاد الشام وأرفعها في الرتبة ومما يدلل على ذلك أنها سميت أحياناً " نيابة الشام "[٦١]، وأحياناً أخرى " مملكة الشام ". وانقسمت كل نيابة إلى أقسام إدارية صغيرة أطلق عليها القلقشندي اسم " ولايات " أو " نيابات صغار "[٦٢].

ظلت إدارة مدينة بيت المقدس طوال العهد الأيوبي تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان ويطلق عليه اسم " والي "[٦٣]. واستمرت على ذلك الوضع الإداري في أوائل العصر المملوكي إذ ظلت ولاية صغيرة تابعة لنيابة دمشق. وتذكر بعض المصادر، مثل المقريزي، أن بيت المقدس كان بها نائب، مما قد يفهم بأنها كانت نيابة مثل سائر النيابات المذكورة أعلاه. ففي معرض حديثه عن سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦ م أيام السلطان الظاهر بيبرس يورد المقريزي: (... وفي ذي الحجة نزحت بئر السقاية التي بالقدس حتى اشتد عطش الناس بها، فنزل شخص إلى البئر فإذا هي قناة مسدودة، فأعلم الأمير علم الدين الحاج الركني نائب القدس)[٦٤]. ولا ينبغي أن تفهم مثل هذه الإشارات على أن القدس كانت نيابة مستقلة بذاتها بل ظلت في الواقع ولاية صغيرة تابعة لدمشق كما يؤكد ذلك ابن تغري بردي والدمشقي، المعروف بشيخ الربوة (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م). فالدمشقي يقول: (ومن أعمال دمشق وجندها أيضاً البيت المقدس بمدينة القدس)[٦٥]. أما ابن تغري بردي

فيؤكد أن النائب في دمشق كان يولي نائب القدس والرملة وصيدا وبيروت وبعلبك وغيرها على عادة من كان قبله.

وقد تضاربت أقوال المؤرخين في تحديد التاريخ الذي تحولت فيه بيت المقدس إلى نيابة مستقلة بذاتها. ويرى البعض أن بيت المقدس تحولت إلى نيابة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، استناداً إلى ما أورده ابن تغري بردي في حديثة عن الفتنة التي تزعمها الأمير الأفرم، نائب السلطنة في دمشق، ضد الناصر بقوله: (وأشار قراشنقر على الملك الناصر أن يكاتب الأمير يكن الجوكندار نائب صفد والأمير كراي نائب القدس)[٦٦]. ويرى ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) في معرض حديثه عن حوادث سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٢: (واستقر الأمير شهاب الدين ابن البريدي في نيابة القدس وأعطى طبلخانة وعزل ابن نائب الصيبية وكان وليها أياماً)[٦٧]. ويرى ابن الصيرفي (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) نفس الرأي إذ يورد عن حوادث نفس السنة: (وخُلع على فردم الحسيني واستقر نائب القدس)[٦٨].

ويخالف ابن حجر (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) الآراء المذكورة أعلاه ويرى بأن بيت المقدس تحولت إلى نيابة مستقلة بذاتها سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م إذ يقول: (وفيها (أي في تلك السنة) استقر تمراز في نيابة القدس وهو أول من ولي نيابتها، وكانت قبل ذلك يكون فيها والٍ من جهة والي الولاة بدمشق)[٦٩]. ويؤكد القلقشندي ما ذكره ابن حجر إذ يقول: (نائب القدس الشريف وهو ممن استحدثت نيابته في الدولة الأشرفية (يعني في عهد السلطان شعبان بن حسين) في سنة سبع وسبعين وسبعمائة وكانت قبل ذلك ولاية)[٧٠]. ويؤكد القلقشندي هذه الحقيقة مرة أخرى حين يقول: (وكان في الزمان المتقدم ولاية صغيرة يليها جندي ثم استقرت طبلخاناة في سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وأن العادة جرت أن يضاف إليها نظر الحرمين: حرم الخليل عليه السلام، وحرم القدس)[٧١].

ونميل إلى ترجيح رأي ابن حجر والقلقشندي لقربهما الزمني من تلك الأحداث من جهة، ولأن القلقشندي كان عليماً بالشؤون الإدارية في الدولة المملوكية بحكم عمله في ديوان الإنشاء.

ومهما كان الخلاف حول تحديد التاريخ الذي أصبحت فيه بيت المقدس نيابة مستقلة، فإن ذلك ينبغي أن لا يصرفنا عن تأكيد أن السلاطين المماليك اهتموا بالمدينة تدعيماً لنفوذهم في أعين المعاصرين لهم. وفي جعل بيت المقدس نيابة مستقلة ما يؤكد عزم السلاطين في ربط إدارتها مباشرة بسلطنتهم في القاهرة من جهة، وفي محاولة العناية بها عناية خاصة من جهة أخرى. ويبدو أن الخطر الفرنجي (الصليبي) على بيت المقدس لم يزول نهائياً بعد طرد بقايا الفرنجة نهائياً من بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، إذ ظل بعض الملوك الأوربيين يحاولون استعادة المدينة، خاصة ملوك قبرص الفرنجة من أمثال بطرس (لوزجنان) الأول (٧٦٠-٧٧٠هـ/ ١٣٥٩-١٣٦٩م) الذي قاد حملة على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م بهدف السيطرة على مصر أولاً قبل استرجاع بيت المقدس من المسلمين. وقد أوضح المقريزي الخطر المحدق بالإسكندرية وما حل بأهلها بسبب حملة بطرس (لوزجنان) الأول إذ يقول: (وكانت الحادثة من أشنع ما مر بالإسكندرية من حوادث ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها وقلت أموالهم، وزالت نعمتهم)[٧٢]. وفي الحقيقة، فإن السلطان الأشرف شعبان رفع مدينة الإسكندرية إلى نيابة بعد تلك الحملة الفرنجية بعد أن كانت ولاية، ولعل السبب نفسه هو الذي دفعه إلى تحويل بيت المقدس إلى نيابة خشية أن يحل بها ما حل بالإسكندرية. ولا شك أن حالة الاستقرار النسبي الذي نعمت به بلاد الشام عامة، وبيت المقدس خاصة، كان من العوامل التي شجعت السلطان الأشرف على تحويل بيت المقدس إلى نيابة خاصة بعد أن قوى مركزه السياسي بعد تخلصه من نفوذ بعض الأمراء المتنفذين كما يذكر ابن تقري بردي في معرض حديثه أنه في سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م: (قوى أمر الملك الأشرف في السلطنة وصار تدبير ملكه إليه يعزل ويولي من غير مشورة الأمراء وصار في الملك من غير منازع ولا معاند وحسنت سيرته وحبته الرعية إلى الغاية)[٧٣].

كل هذه العوامل اجتمعت لتدفع السلطان الأشرف لرفع بيت المقدس من الناحية الإدارية إلى نيابة على رأسها نائب للسلطان مسؤول أمامه عن أمن المدينة وسلامتها.

ومنذ دخول بيت المقدس في سلطة المماليك، وسواء كانت ولاية تابعة لدمشق أو أصبحت نيابة مستقلة بذاتها، نلاحظ حرص السلاطين الدائم على إبطال المظالم من المدينة كرفع الرسوم والمكوس وغيرها. كما نلاحظ اهتمام السلاطين بانتقاء الحكام والقضاة لبيت المقدس ومراقبتهم، وحرصهم على تغيير هؤلاء الحكام في حالة عجزهم أو تعسفهم ضد سكان المدينة. والشواهد كثيرة على ذلك نكتفي ببعض منها:

١. يورد مجير الدين الحنبلي أن السلطان الظاهر برقوق أبطل المظالم والرسوم والمكوس التي أحدثها النواب في بيت المقدس[٧٤]. ويذكر المقريزي أن السلطان سيف الدين قطز، عندما مر ببيت المقدس سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، أمر بإبطال المغارم التي كان نائب المدينة قد فرضها على أهلها، ونقش ذلك على حجر بالمسجد الأقصى[٧٥]. والجدير بالذكر أن رفع المظالم في المدينة لم يختص به المسلمون وحدهم بل شمل المسيحيين أيضاً، والشاهد على ذلك أن السلطان الظاهر أبي سعيد جقمق أصدر مرسوماً بإبطال ما أحدثه نائب بيت المقدس من ضمان دير الأرمن[٧٦].

٢. أما فيما يخص العناية بانتقاء الحكام والقضاة وكبار الموظفين في بيت المقدس، فالشواهد كثيرة في المصادر العربية. ومن ذلك ما يرويه لنا مجير الدين الحنبلي في حديثه عن أن الأمير (خشقدم نائب السلطنة بالقدس الشريف ولي النيابة في دولة الملك الظاهر جقمق وباشر بشهامة وحصل منه عسف بالرعية فوثب أهل بيت المقدس وشكوه للسلطان فعزله وطُلب إلى القاهرة)[٧٧]. وكثيراً ما نقرأ في المصادر عن تدخل السلاطين لحسم الخلافات التي كانت تنشب بين النواب وبين سكان بيت المقدس، وغالباً ما يكون حكمهم لصالح السكان بتغيير الحاكم أو نفيه وإبعاده.

الوظائف في بيت المقدس في العصر المملوكي

يمكن تصنيف الوظائف في بيت المقدس على عهد سلاطين المماليك إلى ثلاثة أنواع هي: أرباب السيوف، وأرباب الأقلام، وأصحاب الوظائف الدينية.

أولاً: أرباب السيوف:

يشمل أرباب السيوف: الوالي (أو النائب)، ووالي القلعة، ووالي المدينة، والحاجب ويمكن أن يضاف إليهم أصحاب وظائف أخرى أقل درجة مثل كاشف بيت المقدس، وترجمان القدس.

١) الوالي:

ويسمى النائب أيضاً. وقد سبق أن ذكرنا أن مدينة بيت المقدس، منذ العهد الأيوبي وحتى بداية العصر المملوكي، كانت تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان يطلق عليه لقب " والي " يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة في دمشق. وظل الأمر على حاله حتى تحولت المدينة إلى نيابة سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، فأصبح يطلق على من يليها لقب " نائب " [٧٨].

وكان النائب يمثل السلطان وينوب عنه في حكم المدينة، ويصوره لنا ابن فضل الله العمري بقوله: (إنه سلطان مختصر فيما هو ناء عن الحضرة وأن النائب هو المتصرف المطلق في كل أمرٍ)، وكان يراجع في كل ما يتعلق بشئون الجيش والمال وهو المسؤول عن البريد، وهو رئيس الموظفين في نيابته (وكل ذي وظيفة لا يتصرف إلا بأمره، ولا يفصل أمراً معضلاً إلا بمراجعته ... ويرتب في الوظائف)[٧٩]. ونستطيع أن نستخلص بعض اختصاصات الوالي (النائب) في بيت المقدس من كتب التقليد التي كان يصدرها السلاطين عند تعيين الولاة (النواب)، ومنها:

١. تنظيم الشرع الشريف والعمل على إعلاء كلمته.
٢. تأليف قلوب الرعية على حب السلطان.

٣. تولية ولاة الأعمال، وتولية صغار النواب كالتولية على القلاع والمدن الصغيرة، وكذلك للنائب أن يولي من يشاء في الوظائف العادية[٨٠].
٤. حماية المناطق التي يحكمها، وحماية أهل الذمة فيها ما داموا طائعين وتأديبهم إذا خرجوا عن الطاعة.
٥. القيام بمهام نيابة الخليل.
٦. أضيفت لصلاحيات والي بيت المقدس مهمة النظر في الحرمين الشريفين، القدس والخليل. وبذلك صار يلقب بـ: " ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام "[٨١].

إلا أنه في سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، حدثت تغييرات في اختصاصات نائب بيت المقدس. فقد قرر السلطان فرج بن برقوق: (أن نائب القدس لا يكون ناظراً للحرمين الشريفين)[٨٢]، وبهذا فصل الوظيفتين. إلا أننا نجد في المصادر ما يؤكد أنه في عهد السلطان الأشرف برسباي عاد نائب السلطنة ببيت المقدس ليجمع ما بين النيابة ونظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل[٨٣]. ويذهب مجير الدين أكثر من ذلك حين يذكر أن نائب بيت المقدس أصبح يجمع بين عدة وظائف مختلفة إذ يقول: (وكان الأمير طوغان العثماني نائب السلطنة بالقدس الشريف وناظر الحرمين في القدس والخليل وكاشف الرملة ونابلس ومتولي الصلت وعجلون، واستادار الأغوار وغير ذلك من التكلم على الجهات السلطانية، وجُمع له بين هذه الوظائف في دولة الملك الأشرف برسباي في سنة أربعين وثمانمائة، وبعدها في دولة الظاهر جقمق)[٨٤]. ويبدو أن الجمع بين تلك الاختصاصات والوظائف كان راجعاً إلى مقدرة بعض الأشخاص ومؤهلاتهم، وإن كان هذا التبديل والتغيير في الوظائف الإدارية يعكس تدهور البناء السياسي للدولة المملوكية في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

والمهم، فإنه منذ أن استحدثت النيابة في بيت المقدس، كان نوابها من أمراء الطبلخاناة، وهي مرتبة عسكرية تتيح لصاحبها أن يكون في خدمته أربعون مملوكاً[٨٥]. كما كان لأمير الطبلخاناة الحق في أن تدق على بابه الطبول كما

يفعل السلطان وكبار الأمراء. وعموماً، كان السلاطين يحرصون على تعيين نواب السلطنة في بيت المقدس بأنفسهم، إلا أنه وجدت بعض الحالات التي ترك فيها السلطان ذلك الحق لنائب السلطنة في دمشق، ومن ذلك ما يرويه ابن تغري بردي في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م، أن السلطان خشقدم أذن لنائب الشام: (أن يولي من يشاء ويعزل من يشاء، حتى كاشف الرملة ونائب القدس وأمثالهما)[٨٦].

وظل نائب السلطنة يسكن في البداية في القلعة كما يذكر مجير الدين الحنبلي[٨٧]. والراجح أن دار النيابة لم تستمر بالقلعة طوال العصر المملوكي إذ يذكر مجير الدين الحنبلي أيضاً في معرض حديثه عن الأمير علم الدين أبو سعيد سنجر الجاولي (ت ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) من إنه بنى مدرسة بالقدس صارت سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، سكناً للنواب في المدينة[٨٨]. ووصف الرحالة الإيطالي كازولا (Casola)، الذي زار بيت المقدس سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، بيت نائب القدس بأنه (أَجْمل البيوت وأتقنها في المدينة)[٨٩].

ونجد في المصادر العربية وفي كتب الرحالة الأوربيين ما يلقي الضوء على اختصاصات نائب بيت المقدس في نهايات الدولة المملوكية. فالمصادر العربية، مثل ابن إياس (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، يذكر أن تولي النيابة أصبح يتم، كغيره من الوظائف الكبيرة في الدولة، عن طريق الرشوة والبذل والبرطلة للخزانة السلطانية[٩٠]. ويبدو أن السبب وراء ذلك يعود إلى الانهيار الاقتصادي الذي آلت إليه الدولة المملوكية نتيجة كساد التجارة، وقلة موارد السلطنة نتيجة تغير طرق التجارة الدولية بعد اكتشاف البرتغال للطريق المباشر إلى الهند عن طريق رأس الرجال الصالح.

٢) والي (نائب) القلعة:

كانت هذه الوظيفة تأتي بعد نائب السلطنة مباشرة في الأهمية. ومن المرجح أنه حدث تطور في هذه الوظيفة، سواء من حيث اللقب الذي كان يطلق على متوليها أو رتبته العسكرية. ويذكر القلقشندي: (ولاية قلعة القدس وواليها جندي)[٩١]، مما يفهم منه أنه كان يطلق على من يتولاها لقب والي. أما

مجير الدين الحنبلي فيذكر: (كانت تدق فيها (أي في القلعة) الطبلخاناة في كل ليلة بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد وقد تلاشت أحوالها في عصرنا وتشتت وبطل منها دق الطبلخاناة وصار نائبها كأحد الناس لتلاشي الأحوال)[٩٢].

ويرجح أنه أصبح يطلق على والي القلعة لقب " نائب " بعد تحول مدينة بيت المقدس من مجرد ولاية تابعة لدمشق إلى نيابة مستقلة. ويتضح مما ذكره مجير الدين الحنبلي أنه في أواخر أيام الدولة المملوكية قل الاهتمام بقلعة بيت المقدس، وكذلك واليها وربما يعود ذلك لسوء الأوضاع الاقتصادية للسلطنة من جهة، وربما كان يعود لشعور السلاطين بعدم وجود خطر حقيقي يهدد أمن المدينة. ويلاحظ أن القلقشندي ومجير الدين الحنبلي لم يشيرا إلى رتبة متولي القلعة وعدد المماليك الذين كانوا في خدمته، مما يرجح أنه كان في زمانهما من صغار أمراء الطبلخاناة.

ومن ناحية أخرى، يذكر القلقشندي أن تولية والي القلعة ظلت حتى سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م بيد السلطان ثم صارت لنائب بيت المقدس. ويورد القلقشندي صراحة: (وكانت توليتها أولاً من جهة نائب السلطنة بدمشق ثم أخبرني بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والي القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القدس من حين استقر نيابة)[٩٣].

وقد أوضحت مراسيم تعيين نائب (والي) القلعة بعض اختصاصاته مثل: المواظبة على حفظ القلعة، وتفقد أسوارها ورجالها، وأن يدافع عنها ضد الأعداء (وأن يرعى الله دائماً في كل أحواله حتى يكون له عوناً ونصيراً)[٩٤].

٣) والي المدينة:

يذكر القلقشندي أن والي بيت المقدس كان في أغلب الأحيان جندياً يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة بدمشق عندما كانت بيت المقدس ولاية تابعة لها، وعندما تحولت القدس إلى نيابة، أصبح نائب القدس هو الذي يختار من يشغل هذه الوظيفة من المماليك[٩٥]. ومع أن المصادر العربية لم تعطنا فكرة واضحة عن اختصاصات الوالي أو المهام التي كان يقوم بها في مدينة بيت المقدس، إلا أننا

نرجح أنها لم تختلف عن غيرها من المدن التي خضعت لسلطنة المماليك سواء في مصر أو في بلاد الشام. ويمكن إجمال اختصاصات والي بيت المقدس في المهام التالية:

١. الإشراف على شئون المدينة، وتعقب المفسدين فيها، وحماية أهلها من الأشرار.
٢. الفحص عن المنكرات من الخمر وغيرها (على أنه ليس له أن يتجسس على الناس ويبحث عما هم فيه من منكر، ولا كبس بيوتهم بمجرد القال والقيل) كما يقول السبكي[٩٦] (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م).
٣. الحفاظ على الأمن في المدينة، وعلى الوالي أن يقوم بنفسه بتفقد الشوارع والحارات في الليل. والراجح أن الوالي كان هو نفسه صاحب الشرطة في المدينة.
٤. الإشراف على سلامة الحجاج النصارى الذين يفدون إلى بيت المقدس.
٥. كان من سلطات والي بيت المقدس، مثله مثل ولاة المدن المملوكية الأخرى، أن يعاقب مرتكبي الجرائم. وقد أوضح السبكي، وغيره من المصادر التي كتبت في الحسبة، بعض طرق العقاب، فذكر: (وليس للوالي غير أن يجلدهم فقط بسوط معتدل بين القضيب والعصا، لا رطب ولا يابس، ويفرق السياط على الأعضاء، ويتقى الوجه والمقاتل، ولا يتقى الرأس)[٩٧].

وقد ذكر القلقشندي أنه كان يفضل فيمن يتولى وظيفة الوالي في بيت المقدس أن يكون من أبناء المدينة من المماليك الذين عاشوا وتربوا فيها، حيث يقول: (وكان يشترط فيه أن يكون عارفاً بوجوه المصالح حتى يكون السكن أعرف بشمس بلده)[٩٨].

٤) الحاجب:

تذكر المصادر بأن وظيفة الحاجب في بيت المقدس كان يتولاها أحد الأمراء المماليك وكان من أبرز مهامه ما يلي:

١. كان من مهامه (أن ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب)[٩٩].

٢. ويذكر القلقشندي أن من مهام الحاجب: (وإليه تقديم من يعرض ومن يرد)[١٠٠].

٣. ويفهم من هذه العبارة أن الحاجب كان يعرض على نائب السلطنة من يرد إلى المدينة من المماليك، ومن يغادروها منهم مثل المنفيين إليها من الأمراء والقادة المماليك.

٤. ومن اختصاصات الحاجب أن ينظر في بعض القضايا التي تنشب بين أهل مدينة بيت المقدس، ومن ذلك: (أنه كان يحكم بين الناس وترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها)[١٠١]. وربما يعني هذا الاختصاص أنه كان ينوب عن نائب السلطنة في النظر في بعض المظالم.

والراجح أنه كان في بيت المقدس أربعة حُجاب مثل غيرها من نيابات بلاد الشام وعلى رأسهم " حاجب الحجاب " أو " أمير حاجب " إذ يورد مجير الدين الحنبلي: (وكان بالقدس الشريف فيما تقدم أمير حاجب على عادة غيره من البلاد وكان يحكم بين الناس ويرفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها)[١٠٢].

ويشير مجير الدين الحنبلي إلى أن وظيفة الحاجب ألغيت في عصر السلطان الأشرف إينال حوالي سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م، ولكنه لم يذكر السبب وراء الإلغاء وإنما اكتفى بالقول: (واختص الحكم بنواب القدس نحو الستين والثمانمائة)[١٠٣].

ومن وظائف أرباب السيوف التي ورد ذكرها في المصادر العربية وظيفة كاشف بيت المقدس. ويذكر القلقشندي أن الوظيفة كان يختص بها أحد أمراء الطبلخاناة من المماليك ومهمته في أساسها: (التحدث في جسور المدينة وأراضيها وسائر متعلقاتها وأحوالها)[١٠٤]. ويذكر القلقشندي أيضاً بأن كاشف بيت المقدس كان يتم تعيينه عن طريق نائب القدس، وأن متولي الوظيفة كان لا يحضر مجلس السلطان.

وتعتبر وظيفة ترجمان القدس من الوظائف التي تولاها أرباب السيوف في بيت المقدس. وكان متولي الوظيفة غالباً ما يكون من المماليك، وكانت من أبرز مهامه استقبال الحجاج والرحالة الأجانب في يافا أو في بيت المقدس (وإثبات شخصية كل منهم في بطاقة خاصة، ثم إرسال نسخة عنها إلى القاهرة لعرضها

على السلطان)[١٠٥]. ومن الطبيعي أن يكون لدى الترجمان معرفة ببعض اللغات الأجنبية حتى يستطيع التفاهم مع الحجاج والزوار الأجانب. ويذكر الرحالة فيلكس فابري (Felix Fabri)، الذي زار بيت المقدس مرتين عامي ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، و ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، أن ترجمان المدينة كان له مساعد يساعده في أداء عمله يسمى (الفاهالو)[١٠٦].

ثانياً: أرباب الأقلام:

أرباب الأقلام هم: المحتسب، ووكيل بيت المال ونقيب الأشراف. وعدّ القلقشندي ناظر كنيسة القيامة في بيت المقدس ضمن وظائف أرباب الأقلام.

١) المحتسب:

كان المحتسب في العصر المملوكي واحداً من أوسع موظفي الدولة نفوذاً وتعددت مسؤولياته. والواقع، فإن المحتسب كان هو الموظف الذي ارتبط اسمه في الدولة الإسلامية منذ قرون بالإشراف على الأسواق. وفي العصر المملوكي الأول، كان يتولى الوظيفة وجوه الناس والأعيان إذ كانت تعتبر من الوظائف الجليلة. ويورد ابن الاخوة (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م) أن منصب المحتسب انحط في العصر المملوكي الثاني بسبب فساد أحوال المماليك نظراً للأموال التي فرضوها على هذا المنصب[١٠٧].

وقد أورد القلقشندي بعض مسؤوليات المحتسب، ومنها:

١. حماية الجمهور من الغش والظلم.
٢. التأكد من توفر السلع الضرورية، كالخبز وغيره، ومنع حالات الغش والاحتكار فيها.
٣. تفقد الأسواق والتأكد من نظافتها واستتاب الأمن والنظام فيها.
٤. تفقد المساجد والتأكد من نظافتها وحسن استخداماتها.
٥. الإشراف على الأطباء والكحالين والصيادلة ومعلمي الصبية وغيرهم من أرباب الحرف الأخرى.
٦. منع المنكرات كخروج النساء خلف الجنائز[١٠٨].

٧. وذكر ابن الأخوة مهام إضافية للمحتسب مثل:

١) الإشراف على سك النقود من الذهب والفضة.

٢) الإشراف على موارد المياه في المدينة.

٣) الإشراف على بعض الأمور المتعلقة بأهل الذمة كأخذ الجزية منهم ومنعهم من إحداث الكنائس والبيع(١٠٩).

وكان للمحتسب في بيت المقدس بعض المساعدين الذي يساعدونه في أداء مهام وظيفته، وسماهم المقريزي العرفاء، وذكر بأنهم كانوا يختارون من بين أصحاب الحرف(١١٠). وكانت للمحتسب سلطة تنفيذية كسلطة القاضي ولكن العقوبات التي كان يفرضها لا تبلغ درجة الحدود، وإنما كانت في مستوى التعزير. وكان المحتسب يعقد جلسات محاكمات المذنبين في مكان معروف باسم " دكة المحتسب "، وقد يكون داخل المسجد الأقصى، ويتخذ الضرب بالسوط والدرة وسيلة للتعزير(١١١).

وفي بداية العصر المملوكي كان المحتسب يعين من قبل نائب السلطنة في دمشق وينوب عن محتسب دمشق، ثم لما تحولت بيت المقدس إلى نيابة، أصبح يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة في المدينة(١١٢). ولم يكن في بيت المقدس سوى محتسب واحد والسبب في ذلك صغر حجم المدينة وقلة سكانها مقارنة بمدن أخرى في بلاد الشام مثل: دمشق وحلب وغيرها. وظل نائب القدس يقوم بتولية المحتسب حتى عهد السلطان الأشرف قاتيباي الذي ألغى، في سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، تولية الحسبة من النائب وجعله بيد السلطان(١١٣). ونفهم من المصادر العربية أنه في نهاية العصر المملوكي صار من المألوف أن يجمع شخص واحد بين الحسبة وغيرها من الوظائف، كما صارت الحسبة تولي لمن يدفع الرشاوى أكثر من توليتها للفقهاء. وكما يورد ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): (وصار المنصب يليه في الشهر الواحد ثلاثة أو أربعة، وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالاً مقرراً، فكان من قام في نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويُخلع عليه، ثم يقوم آخر فيزن فيصرف الذي قبله)(١١٤)، والواقع، فإن وظيفة المحتسب فقدت رونقها وسطوتها في خضم التدهور العام الذي أصاب دولة سلاطين المماليك في أواخر أيامها.

٢) وكيل بيت المال:

يورد ابن حجر أن وكيل بيت المال وُجد في بيت المقدس منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، حيث يقول: (الشيخ الفقيه أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن خضر المقدسي وكيل بيت المال بالقدس الشريف وهو الذي فوض إليه صلاح الدين بيع الأملاك الخاصة ببيت المال بالقدس الشريف)[١١٥].

ويعتبر القلقشندي وظيفة وكيل بيت المال من الوظائف المتوسطة في العصر المملوكي ويقول عنها: (وتارة يولي فيها السلطان، وتارة يولي فيها النواب، إلا أن تولية السلطان فيها في النيابات الكبار كالشام أكثر)[١١٦]. ومما أورده القلقشندي نلاحظ بأنه يتحدث عنها فيما يتعلق ببلاد الشام بوجه عام، ولم يخصص حديثه عن بيت المقدس. ونرجح بأن الوظيفة كانت موجودة في بيت المقدس طوال العصر المملوكي، وتذكر المصادر بعضاً من مهام الوكيل كالتحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراضٍ وغيرها[١١٧]. والراجح أن الوظيفة لم يكن يليها إلا أهل العلم والدين. وكان لوكيل بيت المال مجلس (ديوان) بدار العدل، كما كان له بعض المعاونين مثل: " العامل "، الذي كان ينظم الحسابات، و " الصيرفي "، الذي كان يتولى قبض المال وصرفه، إضافة إلى " كتاب الدرج "[١١٨].

٣) نقيب الأشراف:

يصف القلقشندي وظيفة نقيب الأشراف بقوله: (وهي وظيفة شريفة، ومرتبة نفيسة، موضوعها التحدث على ولد علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه من فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهم المراد بالأشراف في الفحص عن أنسابهم والتحدث في أقاربهم والأخذ على يدي المتعدي منهم ونحو ذلك)[١١٩].

كان للأشراف نقيب في بيت المقدس تماماً كما كان لهم في بغداد والقاهرة وغيرها من المدن الإسلامية الرئيسة. وكانت ولاية نقيب الأشراف في بيت المقدس في العصر المملوكي من نائب المدينة. ولا نجد في المصادر العربية تفاصيل وافية عن مهام النقيب، ويبدو أنها انحصرت في التحدث باسم آل البيت، والأشراف على أحوالهم وشؤونهم وضبط أنسابهم في الصحيفة،

والإشراف على تزويج الأيامى من الشريفات بمن يليق بهن من الرجال من حيث المكانة الاجتماعية، وتوقيع العقوبات على المذنبين منهم. وكان من مهام النقيب أيضاً توزيع الأموال التي تقررها السلطنة بصورة لائقة بمقامهم. ونجد في المصادر إشارات تدلل على أن مهام النقيب لم تقتصر على شؤون الأشراف أحياناً، وإنما جمع النقيب مهام أخرى إلى جانب النقابة مثل نظر بيت المقدس والخليل.

٤) ناظر كنيسة القيامة:

اعتبر القلقشندي وظيفة ناظر كنيسة القيامة في بيت المقدس من وظائف أرباب الأقلام وسماها " شد متحصل قمامة "، وذكر بأن متوليها يجب أن يكون من المسلمين وأن يكون: (عالماً بتقوى الله فإن أهل معاملته أهل ذمة)[١٢٠]. وقد ذكر بعض الرحالة الأوربيين مهام ناظر كنيسة القيامة مثل الإشراف على أعداد الحجاج النصارى الواصلين إلى الكنيسة والزوار، وهو الذي يقوم بتحصيل ما يسمى " موجب السلطان " بعد أن يقوم بتدوين بعض المعلومات الشخصية عن كل حاج أو زائر من ذكر لاسمه، واسم عائلته، ونسبه، وجنسيته، والعلامات المميزة له. وكانت نسخة من هذه البيانات تحفظ عند ناظر الكنيسة في حين ترسل نسخة أخرى إلى القاهرة.

وكان لناظر كنيسة القيامة عدد من المعاونين لمعاونته في أداء مهام وظيفته إذ كان يتبعه خمسة عشر حارساً ممن يقومون بحصر عدد الحجاج والزوار عند دخولهم كنيسة القيامة وعند خروجهم منها[١٢١].

ويورد القلقشندي: (وظيفة ناظر كنيسة القيامة لم تكن من الوظائف الجليلة، وظل نائب القدس يقوم على تولية الناظر). ويرجح أن يكون من شروط متوليها أن يكون ملماً بلغة، أو لغات أجنبية، حتى يستطيع التفاهم مع الحجاج والزوار، وربما كان يستعين بأحد التراجمة.

ثالثاً: الوظائف الدينية:

وجدت في بيت المقدس في العصر المملوكي بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية التي أشارت إليها المصادر العربية. ومن الوظائف الدينية الهامة: القاضي،

وناظر الحرمين، وخطيب القدس، ومشيخة المدرسة الصلاحية، ومشيخة الخانقاة الصلاحية، وهناك وظائف دينية أقل مرتبة مثل أئمة المساجد، والمؤذنون، والموقتون والمقرئون.

١) القاضي:

بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس من الفرنجة (الصليبيين) سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م أقام المذهب الشافعي في المدينة بعد وقفه المدرسة الصلاحية وجعلها للشافعية(١٢٢). ومنذ أيام صلاح الدين أصبح المذهب الشافعي هو المذهب السائد في المدينة مع وجود المذاهب الأخرى، وخاصة المذهب الحنفي. وظل قاضي الشافعية قاضي المدينة الأول حتى نهايات القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حين استحدث السلطان الظاهر برقوق منصب قاضٍ للحنفية سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م(١٢٣)، ثم تلاه منصب قاضي المالكية في سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، وأخيراً أُستحدث منصب قاضي الحنابلة سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م(١٢٤). وكانت تولية قضاة المذاهب الأربعة في بيت المقدس من اختصاص السلطان المملوكي في القاهرة، والسبب في ذلك نظرة الأهمية التي أولاها السلاطين للقضاء. ويورد القلقشندي في حديثه عن الوظائف الدينية ببيت المقدس أن تولية القضاة كانت من الوظائف الجليلة التي يختص بها السلطان وحده أما فيما عدا ذلك من وظائف قضاة العسكر، والحسبة، ومشيخة الشيوخ ونحو ذلك فتارة يولي فيها السلطان، وتارة يولي فيها النواب(١٢٥).

واستمرت سيادة المذهب الشافعي في القضاء في بيت المقدس طوال العصر المملوكي، ولم ينافسه سوى المذهب الحنفي. وكان قاضي الشافعية يجمع بين قضاء القدس والرملة أحياناً، ووجدنا إشارات تؤكد جمعه بين قضاء القدس ونابلس وجنين وأعمالها أحياناً أخرى(١٢٦). وكان منصب القضاء الشافعي يتوارثه الأبناء عن الآباء في أغلب الأحيان، ويذكر ابن حجر ظاهرة تحول القضاة من مذهب إلى مذهب آخر، ويعزو السبب وراء هذا التحول إلى كثرة الأموال التي قد يحصلون عليها من الأوقاف المحبوسة على أبناء المذهب الشافعي(١٢٧).

وتكاد المصادر العربية تجمع على هيبة القضاة في نظر الناس في بيت المقدس في العصر المملوكي، ونجد إشارات إلى أن بعض القضاة وصل درجة من العفة بحيث لا يتناول غير معلومه المرتب على أحد الأوقاف فحسب. وهناك إشارات قليلة في المصادر تورد معلومات عن سعي بعض القضاة لتولي القضاء ببذل المال والرشاوى، ومن ذلك ما ذكره المقريزي في معرض حديثه عن سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، إذ يقول عن ابن سالم: (ما زال يسعى بالخدام حتى كتب له توقيع بقضاء القدس، على ألف وخمسمائة دينار حملها للسلطان، ومثلها لمن سعى له)[١٢٨]. وينبغي أن لا نأخذ هذه الحالة الوحيدة دليلاً على فساد القضاة في بيت المقدس، خاصة إذ وضعنا في الاعتبار أن السلطان شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون اشتهر باستلام الرشاوى كما يقول عنه المقريزي: (واشتهر أخذ البراطيل للسلطان، فقصده كل أحد لطلب الإقطاعيات والرزق والرواتب)[١٢٩].

وكان من مهام القضاة في بيت المقدس الفصل في الخلافات التي تنشأ بين المسلمين وأهل الذمة من نصارى ويهود. وفي الحقيقة، ظل القضاء بين الطوائف المسيحية المختلفة واليهودية التي عاشت في المدينة بأيدي أبناء هذه الطوائف إلا فيما يتصل بالخلافات حول الأماكن المقدسة للطرفين. أما حالات الخلافات بين المسلمين والمسيحيين على اختلاف مذاهبهم، فكان الفصل فيها يتم على يد القضاة المسلمين[١٣٠].

وكان لليهود قضاتهم الذين ينظرون في الخلافات بينهم كما تذكر كتابات بعض الرحالة الذين زاروا بيت المقدس في العصر المملوكي. والشاهد على ذلك ما ذكره الرحالة اليهودي موسى بن مناحيم، الذي زار بيت المقدس سنة ٨٧٦هـ/١٤٨١م، من أن اليهود كان لهم قضاة يفضون المنازعات التي تنشأ بين طوائفهم المختلفة، وكان يطلق على كل واحد من هؤلاء القضاة لقب "شيخ"[١٣١]. ويرى جويتين (Goitein)، وهو من المهتمين بتاريخ اليهود في المشرق الإسلامي، أن اليهود كانت لهم محكمة خاصة بهم قرب كنيسهم في بيت المقدس، وأن قضاتهم من علماء اليهود، كانوا: (لا يتلقون أجراً عن أتعابهم عن كل قضية يحكمون فيها، ولكن عندما يقوم هؤلاء القضاة بتوثيق بعض الوثائق فمن هنا كانوا يتناولون بعض الأتعاب عن كل وثيقة يوثقونها)[١٣٢].

٢) ناظر الحرميـن:

ويسمى متولي هذه الوظيفة أيضاً بـ: " ناظر القدس والخليل "، ومن مهامه الرئيسة:

١. النظر في كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس، والحرم الإبراهيمي بالخليل من إصلاحات وترميم فضلاً عن ترتيب وظائف القائمين بالعمل فيهما.
٢. الإشراف والتصرف في الأموال المخصصة للأوقاف الخاصة بهذين الحرمين.
٣. الإشراف على موارد المياه التي تمد الحرمين الشريفين بالماء مثل قناة السبيل[١٣٣].

ويذكر السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) أن هذه المهام كانت من اختصاص نائب القدس أو واليها منذ سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، غير أن السلطان الظاهر جقمق عين، في سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م، القاضي غرس الدين خليل بن أحمد ليقوم على نظر الحرمين كوظيفة مستقلة عن النيابة[١٣٤].

وكانت ولاية وظيفة ناظر الحرمين تصدر عن السلاطين بالقاهرة طوال عصر دولة المماليك البرجية (الأولى)، ولكننا نجد في المصادر العربية أنه في دولة المماليك الثانية (البحرية) صار التعيين أحياناً يتم بعد دفع مبلغ من المال للسلطان كما يذكر ابن تغري بردي حين يقول في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٧م، أيام السلطان جقمق: (واستقر الأمين عبدالرحمن في نظر الحرمين بالقدس والخليل بمال وعد به بعد وفاة الغرس خليل السخاوي)[١٣٥].

- خطيب القدس:

كانت هذه الوظيفة تسند إلى من يقوم بالخطبة في المسجد الأقصى، ولكن يلاحظ أن القائمين عليها كانوا أحياناً يجمعون بينها وبين القضاء، أو بينها وبين التدريس في المدرسة الصلاحية في بيت المقدس. ويورد مجير الدين الحنبلي معلومات شيقة عن من تولوا هذا المنصب، فيذكر أن الخطيب كان

أحياناً يجمع بين منصب الخطابة والقضاء والإمامة والإفتاء مدة من الزمن، كما أوضح أن شخصيات من بعض العائلات المقدسية كانت تقوم بتوارث منصب الخطابة، ومنهم عائلة بني القلقشندي وبني جماعة(١٣٦).

ويتفق ابن حجر ومجير الدين الحنبلي على أن تولي منصب الخطابة أصبح، منذ بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، يتم عن طريق بذل المال للسلطان. ومن الشواهد على ذلك ما ذكره ابن حجر: (وفي سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، استقر ابن السائح في خطابة القدس وكان قد بذل فيها ثمانين ألف درهم)(١٣٧).

أما مجير الدين فيذكر في معرض حديثه عن سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م: (وولى جمال الدين يوسف بن غانم المقدسي الخطابة بمال بذله، ثم سعى عليه قاضي الرملة بمائة ألف درهم فعزل ابن غانم ... ولم يقم بها غير ثلاثة أشهر وعزل بالباعوني)(١٣٨).

ونجد في المقريزي إشارات واضحة عن كثرة التعيين والعزل في منصب خطيب القدس منذ بدايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ففي حديثه عن سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م أيام سلطنة فرج بن برقوق يقول: (فكان في مدة تسعة أشهر قد ولي خطابة القدس خمسة أحدهم وليها مرتين)(١٣٩). والراجح عندنا أن السبب في ذلك يرجع إلى شره السلاطين وطمعهم في المال من جهة، فضلاً عن تكالب رجال الدين على هذا المنصب وتنافسهم في دفع الرشاوى، من جهة ثانية.

٣) مشيخة المدرسة الصلاحية:

كانت المدرسة الصلاحية، التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي بعد استرداد بيت المقدس من الفرنجة (الصليبيين)، أبرز مدارس المدينة وأكثرها نشاطاً بسبب ما توفر لها من أوقاف سخية طوال العصر الأيوبي، واستمر الحال على هذا المنوال في العصر المملوكي حيث تنافس أشهر العلماء على تولي التدريس فيها وتولي مشيختها.

كانت مشيخة المدرسة الصلاحية في بيت المقدس من الوظائف الدينية الهامة في المدينة، وكان يشترط في من يلي هذه الوظيفة أن يكون من أبرز علماء عصره، وكان السلطان وحده الذي يقوم بتعيين من يتولى هذه الوظيفة(١٤٠).

ولم تختلف مهام شيخ المدرسة الصلاحية عن مهام شيوخ المدارس المشهورة في المدينة التي تركزت حول الحرم الشريف أو بداخله، مثل: المدرسة الفارسية داخل المسجد الأقصى، والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة المشرفة من جهة الغرب، والمدرسة الناصرية، والمدرسة الأشرفية داخل المسجد الأقصى، والمدرسة الأرغونية بالمسجد الأقصى وغيرها من المدارس. والراجح أن مهام شيخ المدرسة الصلاحية كانت الإشراف على جماعة المدرسين والطلبة وغيرهم من كادر المدرسة، وتوفير كل ما يلزمهم من ضروريات كالمأكل والمشرب والملبس وخلافه، والقيام على تنفيذ وصية الواقفين، ورعاية الأوقاف المحبوسة على المدرسة، وتنميتها حتى تواجه متطلبات العاملين فيها والوافدين إليها من الطلبة.

٤) مشيخة الخانقاة الصلاحية:

الخانقاة هي مأوى الصوفية. والخانقاة الصلاحية هي تلك التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي على الصوفية عقب استرداد بيت المقدس من الفرنجة (الصليبيين). واستمرت الخانقاة تجذب إليها أعداد كبيرة من الصوفية طوال العهد الأيوبي، وتولى مشيختها عدد من مشاهير العلماء والفقهاء الصوفية.

وفي العصر المملوكي، أصبحت وظيفة مشيخة الخانقاة الصلاحية من الوظائف الهامة في بيت المقدس، وكان شيخ الخانقاة يعين بتوقيع من السلطان في القاهرة[١٤١]، ونجد في كتاب " الأنس الجليل " لمجير الدين الحنبلي ما يفيد تناوب بعض الأشخاص في تولي مشيخة الخانقاة مناصفة، كما يؤكد الحنبلي أن المنصب كان يتوارثه الأبناء عن الآباء أحياناً. ومن الشواهد على وراثة منصب مشيخة الخانقاة ما ذكره لنا مجير الدين الحنبلي في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، أيام سلطنة الأشرف قاتيباي، حيث يقول: (وفي ذي الحجة توفى الشيخ جمال الدين عبدالله بن غانم شيخ حرم القدس الشريف واستقر ولده الشيخ ناصر الدين محمد فيما كان بيد والده من مشيخة الحرم ونصف مشيخة الخانقاة الصلاحية بالقدس الشريف)[١٤٢].

وينبغي ذكر أنه وجدت في بيت المقدس وظائف مماثلة لمشيخة الصلاحية، مثل مشيخة المغاربة، ومشيخة الخانقاة التنكزية، إلا أنها كانت

أقل درجة من مشيخة الخانقاة الصلاحية. وكان التعيين في هذه المشيخات يتم من قبل نائب السلطنة في دمشق أولاً ثم من نائب بيت المقدس بعد أن أصبحت نيابة.

ووجدت في بيت المقدس وظائف دينية أخرى أقل أهمية من الوظائف الخمس التي ذكرناها. وهذه الوظائف تشمل: أئمة المساجد، والمؤذنون، والمقرئون. ويمكن التطرق لها في مجموعة واحدة.

٦) وظائف دينية أخرى: (ائمة المساجد والمؤذنون والمقرئون):

أ) ائمة المساجد:

كانت إمامة المصلين في مساجد بيت المقدس من الوظائف الدينية التي لها ترتيب خاص في الحرم الشريف. وقد ترك لنا ابن شاهين (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) وصفاً شيقاً لنظام إمامة المصلين في الحرم الشريف ببيت المقدس إذ يقول: (يصلى بمسجد بيت المقدس في أذان أربع صلوات على المذاهب الأربعة أول ما يبدأ بمذهب الإمام مالك بجامع المغاربة ثم بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي ثم بقبة الصخرة على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ثم بقبة موسى والرواق الغربي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل)[١٤٣]. وكانت هذه العادة متبعة في صلاتي الظهر والعصر، وأما في صلوات الفجر والمغرب والعشاء، فكان كل إمام يصلي بجماعته من غير ترتيب. ويذكر النابلسي[١٤٤] أن صلاة العيدين كانت تقام في المحراب الذي على صحن الصخرة الشريفة، بينما كانت صلاة الجمعة تقام بالمسجد الأقصى بمحل صلاة الشافعية فقط.

وعموماً يمكن القول أنه خلال العصر المملوكي كان هناك أربعة من الأئمة داخل المسجد الأقصى على النحو التالي:

١. إمام لمسجد الصخرة على مذهب الإمام أبي حنيفة.
٢. إمام للمالكية بجامع المغاربة المخصص لهم بالمسجد الأقصى.
٣. إمام بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام الشافعي.
٤. إمام لقبة موسى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

وكان يشترط في الأئمة أن يكون الواحد منهم من أهل العلم والصلاح، وأن يكون حافظاً لكتاب الله الكريم، مجيداً للتلاوة، حسن الصوت، عالماً بأحكام العبادات الشرعية، وكان لا يسمح للإمام أن يجمع بين إمامة مسجدين(١٤٥).

ب) المؤذنون:

كان عدد المؤذنين المرتبين بمساجد بيت المقدس كبيراً خلال العصر المملوكي. ونجد في المصادر إشارات لوظيفة " رئيس المؤذنين " بالمسجد الأقصى ومسجد الصخرة. وكان يشترط فيمن يتولى وظيفة المؤذن أن يكون حسن الصوت والأداء، وأن يكون لديه حشمة ووقار كما يقول الحنبلي(١٤٦).

وكانت مهمة المؤذنين القيام بالأذان لكل صلاة في وقتها، والتسبيح أواخر الليل في الوقت المعتاد في الحرم الشريف، كما يقفون خلف الإمام، ويقرأون ما تيسر من القرآن بعد الصلاة، ويختمون بالذكر والتأمين على الدعاء كما جرت العادة بذلك. وقد يقوم المؤذن أحياناً بوظيفة الموقت إذ يقوم بتحديد مواعيد الصلوات، وفي هذه الحالة يشترط فيه أن يكون عارفاً بالمواقيت وأساسيات علم الفلك كاستخدام آلات الرصد.

ج) المقرئون:

كان يشترط في المقرئ أن يكون على دراية بعلم القراءات، كما لا بد أن يكون حسن الصوت والأداء والترتيل حافظاً لكتاب الله. ووجد في بيت المقدس في العصر المملوكي عدد كبير من المقرئين لدرجة أننا سمعنا بوظيفة " رئيس القرّاء بالقدس الشريف "(١٤٧).

وكان نائب السلطنة في بيت المقدس هو من يقوم بتولية وظائف الأئمة والمؤذنون والمقرئون، نظراً لمعرفته بأهل البلاد من جهة، كما أن هذه الوظائف لم تكن من الوظائف الكبرى التي حرص السلاطين المماليك على توليتها.

هوامش الفصل الثاني

١- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (١-١٠)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، (د.ت)، ج٧، ص ٢٢٤.

٢- محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ٢٣٠.

٣- عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ، رسائل الجاحظ، (رسالة في مناقب الترك)، تقديم وشرح: علي أبو ملحم، منشورات دار الهلال، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٥١٠.

٤- محمد النصيبي أبو القاسم بن حوقل، كتاب صورة الأرض، ليدن، ١٩٣٩م، ق٢، ص ٢٤٠.

٥- عن شراء واستخدام الرقيق الأتراك في مصر زمن الطولونيين، والأخشيديين، انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، (١-٣)، دار التحرير للطباعة والنشر، بولاق، ١٢٧١هـ.

٦- عن استخدام الرقيق الأتراك زمن الصفاريين والسامانيين، انظر:
عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة علاء الدين منصور، دار الثقافة للتوزيع والنشر، القاهرة ١٩٩٠م، ص ص ٩٧-١٦٧.

٧- عن شراء واستخدام الأتراك الأرقاء زمن الغزنويين والغوريين، انظر مقالة: عصام عبدالرؤوف، " الحياة السياسية في بلاد الهند في عهد الملوك والمماليك "، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٦-٢٩، ١٩٧٨م، ص ص ٢٣-٥٧.

٨- أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (١-١٤)، ج٤، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٨٣.

٩- عن عماد الدين زنكي ودوره في عهد دولة الأتابكية، انظر:
أبو شامة، كتاب الروضتين، ج١، ص٢٤-٢٧.

١٠- ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٦-١٦١.

١١- النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٤١٥.

١٢- عن حملة صلاح الدين على المغرب، ودور قائدها المملوكي قراقوش، انظر:
أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، القاهرة، (د.ت)، ص ٨٠ وما بعدها.

١٣- عن حملات صلاح الدين العسكرية على اليمن، انظر:
عبدالله الطيب بن عبدالله أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، (١-٢)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ج٦، ص ١٠٠ وما بعدها.

وانظر أيضاً الدراسة القيمة:

جميل حرب حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، دار تهامة للنشر، جدة، ١٩٨٥م، ص ١٠٢ وما بعدها.

١٤- عن أدوار هؤلاء القادة من المماليك الأتراك، انظر:

محمد الحافظ النقر، القوى الفاعلة في المجتمع في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار المسار للنشر والتوزيع، المفرق، الأردن، ٢٠٠٢م، ص ص ١٣-٢٤.

١٥- لتعريف الوظائف المذكورة، انظر:

القلشقندي، صبح الأعشى، ج٣ وج ٤.

وعن المماليك الذين تولوا هذه المناصب لصلاح الدين، انظر:

محمد الحافظ النقر، المرجع السابق، ص ص ٢٤-٣٧.

١٦- عن أدوار المماليك في صد الحملة الفرنجية الخامسة، انظر:

سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٢٠ وما بعدها، وانظر أيضاً:

ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٦٣ وما بعدها.

١٧- محمد الحافظ النقر، القوى الفاعلة، ص ص ٣٩-٤٧.

١٨- المقريزي، السلوك، ١٦٠، ص ٢٣٨ وما بعدها.

١٩- عبدالله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ج٧، ص ٢٧٠.

٢٠- صلاح الدين بن إيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، (١-١٩)، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ألمانيا، ١٩٦٢-١٩٩٩م، ج٩، ص ٤٩١-

٢١- النويري، نهاية الإرب، ج٢٩، ص ٣٠٥.

٢٢- المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٢٤ وما بعدها.

٢٣- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٧٢ وما بعدها.

٢٤- ابن أيبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٧٦.

٢٥- المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٥٠.

٢٦- جوانفيل (Jean de Joinville)، مذكرات جوانفيل (القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٨٢ وما بعدها.

٢٧- النويري، نهاية الإرب، ج٢٩، ص ٣٦٠ وما بعدها.

٢٨- بيبرس الدواداري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة/ بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤٧ وما بعدها.

٢٩- جمال الدين يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (١-٦)، تقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٧، ص١٠.

٣٠- جوانفيل، مذكرات جوانفيل من ص ٢٧٤-٢٧٦.

٣١- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢.
٣٢- المقريزي، السلوك، ج١، ص ٣٩٨.
٣٣- المقريزي، المصدر السابق، ج١، من ص ٤١٠-٤١١.
٣٤- عن عين جالوت، انظر:
المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٣١ وما بعدها.
٣٥- عن التدمير والخراب الذي لحق بدمشق وحلب أثناء الغزو المغولي، انظر:
٣٦- المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٤٢٣-٤٣٢.
وانظر أيضاً: محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام والجزيرة، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٤٠٦ وما بعدها.
٣٧- سعيد عبد الفتاح عاشور " بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عهد المماليك "، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمَّان، ١٩٨٣م، ص ص ٣٠١ — ٣٥٥.
٣٨- المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٥١-٤٥٧.
وانظر أيضاً:
أبو شامة، الذيل على الروضتين " تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ط٢، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤م، ص ٢٣٠.
٣٩- جلال الدين علي عبدالرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (١-٢)، القاهرة، ١٣٢٧هـ، ج١، ص ٨٧.
٤٠- المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٨٣.
٤١- غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبناء الطرق والمسالك، ط٢، باعتناء بولس راويس، دار البستاني، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٨٩.

٤٢- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص ١٠٨ وما بعدها.
٤٣- المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٩١.
٤٤- فخر الدين محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، (١-٢)، دار الطباعة العامرة، القاهرة، ١٢٨٣هـ، ج١، ص ١١٤.
٤٥- تقع قبة السلسلة على بضعة أمتار إلى الشرق من قبة الصخرة. ونسب بناء قبة السلسلة إلى عبدالملك بن مروان، وقيل إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى السلسلة التي تقول الأسطورة بأن داؤود عليه السلام علقها بين السماء والأرض، وقد سماها البعض " قبة داؤود " أو" محكمة داؤود ". ويذكر مجير الدين الحنبلي أن عبدالملك بناها لتكون في الأصل بيتاً للمال، وقيل أنه وضع فيها خراج مصر لسبع سنين الذي رصده لإعمار قبة الصخرة.
مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمَّان، ١٩٧٣م، ج١، ص ٢٧٢.

وربما كان للتسمية سبب آخر يدخل في إطار وظيفة المسجد (الجامع) في الإسلام، فإلى جانب العبادة، كانت المساجد في صدر الإسلام وظائف أخرى من التعليم والمجالسات وإقامة الحدود والتأديب. وتذكر المصادر، أن صحن المسجد الأموي في دمشق ضم عامودان كانا يستعملان في تكبيل الجناة وربط وثاقهم، أو ربما أخذت قبة السلسلة أسمها من وظيفة تأديبية كانت تؤديها.

انظر:

لسترانج، غي، فلسطين في العهد الإسلامي، الثقافة، ص ١٣٩.

٤٦- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٢١.

٤٧- محي الدين أبو الفضل عبدالله بن عبدالظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، نشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م، ص ٨٩.

٤٨- المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٩٩.

٤٩- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٢٩٠.

٥٠- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٥٨.

٥١- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٣٨،

٥٢- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٨٧.

٥٣- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج ٥، ص ٨٩-

٥٤- عارف العارف، تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م، ص ٩٠-٩١.

٥٥- المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٨٣.

٥٦- المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٠٨.

٥٧- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٣٦.

٥٨- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٨.

٥٩- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦١٩.

٦٠- المقريزي، السلوك ج٢، ص ١٤٣.

٦١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨٠.

٦٢- القلقشندي، المصدر السابق، ج١٦، ص ٦.

٦٣- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٠٤.

٦٤- المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٦٠.

٦٥- شمس الدين أبو عبدالله محمد ابن أبي طالب الدمشقي (المعروف بشيخ الربوة)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع ليبزج، ١٩٢٣م، ص ٢٠١.

٦٦- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٥٨.

٦٧- تقي الدين أبو بكر بن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق، ١٩٧٧م، ص ٥١٣.

٦٨- علي بن داود إبراهيم بن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي (١-٢)، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧١م، ج١، ص ٣٨٧.

٦٩- شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، (١-٢)، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧١م، ج١، ص ١٠٧-

٧٠- القلقشندي، صبح الأعشي، ج٧، ص ١٧٠.

٧١- القلقشندي، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٠٥-

٧٢- المقريزي، السلوك، ج٣، ص ١٠٨-

٧٣- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، من ٥٣-

٧٤- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٤٤٠-

٧٥- المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٥٨٤.

٧٦- Van Brechem, Max, Materiaux Pour un Corpus inscriptionum Arabicarum, Vol. 43, Cairo, 1922, P. 110.

٧٧- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦١١.

٧٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩٧، و ج١٢، ص ١٠٤.

٧٩- ابن فضل الله العمري، مسالك الأخبار، ج٣، ص ١٤٤.

٨٠- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٢٢٩-٢٣٢.

٨١- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٦٠٨.

٨٢- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤١.

٨٣- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٤١.

٨٤- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦١٠.

٨٥- ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٣.

٨٦- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٨٣.

٨٧- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٠٥.

٨٨- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٧.

٨٩- Newett, M., Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Manchester University, Press, 1907, P. 251.

٩٠- محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (١-٤)، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٧٢م، ج٤، ص ٤١٣

٩١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩٩.

٩٢- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٠٥.

٩٣- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩٩.

٩٤- القلقشندي، المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٢٥-٢٢٦.

٩٥- القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص١١٩.

٩٦- تاج الدين عبدالوهاب السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٤٣.

٩٧- السبكي، المصدر السابق، ص ٤٤.

٩٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٣٣٠.

٩٩- القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٩.

١٠٠- القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٠.

١٠١- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٦١٦.

١٠٢- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦١٦.

١٠٣- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦١٧.

١٠٤- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٥، ص١٠٠، وص ١٩٧.

١٠٥- Newett, M., Casola's Pilgrimage to Jerusalem, P. 228.

١٠٦- Felix Fabri, The book of the wanderings of Brother Felix Fabri, (1-2), trans. by Aubery stewart, in (P. P.T.S), Vol. 3, London, 1892, p. 103.

١٠٧- محمد بن محمد بن أحمد بن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

١٠٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٦٠.

١٠٩- ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٩٧-٩٨.

١١٠- المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر مصطفى زيادة وجمال الدين الشيَّال، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٢٨.

١١١- ابن الأخوة، معالم الغربة، ص ١٤٧.

١١٢- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٦٠-٦١.

١١٣- مجيد الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٨٧.

١١٤- ابن حجر العسقلاني، أنباء القمر، ج٢، ص ٣٦٠.

١١٥- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨٧.

١١٦- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٧.

١١٧- القلقشندي، المصدر السابق، ج١٢، ص٨.

١١٨- القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٦٦.

١١٩- القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٧.

١٢٠- القلقشندي، المصدر نفسه، ج١٢، ص ٣٣٩.

١٢١- Newett, Casola's Pilgrimage, P. 249.

١٢٢- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٤٧.

١٢٣- المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٤٨٠.

١٢٤- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج١، ص ٢٥٦.

١٢٥- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٥٧.

١٢٦- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٧.

١٢٧- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٧٤.

١٢٨- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج١، ص ٥٤.

١٢٩- المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٦٩٥.

١٣٠- المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٩٦.

١٣١- أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٦٢.

١٣٢- Goitein, S.D., “The social and religious history of the Jews”, speculum, Vol. 36, 1961, P.P. 935-956.

١٣٣- ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٣١٢ هـ، ص ١٠٨.

١٣٤- شمس الدين محمد بن عبدالرحيم السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ٢٠٨.

١٣٥- ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، (١-٤)، نشر وليم بوير، كاليفورنيا، ١٩٣٠-١٩٤٢م، ج٢، ص١٠.

١٣٦- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٧٩-٤٨٢.

١٣٧- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٥، ص ٩٢.

١٣٨- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٨٣.

١٣٩- المقريزي، السلوك، ج٤، ص ١٤١.

١٤٠- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٧١.

١٤١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ١٠٥.

١٤٢- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٦٦٦.

١٤٣- ابن شاهين، زبدة كشف الممالك ص٢٣.

١٤٤- عبدالغني النابلسي، الحضرة الأنيسية في الرحلة القدسية، القاهرة، ١٩٠٢م، ص ١٩.

١٤٥- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج١، ص ٢٨٠ وما بعدها.

١٤٦- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٢٦.

١٤٧- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٢٣.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية والاقتصادية
في بيت المقدس في العصر المملوكي

ازدهرت الحياة الاجتماعية في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك وخاصة العصر المملوكي الأول، وسكن المدينة كثير من العناصر السكانية من المسلمين والنصارى واليهود. ومن ناحية أخرى، وضح ازدهار الحياة الاقتصادية نتيجة انتعاش التجارة والصناعات المحلية، إلى جانب ازدهار الحج الأوربي إلى المدينة المقدسة. ورغم الأزمات الاقتصادية التي سادت في الدولة المملوكية منذ بدايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، إلا أن السلاطين، ومن خلال سياستهم الدينية تجاه بيت المقدس، حرصوا على رفع المظالم والمكوس عن أهالي المدينة والتخفيف عنهم.

الحياة الاجتماعية:

التطور السكاني في بيت المقدس:

حدث تطور سكاني واضح في مدينة بيت المقدس في العصر المملوكي الأول، لكن العصر المملوكي الثاني بدأ يشهد انخفاضاً في عدد سكان المدينة. وقد تضافرت عدة عوامل لتجعل ازدهار التطور السكاني ممكناً خلال العصر المملوكي الأول، وأهمها: الاستقرار السياسي الذي نعمت به بيت المقدس نتيجة دخولها تحت حكم سلاطين المماليك البحرية، كما أن العوامل السياسية المحيطة ببلاد الشام وفلسطين كانت ذات أثر كبير في تطور سكان المدينة.

وتعتبر الهجرة من العراق، وبعض الأقاليم الإسلامية الأخرى، إلى بيت المقدس من العوامل الرئيسة التي ساعدت على زيادة سكان المدينة – تلك الهجرات التي نجمت عن المذابح الرئيسة التي ارتكبها المغول في العراق وغيره من البلاد التي اجتاحوها – كما أن الهجرات أيضاً كانت لطلب العلم في المدينة. ولم تكن الهجرة إلى بيت المقدس مقصورة على أهل المشرق الإسلامي، وإنما امتدت لتشمل المغاربة الذين وفدوا إلى المدينة عقب استرداد صلاح الدين لها من الفرنجة (الصليبيين). وخلال العصر المملوكي الأول استمرت هجرة المغاربة إلى بيت المقدس وغيرها من المدن الشامية نتيجة الضغوط التي كان يعاني منها المسلمون في ظل توحد النصارى في الأندلس وإصرارهم على طرد المسلمين فيما عرف بحروب " الاسترداد " (Reconquista)[١].

وبالإضافة لعامل الهجرة، فقد كان هناك سبب آخر أدى لزيادة سكان بيت المقدس في العصر المملوكي الأول، وتمثل هذا العامل في تطور الأحوال الصحية العامة في بلاد الشام وفلسطين عامة، وفي مدينة بيت المقدس خاصة. فالمصادر العربية لم تذكر سوى حالتين، في سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م، و٦٧٣هـ/ ١٢٧٤ م، انتشرت فيهما الأمراض والأوبئة في بلاد الشام وفلسطين خلال العصر المملوكي الأول الذي امتد لحوالي قرن ونصف[٢].

كذلك نعمت بلاد الشام وفلسطين بوجه عام، وبيت المقدس بوجه خاص، بالاستقرار الاقتصادي والذي غالباً ما يلعب دوراً هاماً في تزايد السكان. ففي العصر المملوكي الأول لم يحدث ما يسبب ارتفاع أسعار السلع الضرورية، كالقمح والطحين وغيرهما، كما أن المعاملات المالية ظلت مستقرة تقريباً لثبات أوزان ونقاء الدينار والدرهم المملوكي[٣].

إلا أننا نقرأ في المصادر العربية، وفي كتابات بعض الرحالة الأوربيين، ممن زاروا بيت المقدس ابتداءً من منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، أن عدد سكان بيت المدينة بدأ في النقصان. وقد سجل بعض الرحالة، ومنهم فيلكس فابري (Felix Fabri)، الذي زار بيت المقدس مرتين سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، وسنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، أن عدد سكان المدينة كان قليلاً بشكل يلفت

الأنظار، وأن بيوت بعض أحيائها كانت شبه خاوية[٤]. ويؤكد رحالة يهودي زار بيت المقدس سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م، واسمه عويديا، ما ذكره فيلكس فابري، إذ يشير إلى أن بيت المقدس في معظم أجزائها مهجورة وعدد سكانها لا يتجاوز حوالي أربعة آلاف أسرة[٥]. وحين زار الرحالة الإيطالي كازولا (Casola) بيت المقدس سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، استرعى انتباهه قلة سكانها[٦].

وفي الحقيقة، فإن انخفاض عدد سكان بيت المقدس بدأ منذ بدايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي نتيجة عدة عوامل متداخلة ومتشابكة. فقد كان لانتشار الأوبئة في بلاد الشام وفلسطين عامة، وخاصة وباء الطاعون، أكبر الأثر في نقص عدد السكان. والمصادر العربية التاريخية تحدثنا عن "الفناء الكبير"، أو " الموت الأسود (Black Death) كما تسميه المصادر الفرنجية، الذي حدث سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م واستمر حتى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، وكان سبباً في هلاك أعداد كبيرة من سكان بلاد الشام[٧]. وتذكر المصادر العربية أن بيت المقدس عانت كثيراً من " الفناء الكبير "، وامتلأت طرقاتها ومساجدها بجثث الضحايا.

وبعد " الفناء الكبير " تعرضت بيت المقدس خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، لعدة أوبئة كان لها تأثيراتها السلبية على البيئة السكانية فيها. ويذكر مجير الدين الحنبلي خبر الطاعون الذي انتشر في المدينة سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م: (وأفنى خلقاً من الشباب والنساء وأهل الذمة ... ولم يكن طال ببلد أكثر من بيت المقدس)[٨]. كذلك يؤكد لنا الأب فرانسيسكو سوريانو (Francesco Souriano)، الذي عاش في بيت المقدس زمناً طويلاً كرئيس لطائفة الرهبان الفرنسيسكان (Franciscans)، أن وباء الطاعون كان يتكرر حدوثه في المدينة كل عشر سنوات تقريباً[٩].

وبالإضافة للأوبئة، لعبت الزلازل دوراً كبيراً في هلاك عدد كبير من سكان بيت المقدس، ومنها الزلزال الذي ضرب المدينة سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م: (ولم يترك بيتاً علوياً فيها إلا هدمه)[١٠].

ومن العوامل التي ساعدت على التدهور السكاني في بيت المقدس في العصر المملوكي الثاني، سوء الأحوال الاقتصادية الذي عمّ دولة المماليك منذ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وما نجم عنه من اضطرابات اجتماعية وسياسية. ويحدثنا المقريزي عن سوء الأحوال في المدينة في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م، فيقول: (أجدبت أرض بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة، لعدم نزول المطر في أوانه، ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم)[١١].

وأضافت هجمات المغول عاملاً مهماً أسهم في استمرار انخفاض عدد سكان بيت المقدس في تلك الفترة. ويذكر المؤرخ المملوكي ابن إياس أن غزو تيمور لنك (Timurlane) المغولي لبلاد الشام سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٢م، تسبب في هجرة كثير من سكان بيت المقدس إلى المدن الشامية الساحلية وإلى مصر[١٢]. وتسبب تكرار الغزوات المغولية على بلاد الشام وفلسطين في حالة من الانفلات الأمني في الأرياف والمدن، وفتح الباب للعربان والبدو للعيث فساداً في المنطقة مما زاد الأوضاع سوءاً على سوء. ويؤكد مجير الدين الحنبلي أثر غارات العربان والبدو على بيت المقدس وكيف أدت لهجرة الكثير من سكانها[١٣].



سكان بيت المقدس في العصر المملوكي

ظل يسكن بيت المقدس طوال العصر المملوكي أتباع الديانات السماوية الثلاثة من مسلمين، ونصارى ويهود. ولا نجد في المصادر التي بين أيدينا ما يساعد على بيان أعداد كل منهم أو نسبتهم من إجمالي عدد سكان المدينة. وفي الحقيقة، ظل المسلمون يكونون غالبية السكان في المدينة وتكونوا من أجناس وفئات عديدة أهمها: المماليك، والعرب، والمغاربة، والأكراد، والتركمان والهنود وغيرهم. أما النصارى في بيت المقدس، فمن الضروري النظر إليهم في ضوء التقسيمات الدينية والطائفية مثل: الروم الأرثوذكس، والأرمن، والكرج، والأقباط والأحباش، والروم الكاثوليك، والفرنسيسكان وغيرهم وشكل اليهود خلال العصر المملوكي أقل نسبة من سكان بيت المقدس مقارنة بالمسلمين والنصارى.

أولاً: المسلمون:

شمل القطاع الإسلامي من سكان بيت المقدس العديد ممن يمكن أن نسميهم تجاوزاً " عناصر سكانية "، مثل: المماليك، والعرب، والمغاربة وغيرهم.

ويأتي المماليك على رأس القطاع الإسلامي في المدينة في العصر المملوكي باعتبار أنهم شكلوا الطبقة العسكرية الحاكمة. وكان المماليك من جنسيات مختلفة وإن كان معظمهم من الأتراك والجراكسة. ونسبة لتطبيق نظام الإقطاع العسكري، فقد قسمت الأرض بين أمراء المماليك وقادتهم ليجنوا منها نفقاتهم كل حسب مرتبته، ومكانته، وعدد مماليكه التابعين له. وقد هيمن المماليك على الحياة الاقتصادية في بيت المقدس.

وطوال العصر المملوكي ظلت أعداد المماليك في بيت المقدس في ازدياد نتيجة حرص السلاطين على شراء المزيد منهم، إضافة إلى أن من كان ينفى منهم لأسباب سياسية كان غالباً ما يذهب ليعيش في بيت المقدس. ونجد في المصادر العربية، وخاصة ابن تغري بردي، والمقريزي، وابن إياس، وابن حجر، إشارات عديدة لشخصيات من المماليك ممن تم نفيهم إلى المدينة. وكان من ينفى يصطحب معه

أتباعه وأفراد أسرته إلى بيت المقدس. ويتضح مما ذكره ابن إياس أنه خلال السنوات ٧٦٢-٨٥٢هـ/ ١٣٦٠-١٤٤٨م، نفى إلى بيت المقدس أكثر من مائة من كبار قواد المماليك لأسباب سياسية ونتيجة للصراعات التي كانت تحدث في مصر وبلاد الشام بين السلاطين وأولئك القواد[١٤].

ونجد في المصادر العربية ما يشير إلى أن الأمراء المماليك الذين كانوا ينفون إلى بيت المقدس لأسباب سياسية كان الواحد منهم يسمى بطالاً. كذلك يؤكد لنا ابن شاهين أن بعض الأمراء المماليك فضلوا الإقامة ببيت المقدس وكان منهم من تفرغ للعبادة وعاش مجاوراً بالمدينة[١٥]. هذا بالإضافة إلى ما يرويه كثير من المؤرخين المعاصرين، من أمثال ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)، في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م إذ يذكر بأن السلطان الظاهر برقوق في سلطنته الثانية، قرر تولية الأمير شيخ العفوي نيابة غزة، إلا أن: (الأمير شيخ سأل السلطان أن يعفيه من نيابة غزة وأن يقيم بالقدس، فأجابه السلطان إلى سؤاله ورسم له بضياع من نصف بيت لحم ونصف بيت جالة ... فتوجه إلى القدس)[١٦].

وإلى جانب المماليك الأتراك، كونت القبائل العربية عنصراً مهماً من سكان بيت المقدس من المسلمين. ويرد اسم القبائل العربية في كثير من المصادر تحت اسم " العشير " أو " العرب ". وفي الواقع، فإن استيطان القبائل العربية في بيت المقدس يرجع إلى الفتح العمري في بدايات القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. ومنذ العهد الأيوبي، وخلال العصر المملوكي، استوطن بيت المقدس قبائل عربية يمكن إرجاع أصولها إلى ثلاثة بطون رئيسية هم:

١. بنو عمر: ويقال لهم العمريون، نسبة إلى عمر بن الخطّاب، وسكنوا في الجزء الشمالي من بيت المقدس، في حي خاص بهم، بالقرب من باب الأسباط[١٧]. كما تشير المصادر إلى وجودهم أيضاً في عدة قرى تابعة لبيت المقدس.
٢. بنوجرم: وهم من العرب القحطانية، وقد تفرع عنهم بطون كثيرة مثل: بنو غانم والعبادلة، وبنو قدامة، وبنو عوف وغيرهم. وسكن أغلبهم بيت المقدس، مثل بنو غانم الذين سكنوا المنطقة التي تعرف بوادي

الطواحين، ولهم بها حارة تسمى " حارة الغوانمة "، مجاورة للمسجد الأقصى من جهة الغرب[١٨].

٣. الجعافرة: وهم بطن من بني هاشم ينتسبون إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر (ت ١٤٨هـ/ ٧٦٥م)، وقد استوطنت فرقة منهم بيت المقدس كما يذكر القلقشندي[١٩].

وقد تكيف " العربان " مع الظروف الطبيعية في مدينة بيت المقدس فكانوا يتكاثرون في المناطق القريبة من الصحراء في فصل الشتاء، حيث تكثر المراعي. أما في فصل الصيف فإنهم ينتقلون للعيش حول المرتفعات المحيطة بالمدينة، هرباً من حرارة الصيف، ولكثرة الأعشاب والمياه في تلك المناطق[٢٠].

وقد أشار بعض الرحالة والحجاج الأوربيين الذين زاروا بيت المقدس خلال العصر المملوكي إلى حياة " العربان ". فقد وصفهم الأب سوريانو بقوله: (وهم يضعون غطاء للرأس ويلبسون جلباباً بدون قميص، كما يشعرون بالخزي من حملهم الأقواس والنبال، ولكنهم يستخدمون فقط الرماح والسيوف، كما أنهم يعيشون متنقلين هنا وهناك على ما يقومون به من غارات، ويرعون الحيوانات من أجل ألبانها ولحومها)[٢١].

وتتفق المصادر العربية على أن " العربان " ظلوا مصدراً للاضطرابات في بيت المقدس والمناطق المتاخمة لها فكانوا يكثرون من الغارات والسلب والنهب لتحسين أحوالهم الاقتصادية. فالمقريزي يذكر في حوادث سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٥م: (وفيها انتشر الغلاء وارتفعت الأسعار في المناطق المجاورة للقدس، فقام البدو بغارات شديدة على مدينة القدس ذاتها، وأحدثوا فيها من النهب والسلب شيئاً كثيراً)[٢٢].

واستمرت فتن " العربان " في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حين ساءت أحوال الدولة المملوكية الاقتصادية عموماً، فبدأوا يغيرون على الحجاج الأوربيين ويقطعون الطريق البري من يافا إلى بيت المقدس كما تذكر كتب الرحالة. ومن الشواهد على ذلك ما ذكره فيلكس فابري من أن البدو كانوا يتجمعون بأعداد كبيرة لمهاجمة الحجاج الأوربيين على طول الطريق البري بين يافا والقدس مما جعل السلطات المملوكية تخصص حراساً من المماليك لحراسة الحجاج وتأمين وصولهم إلى بيت المقدس[٢٣].

ويبدو أنه قد حدث نوع من التغيير في حياة العربان في نهايات الدولة المملوكية إذ تشير كتابات بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا بيت المقدس، إلى أن هؤلاء البدو أصبحوا يقومون بخدمة وإرشاد الحجاج الأوربيين وتقديم المساعدات لهم نظير مبالغ تدفع لرؤسائهم[٢٤]. ويرى بعض الدارسين أن القبائل العربية التي كانت مستوطنة بيت المقدس وما حولها، أخذت تتحول تدريجياً منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إلى مجموعات زراعية مستقرة، ولا سيما في القرى المحيطة ببيت المقدس، كما أن شيوخهم أصبحت تناط بهم مهام حفظ الأمن والنظام في المناطق التي سكنوها[٢٥].

ومن العناصر العربية التي استقرت ببيت المقدس وكونت جزءً مهماً من سكانها المغاربة، الذين استوطنوا المدينة عقب استرداد صلاح الدين لها من الفرنجة (الصليبيين). وحظي المغاربة منذ أيام صلاح الدين بامتيازات كثيرة أهمها، كما يذكر الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، أن صلاح الدين: (جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم)[٢٦]. وفي هذا إشارة واضحة إلى أن صلاح الدين سمح لهم بإقامة شعائرهم على المذهب المالكي السائد بينهم. وعقب وفاة صلاح الدين، قام ابنه الأفضل ببناء حارة للمغاربة نسبت إليهم، وأقام لهم بها زاوية عُرفت باسمهم. ويذكر ابن فضل الله العمري بأن الأفضل بن صلاح الدين بنى لهم جامعاً خصص لصلواتهم داخل المسجد الأقصى عُرف باسم " جامع المغاربة"[٢٧].

وقد زادت الهجرة المغاربية إلى بيت المقدس نتيجة الضغوط الهائلة التي وضعها النصارى في الأندلس على المسلمين هناك وفي شمال أفريقيا عموماً أثناء حركة الاسترداد (Reconquista) كما ذكرنا سابقاً. وقد حفظت لنا كتب التراجم والمصادر التاريخية العربية أسماء مئات من رجال العلم والدين والأدب الذين نزحوا من المغرب إلى المشرق الإسلامي عامة، وإلى بيت المقدس بوجه خاص. وقد اشتهر بعض العلماء والفقهاء المغاربة في بيت المقدس خلال العصر المملوكي وتولوا كثيراً من المناصب الهامة في المدينة، كالقضاء، ومشيخة زاوية المغاربة، وإمامة المالكية بالمسجد الأقصى وغيرها[٢٨].

وتعتبر طائفة الأشراف من أهم فئات القطاع الإسلامي في بيت المقدس في العصر المملوكي. وقد أورد مجير الدين الحنبلي أن الأشراف سكنوا بيت المقدس وبظاهرها في وادي النسور، وظلوا يكونون فئة متميزة بين الناس. ويضيف الحنبلي أن هؤلاء الأشراف كانوا من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، وكانت لهم في بيت المقدس زاوية يقيمون بها، ويزورهم الناس للتبرك بهم[٢٩]. ورغم أن الحنبلي لم يذكر عدد الأشراف في بيت المقدس، إلا أنه يورد أن نائب السلطنة في بلاد الشام أوقف عليهم قرية شرفات، القريبة من بيت المقدس، لما ضاق بهم وادي النسور.

وحتى عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون، لم يكن للأشراف ما يميزهم عن غيرهم من سكان بيت المقدس في الملبس أو غيره، إلا أنه في سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م، أمر السلطان الأشرف شعبان: (أن الأشراف بالديار المصرية والبلاد الشامية كلهم يسمون عمائمهم بعلامة خضراء بارزة، الخاصة منهم والعامة، إجلالاً لحقهم وتعظيماً لقدرهم ليقابلوا بالقبول والإقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين)[٣٠].

وكانت سياسة السلاطين المماليك تجاه الأشراف تقوم على التقرب إليهم، وتقليدهم بعض المناصب الهامة في بيت المقدس. ومن الشواهد على ذلك ما أورده ابن الصيرفي (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) في معرض حديثه عن حوادث سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، أن السلطان الظاهر برقوق في سلطنته الثانية: (خلع على السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن غياث الدين بن صدر الدين حمزة الحسيني واستقر في نظر القدس والخليل)[٣١].

ومن بين الأقليات الإسلامية التي ظلت تسكن بيت المقدس خلال العصر المملوكي، الهنود، والأكراد والتركمان. وكان الهنود يسكنون حياً صغيراً في بيت المقدس، ولهم زاوية، سميت باسمهم، كانت تقع إلى جوار باب السامرة في المدينة. وفي أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، بدأنا نسمع ببعض الفقهاء والعلماء الهنود في بيت المقدس من أمثال الشيخ عبدالله الهندي الذي أورد مجير الدين الحنبلي في شأنه: (الشيخ الصالح عبدالله الهندي من الأولياء المشهورين عاش بالقدس الشريف زمناً وبها توفى ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة)[٣٢].

أما الأكراد، فكونوا أقلية إسلامية في بيت المقدس منذ أيام صلاح الدين، ولم ينقطع تدفق الأكراد إلى المدينة في العصر المملوكي الأول. ويذكر مجير الدين الحنبلي أن بعضهم كانوا من العلماء ممن كانوا: (من أهل الفضل ومن الفقهاء بالمدرسة الصلاحية)[٣٣]. ويرى بعض الدارسين أن الأكراد كان لهم في بيت المقدس حي خاص بهم يسكنونه منفصلين عن غيرهم من السكان في العصر المملوكي الثاني[٣٤]. والواقع، فإن سياسة السلاطين كانت تقوم على تشجيع الأكراد، وهم من العناصر المشهورة بالشجاعة والكفاءة القتالية، للاستيطان في بيت المقدس بهدف الدفاع عنها في احتمال الهجوم عليها.

أما التركمان، فيبدو من المصادر العربية، أنهم كانوا أقلية صغيرة بين السكان المسلمين في بيت المقدس. والواقع، فإن المصادر أشارت إليهم إشارات قليلة جداً مقارنة مع الفئات السكانية الأخرى ولم يذكر مجير الدين الحنبلي سوى عدد ضئيل منهم في عهد سلاطين المماليك[٣٥].

ثانياً: المسيحيون في بيت المقدس في العصر المملوكي:

نسبة لقدسية بيت المقدس عند النصارى، فقد حرص بعضهم على سكناها والاستقرار فيها. وفي الحقيقة، فعند استرداد صلاح الدين للمدينة من الفرنجة (الصليبيين)، طلب منه النصارى المحليين أن يسكنوا المدينة مقابل دفع الجزية فسمح لهم[٣٦]. وانقسم النصارى إلى طائفتين كبيرتين هما:

الأرثوذكس والكاثوليك، وضمت كل طائفة عدداً من التقسيمات الفرعية.

وازداد عدد المسيحيين في بيت المقدس طوال العصر المملوكي الأول نتيجة سياسة التسامح الديني التي نعموا بها من السلاطين[٣٧]. ولا تذكر المصادر العربية نسبة المسيحيين من إجمالي سكان المدينة، لكن الثابت أن النصارى المحليين كانوا يشكلون أغلبية سكان القرى المحيطة ببيت المقدس مثل: بيت جالا، وبيت لحم وغيرها من القرى التي كانت تابعة إدارياً للقدس[٣٨]. كذلك كان النصارى يشكلون الأكثرية المطلقة لبعض ضواحي بيت المقدس، مثل جبل صهيون، الذي وصفه الرحالة فيلكس فابري بأنه: (سكن المسيحيين فقط وليس به مسلم أو يهودي)[٣٩]. ورغم ما ذكره فابري، وغيره من الرحالة الذين زاروا بيت المقدس في

العصر المملوكي الثاني، من انتشار الأوبئة وانخفاض سكان المدينة إلا أننا نرجح بأن هذه العوامل لم تكن تؤثر في أعداد النصارى بدرجة كبيرة. والواقع، فإننا نرى بأن نسبة السكان النصارى المحليين ظلت واضحة في بيت المقدس، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن المصادر العربية أو الإفرنجية لم تشر إلى حدوث هجرات واسعة لهم من المدينة المقدسة.

ويمكن أن ندلل على أهمية كل مجموعة من المجموعات المسيحية في بيت المقدس بعدد الكنائس والأديرة والمنشآت الدينية والاجتماعية التي كانت تملكها. وفي تقديرنا، كانت طائفة الروم الأرثوذكس أكبر الطوائف المسيحية إذ امتلكت في بيت المقدس أربع كنائس رئيسة وخمسة عشر ديراً كبيراً، وهي نسبة كبيرة من المنشآت الدينية في المدينة[٤٠]. والواقع، فإن المسيحيين من طائفة الروم الأرثوذكس كانوا ينحدرون من أصول عربية ولهم بطريك يرعى شؤونهم الدينية[٤١].

ومن الطوائف المسيحية في بيت المقدس في العصر المملوكي: السريان، والأرمن، والكرج، (وهم الذين كانوا يسكنون أقليم القوقاز الحالي)، والأقباط، والأحباش وكلهم من الأرثوذكس. ولا نجد في المصادر العربية أو الأجنبية أعداد كل منهم في العصر المملوكي، ولكن إذا أخذنا عدد المنشآت الدينية، من كنائس وأديرة وغيرها، كمؤشر، يمكن القول بأن السريان والأرمن كانوا يأتون في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الروم الأرثوذكس. ثم يأتي الكرج والأقباط في المرتبة التي تلي، وأخيراً يأتي الأحباش. ويرجح بأن أعداد الأرمن في بيت المقدس أخذت في النقصان بعد طرد الفرنجة (الصليبيين) نهائياً من بلاد الشام في نهايات القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي نتيجة المضايقات التي تعرضوا لها من السلاطين المماليك بحسبان أنهم حلفاء للفرنج والمغول في المشرق الإسلامي[٤٢]. ويرى بعض الدارسين أن الأقباط كانوا أقل الطوائف المسيحية الأرثوذكسية عدداً في بيت المقدس بدليل أن مكانهم في كنيسة القيامة كان يخلو منهم بسبب تغيبهم، وسفرهم إلى القاهرة.

ورغم قلة أعداد الأحباش الأرثوذكس في بيت المقدس في العصر المملوكي، إلا أن المصادر العربية وكتابات الرحالة تزودنا بمعلومات شيقة عن عاداتهم الاجتماعية

والدينية. والراجح أن الأحباش، منذ أن تنصروا في القرن الرابع الميلادي، حكمتهم دولة أكسوم (Axum) النصرانية التي أولت بناء الكنائس اهتماماً خاصاً في اثيوبيا، وشجعت زيارة بيت المقدس للتكفير عن بعض الذنوب الصغيرة. وقد استقر في بيت المقدس عدد من الأحباش، وأصبح لهم في المدينة كنائس وأديرة، مثل دير الحبش الملاصق لكنيسة القيامة(٤٣).

ولم تشر المصادر إلى عدد الأحباش في بيت المقدس بصورة دقيقة، وإنما اكتفت بإشارات عامة. فالرحالة فيلكس فابري ذكر أن كثيراً من الأحباش كانوا يقيمون في بيت المقدس وفي المناطق المجاورة لها(٤٤)، إلا أن المؤرخ ابن طولون (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) يورد في معرض حديثه عن سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م، وهي تقريباً نفس المدة التي كان فيها فابري في بيت المقدس، أن:(جماعة من نصارى الحبش نحو ثلاثة آلاف نفس دخلوا القدس لزيارة كنيسة القيامة)(٤٥). ولعل فابري توهم أن هذا العدد الكبير من الأحباش الزائرين هم من سكان بيت المقدس أصلاً. أما مجير الدين الحنبلي، فيذكر أن عدد الأحباش في بيت المقدس في نهايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، كان ضئيلاً بسبب أن وباء الطاعون الذي ضرب المدينة سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م: (أفنى طائفة الهنود عن آخرهم وكذلك الحبش)(٤٦).

ونفهم من بعض المصادر العربية أن الأحباش في بيت المقدس تمتعوا ببعض الامتيازات في عصر الدولة المملوكية، مثل الإعفاء من دفع الجزية ومن كل الضرائب الأخرى(٤٧). والواقع، فإن أوضاع الأحباش في بيت المقدس كانت تتأثر بالعلاقات بين السلاطين المماليك وملوك الأسرة السليمانية (Solomonic Dynasty)، التي تدعي النسبة إلى سيدنا سليمان – عليه السلام -، والتي حكمت الحبشة منذ نهايات القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي(٤٨).

طائفة الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس:

ظهرت طائفة الرهبان الفرنسيسكان على يد مؤسسها فرنسيس الأسيسي الإيطالي (Francis of Assisi) الذي عاش في نهاية القرن الثاني عشر وبدايات القرن الثالث عشر الميلاديين. والراجح أن بعض أعضاء هذه الطائفة عاشوا في بيت المقدس

بعد فترة وجيزة من نشأة تنظيمهم. وكان البابا جريجوري السابع (Gregory VII) قد عهد إليهم بخدمة كنيسة القيامة سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٦م، كما أضيف إلى مهامهم حراسة الأماكن الدينية اللاتينية (الكاثوليكية) المقدسة في بيت المقدس لاحقاً.

وظل الرهبان الفرنسيسكان يسكنون في مقر متواضع فوق جبل صهيون حيث انقطعوا أغلب الأوقات للرهبنة والعبادة وحراسة الأماكن المسيحية المقدسة القائمة فوق الجبل. ويرى بعض الدارسين أنه في سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، أتيحت للفرنسيسكان فرصة توسيع مقرهم فوق جبل صهيون وبناء دير صهيون الذي ضم علية صهيون وكنيستها إضافة إلى الأماكن المسيحية المجاورة لها فوق الجبل[٤٩].

ومن المرجح أن أعداد الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس كانت قليلة مقارنة بغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى. ويذكر الأب سوريانو أن عدد الرهبان في جبل صهيون كان حوالي أربعين راهباً، وإحدى عشرة راهبة[٥٠]، كما كان يوجد بكنيسة القيامة اثنان من الرهبان أيضاً. ورغم قلة عددهم، حظى الرهبان الفرنسيسكان بحماية السلاطين المماليك وحماية من ينزل في ضيافتهم، إذ كان يقيم معهم في دير صهيون اثنا عشر مملوكاً بصفة دائمة لحمايتهم[٥١]. وظل هؤلاء الرهبان يعيشون في البداية عيشة فقيرة تتسم بالبؤس حيث اعتمدوا في طعامهم وثيابهم على إحسان النصارى الذين يزورون بيت المقدس. إلا أنهم حين بدأوا أعمال التبشير بين السكان المحليين في فلسطين، بدأت تنال عليهم التبرعات السخية من المؤسسات الكنسية.

وتذكر كتابات الرحالة الأوربيين أن الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس كانوا يقومون منذ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي على خدمة الحجاج المسيحيين الغربيين. ويذكر الأب سوريانو أن الحجاج المسيحيين الغربيين لم يكن في استطاعتهم مبارحة السفن المقلة لهم إلى ميناء يافا إلا بعد: (حضور أمير الرملة ونائب السلطنة بالقدس ورئيس دير صهيون، حيث كان الأخير بمثابة الكفيل لهؤلاء الحجاج، فضلاً عن كونه المرشد لهم في الطريق البري من يافا إلى القدس)[٥٢].

وتزايد دور الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس منذ أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فأصبحت ترد إليهم مبالغ طائلة عن طريق التجار

الأوربيين في موانئ بلاد الشام ومصر. ويذكر أحد الرحالة الأوربيين، الذي زار بيت المقدس سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، أن هؤلاء الرهبان أصبحوا يحصلون من كل سفينة عند إبحارها مبلغاً كبيراً من المال. ويبدو أن الأموال الضخمة التي تكدست عند الرهبان الفرنسيسكان كانت عاملاً مؤثراً في تغيير حياتهم ودورهم في بيت المقدس، فقاموا بشراء الأراضي المحيطة بدير صهيون، كما أسسوا كنائس وأديرة جديدة ومستشفى لعلاج الحجاج الغرباء[٥٣]. وبرز دور الرهبان الفرنسيسكان أيضاً في مجال التبشير مستغلين تدهور الأحوال السياسية والاقتصادية في نهايات العصر المملوكي.

ثالثاً : اليهود في بيت المقدس في العصر المملوكي:

من الثابت تاريخياً أن الفرنجة (الصليبيين) عندما احتلوا بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، قتلوا جميع من كانوا فيها من اليهود. ولما زار الرحالة بنيامين التطيلي (Benjamin of Tudelo) بيت المقدس سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، لم يجد بها سوى حوالي مائتين من اليهود يسكنون تحت برج داؤود[٥٤].

وبعد استرداد صلاح الدين لبيت المقدس من الفرنجة (الصليبيين)، سمح لليهود بسكنى المدينة، فبدأوا بالتدفق إليها، سواء من المدن الشامية أو من بلدان أوربا. وفي خلال سنوات قليلة من حكم صلاح الدين، أُعيد المجتمع اليهودي في بيت المقدس[٥٥]. وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، واصل حكام البيت الأيوبي معاملة اليهود معاملة حسنة، وسمحوا لهم ببناء المدارس ودور العبادة اليهودية.

كانت سياسة السلاطين المماليك تجاه اليهود تتسم في ظاهرها بالتسامح، فسمحوا لهم بالسكن ببيت المقدس وغيرها من المدن الفلسطينية، ولم يمانعوا في بناء المدارس ودور العبادة اليهودية. ففي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م، تذكر بعض المصادر أن الرابي (Rabbi) اليهودي موشي بن نحمان استقر في بيت المقدس حيث بنى كنيساً حمل اسمه[٥٦]. وفي الحقيقة، فإننا لا نجد ذكراً لعدد كبير من اليهود في بيت المقدس إلا في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. فالرحالة فيلكس فابري ذكر أن عدد اليهود ببيت المقدس كان أكثر من خمسمائة[٥٧]، كما ذكر الرحالة اليهودي عويديا، الذي زار المدينة سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م، أنه

يسكن المدينة حوالي مائة عائلة يهودية تمارس شعائرها الدينية في كنيس ملاصق لمسجد المسلمين(٥٨). ويرجع بأن السبب وراء قلة أعداد اليهود في بيت المقدس في عصر دولة سلاطين المماليك الثانية (البحرية) يرجع إلى كثرة الأوبئة، وخاصة الطواعين، التي ضربت المدينة. ويعزي أحمد دراج السبب وراء قلة اليهود بالقدس في ذلك الوقت إلى أنه كان تجبى منهم جزية الرؤوس بطريقة جماعية، وكانت محددة بمبلغ ٤٠٠ دينار سنوياً، مما كان السبب في هجرتهم من المدينة. ولم يتم جباية الجزية بطريقة فردية إلا في عهد السلطان جقمق مما أدى إلى عودة الكثير من اليهود لبيت المقدس، إلا أن السلاطين الذين جاءوا بعد جقمق عادوا لأسلوب الجباية الجماعية(٥٩).

وظل اليهود يعيشون في بيت المقدس في حي خاص بهم سمى باسمهم – حي اليهود أو حارة اليهود، وإليها نسب أحد أبواب المدينة المسمى ب: " باب حارة اليهود ". وكان الشارع الرئيسي في الحي اليهودي يسمي شارع اليهود، وكان يصل ما بين شارع داؤود وسور المدينة قرب بوابة صهيون(٦٠). وكانت منازل اليهود في العصر المملوكي مرتكزة على جانبي شارع اليهود. أما مجير الدين الحنبلي، فذكر بأن حارة اليهود في زمانه كانت بجوار حارة الصلتين من جهة الغرب، وأن اليهود عاشوا فيها حياة فقيرة(٦١). وتؤكد المصادر الأجنبية وكتب الرحالة الغربيين أن اليهود ظلوا يعيشون في نهايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على الصدقات والتبرعات التي كانت تأتيهم من المجتمعات اليهودية في مختلف بقاع العالم. وتشير هذه المصادر إلى أنه وجد في بيت المقدس حينذاك مجموعتان كبيرتان من اليهود هما: السفارديم، وهم من أصل إسباني ممن طردوا أيام الملك فرديناند، واليهود الأشكنازيم الذين نزحوا إلى المدينة من شرق أوربا(٦٢). وبالإضافة إلى هاتين المجموعتين الكبيرتين، يمكننا إضافة أعداد قليلة من يهود المغرب أو اليهود العرب الذين كانوا قد عاشوا في المدن التي خضعت للحكم الإسلامي، ثم هاجروا إلى بيت المقدس. وقد أشارت المصادر إلى أن معظم يهود بيت المقدس في العصر المملوكي كانوا من أصحاب الحرف: (وكثيرون منهم يعملون في الصناعة كالدباغة، والخياطة وصنع الأحذية وغير ذلك. وبعضهم يعملون في التجارة ولهم حوانيت أنيقة ويشتغل بعضهم بسك النقود والصيرفة)(٦٣).

بقيت كلمة أخيرة ينبغي ذكرها عن العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة، من يهود ونصارى بمختلف طوائفهم، في بيت المقدس في العصر المملوكي. ومما لا شك فيه أن سلاطين المماليك ظلوا ينظرون لبيت المقدس على أساس أنها إحدى الأماكن المقدسة سواء بالنسبة للمسلمين أم لغير المسلمين من يهود ونصارى، ولذلك حظيت المدينة بعنايتهم، كما حظي سكانها بمعاملة غاية التسامح. ونجد في المصادر العربية والأجنبية وكتب الرحالة الأوربيين ما يفيد بأن أهل الذمة ظلوا عموماً يتمتعون بقسط كبير من الأمن والحرية الدينية تحت لواء الحكم المملوكي الإسلامي.

ونبدأ بكتب الرحالة الأوربيين التي شهدت بتوفر الأمن والحرية لأهل الذمة في بيت المقدس المملوكية. فقد ذكر الرحالة كازولا أن نائب السلطنة في بيت المقدس عند زيارته للمدينة سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، عين حراساً لمرافقة الحجاج النصارى لحمايتهم من غارات البدو على طول الطريق البري من يافا إلى بيت المقدس[٦٤]. كذلك يورد الأب سوريانو، أن الفرنسيسكان اشتكوا إلى السلطان الأشرف قاتيباي من كثرة الأموال التي كان يجبيها منهم حاكم بيت المقدس، فقام السلطان بعزله، كما عزل كل من قام ضدهم بأي عمل تعسفي: (فأحضرهم السلطان مكبلين في الحديد وعاقبهم عقاباً شديداً)[٦٥].

ومن مظاهر التسامح تجاه أهل الذمة، أن السلاطين حرصوا على منع التعدي على دور العبادة الخاصة بهم في بيت المقدس. ومن الشواهد على ذلك ما يرويه ابن فضل الله العمري من أن كنيسة المصلبة (المصلبية) الخاصة بطائفة الكرج (القوقاز): (كانت قد أخذت منهم في دولة الناصر محمد بن قلاوون وجُعل فيها مسجد فلما كان في سنة خمس وسبعمائة وصلت رسالة من جهة ملك الكرج ورُسل من جهة صاحب قسطنطينية (إمبراطور بيزنطا) إلى نائب الملك الناصر وسألوه في إعادة الكنيسة لهم. فلما توصلوا وتشفعوا في ذلك أعيدت لهم)[٦٦]. وحظي اليهود في بيت المقدس بنفس المعاملة المتسامحة من قبل المسلمين حكاماً ومحكومين. ومن الشواهد على ذلك أنه حدث في سنة ٦٧٨هـ/ ١٤٧٣م، خلاف بين المسلمين واليهود حول دار واقعة بين مسجد للمسلمين وكنيس لليهود في بيت المقدس، وانتهى الخلاف بهدم الكنيس على أنه محدث، ولكن لما تحقق السلطان

الأشرف قاتيباي من الأمر، أصدر مرسوماً لنائبه في المدينة بإعادة بناء الكنيس سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م[٦٧].

ومن مظاهر التسامح التي أبداها السلاطين المماليك تجاه النصارى واليهود، السماح لهم بإجراء أعمال الصيانة اللازمة للمحافظة على مؤسساتهم الدينية. والشواهد الواردة في المصادر المعاصرة كثيرة جداً لا يتسع المجال لذكرها هنا، ولذلك سنكتفي بإيراد القليل منها. ومن أبرز الشواهد على ذلك أن السلطان الأشرف قاتيباي سمح لطائفة الرهبان الفرنسيسكان بإصلاح قبة كنيسة القبر المقدس (Holy Sepulchre)، على الرغم من معارضة بعض رجال الدين من المسلمين في بيت المقدس[٦٨]. وهناك مراسيم كثيرة صدرت عن السلطان برقوق وابنه الناصر فرج، وكذلك من السلاطين الأشرف قاتيباي، والأشرف برسباي تسمح للفرنسيسكان بعمارة الأجزاء المتداعية من كنيسة علية صهيون، إضافة لعمارة دير صهيون ودير الراهبات الملحقة به[٦٩]. ويذكر بأن السلطان الغوري، آخر سلاطين المماليك، سمح للفرنسيسكان ببناء دير جديد لهم في بيت المقدس، وآخر في مدينة الرملة[٧٠].

ولم يكن أهل الذمة في بيت المقدس يكلفون بالخدمة العسكرية بل كانت الجزية تؤخذ منهم، كالعادة عند المسلمين، مقابل الحماية. وفي الحقيقة، كانت تؤخذ من أهل الذمة، كما كان يؤخذ من المسلمين أيضاً، في بيت المقدس بعض الرسوم والمكوس التي قد تتطلبها الظروف الحربية، إلا أن هذه المكوس والرسوم كانت ترفع بزوال السبب الذي فرضت من أجله. ومن الشواهد على ذلك ما يرويه المقريزي عن السلطان سيف الدين قلاوون حين تولى السلطنة إذ: (أبطل ما كان يجبى من أهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الأجناد في كل سنة)[٧١]. وظل هذا التقليد قائماً حتى نهايات الدولة المملوكية ذلك أن السلطان الغوري أصدر في شهر المحرم سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، مرسوماً بأن: (لا يكره جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات (هكذا) الملكين واليعاقبة بموجب ولا خفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف (كنيسة القيامة) أسوة رهبان الكرج والحبوش، ولا عند دخولهم إلى ميناء يافا، ولا عند خروجهم من يافا ... وكل ناجية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة وأن ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القيامة ...)[٧٢].

وفي الحقيقة، لم يكن النصارى واليهود في بيت المقدس يتعرضون للمضايقة إلا في ظروف استثنائية، كأن يغير الفرنج على سواحل بلاد الشام أو مصر، أو في الفترات التي كانت فيها المشاريع الصليبية لاستعادة الأراضي المقدسة تظهر بتأييد من البابوية وملوك الغرب الأوربي. ففي هذه الحالات، كانت الدولة المملوكية تهدد باتخاذ بعض الإجراءات: كالقبض على الرهبان الفرنسيسكان، أو إغلاق كنيسة القيامة وغير ذلك[٧٣]. إلا أن هذه الضغوط سرعان ما كانت تزول بزوال الظروف الموجبة لها. ومن الشواهد على ذلك أنه حين أغار بعض القراصنة الفرنجة على ميناء الإسكندرية سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٦م، وقاموا بأسر بعض المسلمين، أمر السلطان الأشرف قاتيباي بالقبض على جميع التجار الفرنج المقيمين بالإسكندرية وصادر أموالهم. غير أن هذه الإجراءات لم تؤدي إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين مما دفع السلطان إلى زيادة ضغطه، فأمر في سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م، بالقبض على جميع الرهبان الفرنسيسكان المقيمن بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وإرسالهم إلى القاهرة. وكان لهذه الخطوة أثرها كما أوضح ابن إياس إذ يقول: (وعندما زال خطر القراصنة أطلق السلطان سراحهم وعادوا إلى أديرتهم يباشرون دينهم ودنياهم)[٧٤].

الحياة اليومية في مدينة بيت المقدس

حفلت الحياة اليومية في مدينة بيت المقدس بتنوع فريد. فقد امتازت المدينة بكثرة المنشآت الاجتماعية فيها مثل: الأسبلة، والحمامات، والبيمارستانات، كما امتازت بكثرة المواسم والاحتفالات الدينية لكونها مدينة مقدسة لاتباع الديانات السماوية الثلاثة، ولوجود عدد كبير من المزارات والأماكن المقدسة فيها. وقد ظهرت في مجتمع المدينة كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي تستحق الدراسة.

المنشآت الاجتماعية:

من أهم المنشآت الاجتماعية التي وجدت في مدينة بيت المقدس خلال العصر المملوكي: الأسبلة، والحمامات، والبيمارستانات.

أقام السلاطين المماليك في بيت المقدس أعداد كبيرة من الأسبلة لتيسير حصول الناس على ماء الشرب. وكان اهتمام السلاطين وغيرهم من الأمراء وأهل الخير ببناء الأسبلة نابعاً من سياستهم الدينية من ناحية، إضافة إلى حاجة أهل المدينة إلى مياه الشرب، لما عرف عنها من قلة المياه. وكما اهتم السلاطين بإنشاء الأسبلة، فقد اهتموا بتوصيل المياه إلى المدينة عن طريق قناة العروب (والعروب اسم قريتين بناحية القدس فيهما عينان عظيمتان وبركتان وبساتين)، كما يقول ياقوت الحموي. وقد ذكرت المصادر جهود السلاطين في توصيل المياه عن طريق قناة العروب إذ يذكر مجير الدين الحنبلي في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م: (وفيها ورد المرسوم الشريف إلى الأمير قانصوه اليحياوي بعمارة قناة العروب وعمارة بركة المرجيع وجُهز له من الخزائن الشريفة خمسة آلاف دينار منها ألف دينار نفقة للأمير قانصوه وأربعة آلاف دينار للعمارة فتوجه في عاشر صفر للعمارة وصحبة مائتا فاعل وشرع في العمارة إلى أن أكملها وتوجه إليه أعيان بيت المقدس وأكابرهم وكل من توجه إليه يصحب شيئاً من أنواع المأكول كالعسل والسمن والغنم وغير ذلك وفيها في العشرين من رجب دخلت عين العروب إلى القدس الشريف، وزينت المدينة ثلاثة أيام)[٧٥].

وفيما أورده مجير الدين الحنبلي دليل على عناية السلاطين بتزويد بيت المقدس بحاجتها من الماء، كما نفهم التكلفة المالية لتنفيذ مشروع توصيل المياه عن طريق قناة العروب وابتهاج سكان المدينة بذلك.

أما عن عناية سلاطين وأمراء المماليك بالأسبلة في بيت المقدس، فقد أنصبت تلك العناية على تجديد بعض الأسبلة التي كانت موجودة فعلاً أو إقامة أسبلة جديدة. فقد قام السلطان الأشرف برسباي بتجديد سبيل شعلان سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م، وهو السبيل الذي كان قد بناه الملك المعظم عيسى الأيوبي سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٦م. كذلك قام نائب السلطنة وناظر الحرمين الشريفين في بيت المقدس بتجديد سبيل علاء الدين البصير، وهو من الأسبلة القديمة في المدينة، وذلك في سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م بأمر من السلطان الأشرف برسباي.

أما الأسبلة التي استحدثت في مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك فكثيرة، أهمها: السبيل الذي أقامه السلطان الأشرف إينال سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م، ويعرف بـ: "سبيل قاتيباي" لأنه جدد عمارته. والسبيل يقع بين المطهرة ومسجد الصخرة، ويصفه مجير الدين الحنبلي بقوله: (والسبيل داخل المسجد الأقصى فوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربي وكان قديماً على البئر المذكور قبة مبنية بالأحجار كغيره من الآبار الموجودة بالمسجد فأزيلت تلك القبة وبنى السبيل المستجد وفرش أرضه بالرخام وصار في هيئة لطيفة)[٧٦].

ويعتبر " سبيل قاتيباي " من أكبر وأهم الأسبلة التي أقيمت في بيت المقدس، وكان يتكون من طابقين، الأول عبارة عن بئر محفورة لتخزين ماء المطر، والطابق الثاني يرتفع عن سطح الأرض حوالي متر وتوجد به المزملة لتوزيع الماء على الراغبين فيه. وكان المزملاتي هو الموظف القائم بالإشراف على السبيل، وتوزيع المياه، والعناية بالأدوات المستخدمة في السبيل.

وفي الحقيقة، فإن معظم الأسبلة التي أنشئت في بيت المقدس روعي أن تكون على الطريق الرئيسي المؤدي إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى ليتوفر للمصلين والزوار الحصول على الماء قبل دخولهم المسجد لأداء الصلوات، كما أن منطقة الحرم كانت توجد تحتها عدد من الآبار لتخزين مياه الأمطار.

ولم تقتصر عناية السلاطين بتوفير المياه على إنشاء الأسبلة وعمارة القنوات، بل تعدتها إلى إنشاء بعض الأحواض الكبيرة، خاصة في المنطقة بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى. ومن الأمثلة على ذلك الحوض الذي أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون المعروف باسم " الكأس "، لأنه كان مصنوعاً من الرخام.

وكان إنشاء الأحواض والبرك ضرورياً لسد احتياجات سكان بيت المقدس من المياه. والواقع فإن السكان ظلوا يشربون مياه الأمطار التي يجمعونها في منازلهم واستمر الحال على ذلك حتى أواخر عهد سلاطين المماليك كما يقول مجير الدين الحنبلي: (وهي كثيرة الآبار المعدة لخزن الماء لأن ماءها يجمع من الأمطار)[٧٧]. وإلى جانب إنشاء الأحواض، قام كثير من السلاطين بتعمير القنوات الكثيرة في بيت المقدس التي كانت مصدر إمداد بالمياه مثل: قناة السبيل، التي عمرها المماليك مراراً كما تذكر المصادر العربية.

كذلك ذخرت بيت المقدس بوجود نوع آخر من المؤسسات الاجتماعية على عصر سلاطين المماليك، ألا وهي الحمامات العامة والتي ظل يقصدها الناس من مختلف الطبقات للاستحمام. ويبدو أن الحمامات كانت قليلة في بيت المقدس في بداية العصر المملوكي كما يُفهم من حديث ابن فضل الله العمري عن حوادث سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، إذ يذكر بأن الأمير تنكز، نائب الشام، عمر بالمدينة حمامين: (كانت أحوج شيء إليه لأنه لم يكن بها حمامات مرضية)[٧٨]. ويذكر مجير الدين الحنبلي عدداً من حمامات المدينة الرئيسة مثل: " الحمام الجديد " بباب القطانين، و " حمام علاء الدين "، و " حمام البترك " بحارة النصارى. كذلك أشارت كتابات الرحالة الأوربيين الذين زاروا بيت المقدس لتلك الحمامات. وفي الحقيقة، فإن وظيفة الحمام في العصور الوسطى لم تقتصر على مجرد الاستحمام، بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من بعض مناطق الجسم، فضلاً عن أن الحمام كان يعتبر مركزاً اجتماعياً يتناقل فيه المستحمون الأخبار التي تمس حياتهم اليومية.

ومن المنشآت الاجتماعية الهامة في بيت المقدس البيمارستانات. والواقع، فإن بيت المقدس شهدت قيام البيمارستان فيها منذ العصر الفاطمي وفترة الاحتلال الفرنجي (الصليبي) للمدينة. فقد ظل بيمارستان الاسبتارية يؤدي دوره العلاجي في

المدينة، كما أن صلاح الدين سمح لعشرة من الاسبتارية أن يبقوا لمعالجة المرضى النصارى لبعض الوقت، ثم استخدم جزء من البناء كمستشفى حتى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وسمى باسم " المارستان ". وقد أكد الرحالة الذين زاروا بيت المقدس في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وجود المارستان إذ يذكر سيرجون مانديفيل، الذي زار المدينة سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، ما يؤكد وجوده إذ يقول: (وأمام القبر المقدس وعلى بعد مائتي خطوة إلى الجنوب هناك المستشفى الكبير وهو مستشفى القديس يوحنا والذي وضع أساسه الاسبتارية ... وفي الداخل هناك مائة وأربع وعشرون عموداً من الحجر)[٨٠]. كذلك ذكر الرحالة فيلكس فابري، الذي زار بيت المقدس أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، المارستان بأنه: (وهو مبنى ضخم ذي عقود حجرية خرب ومتهدم وقذر)[٨٠]، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن المارستان كان قد تهدم بمرور الوقت ولم يعد صالحاً للاستعمال.

والواقع، فإن البيمارستان الصلاحي لم يكن البيمارستان الفرنجي الذي أنشأه الفرنجة ونسب إلى الاسبتارية لأن المصادر العربية واضحة تجاه هذه النقطة. فقد أورد ابن شداد، الذي كان معاصراً لاسترداد بيت المقدس من الفرنجة، في معرض حديثه عن حوادث سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م: (وأمرني السلطان بالمقام في القدس الشريف لعمارة بيمارستان أنشأه فيه وإدارة المدرسة التي أنشأها)[٨٢]. كذلك يشير مجير الدين الحنبلي إلى أن صلاح الدين: (جعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتارية بقرب قمامة بيمارستان للمرضى ووقف عليه مواضع ووضع فيه ما يحتاج من الأدوية والعقاقير)[٨٣]. كما يشير في موقع آخر إلى مكان البيمارستان إذ يقول: (خط الدركاه وبه البيمارستان الصلاحي وكنيسة قمامة ويليه حارة النصارى)[٨٤].

والواقع، فإننا لا نجد أية إشارة عن بناء السلاطين أو الأمراء المماليك بيمارستانات جديدة في بيت المقدس مما يجعلنا نرجح أنهم اهتموا بالبيمارستان الصلاحي الذي استمر يعمل طوال عصر سلاطين المماليك بدليل ما يورده مجير الدين الحنبلي من الإشارات الكثيرة: (إلى من توفى في بيمارستان القدس الشريف). ويهمنا أن نذكر أن مهمة البيمارستان لم تقتصر على معالجة المرضى، بل كان بمثابة مدرسة لتعليم الطب تطبيقياً. وعموماً، كان للبيمارستان ناظر يشرف على

إدارته، كما وجد بكل قسم من أقسام الأمراض المختلفة رئيس مثل: رئيس الجرائحية، ورئيس الكحالين وغيرهم، وكان يلحق بالبيمارستان صيدلية، تسمى شرابخانة، يشرف عليها موظف يسمى المهتار، وله غلمان برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم خراب دار[٨٥].

مزارات بيت المقدس:

نظرة لقداسة كثير من الأماكن داخل بيت المقدس وارتباطها بالأديان السماوية الثلاثة، فقد غدت كثير من هذه المواضع مزارات هامة وشكلت الزيارة لها جانباً من الحياة اليومية والاجتماعية بالمدينة.

وقد أسهمت كتب الفضائل في وصف قدسية بيت المقدس في نفوس المسلمين لارتباطها بحادثة الإسراء والمعراج ولكونها قبلة المسلمين الأولى. ويأتي في مقدمة المزارات الإسلامية في بيت المقدس الحرم الشريف الذي يقع في الطرف الشرقي للمدينة، ويشتمل على عدة مساجد وأبنية دينية، منها المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة. وقد ترك لنا الرحالة ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) وصفاً شيقاً للمسجد الأقصى إذ يقول: (وهو من المساجد العجيبة الرائعة الفائقة الحسن ... وطوله من شرق إلى غرب سبعمائة وثتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً، وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث ... والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى، فهو مسقف في النهاية، مموه بالذهب والأصبغة الرائعة)[٨٦]. والواقع، فإن المسجد الأقصى يقع في صدر الحرم الشريف عند القبلة كما توجد في صحن المسجد مصطبة كبيرة في وسطها قبة مثمنة على أعمدة رخام وفي وسطها الصخرة التي على طرفها أثر قدم الرسول صلى الله عليه وسلم. والصخرة من المزارات الهامة للمسلمين أيضاً، وتحتها مغارة ينزل إليها بعدة درج يصلى فيها ولها أربعة أبواب.

وللمسجد الأقصى أبواب عديدة اختلفت الأقوال في عددها، فقد عدد لنا المنهاجي السيوطي، الذي زار بيت المقدس سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، ثلاثة عشر باباً[٨٧]، في حين ذكرت مصادر أخرى بأن عدد الأبواب أربعة عشر باباً[٨٨]. وكان للمسجد الأقصى أربعة مآذن تم بناؤها في عصر سلاطين المماليك، وهي: مئذنة باب

المغاربة، ومئذنة باب السلسلة، ومئذنة باب الغوانمة، ومئذنة باب الأسباط. كذلك وجدت بعض المحاريب داخل المسجد الأقصى، كمحراب داؤود عليه السلام، ومحراب زكريا عليه السلام، ومحراب مريم عليها السلام، ومحراب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وكانت تقصد للزيارة والصلاة فيها.

وكانت سياسة السلاطين والأمراء المماليك تقوم على العناية الفائقة بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة عن طريق الترميم والتجديد. وكانت للحرم الشريف مكانة خاصة في قلوب المسلمين، لذا حرص كثير منهم على زيارته في مناسبات عديدة أهمها حضوره صلاة التراويح في شهر رمضان، وحضور الاحتفال بليلة النصف من شعبان، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من شهر رجب. وكان الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج من أشهر أعياد المسلمين وأعظمها كما يقول مجير الدين الحنبلي، حيث يوقد أكثر من عشرين ألف من القناديل[٨٩]. كذلك كانت تقام في المسجد الأقصى أغلب احتفالات المسلمين في بيت المقدس، فعندما يزور أحد السلاطين المدينة، كان يصلي في المسجد الأقصى ثم يجلس في محراب المسجد لسماع شكاوي الناس وحل قضاياهم. كذلك كان كل نائب جديد للسلطنة حين يصل المدينة يزور المسجد الأقصى يوم وصوله حيث يستقبله الأهالي، كما كانت تتم في المسجد الأقصى أيضاً الاحتفالات والاحتفاء بالقضاة والخطباء وغيرهم، حيث تتم قراءات تواقيع توليتهم عقب صلاة الجمعة[٩٠].

ومن مزارات بيت المقدس الهامة للمسلمين، جبل طور زيتا، المشرف على المسجد الأقصى، حيث توجد قبور بعض الصحابة الكرام. ومن المزارات أيضاً عين سلوان التي كان الناس يتبركون بشرب مائها[٩١]، وعلى مقربة منها قبة قبر سيدنا موسى عليه السلام التي بناها السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م. ومن المزارات الهامة أيضاً للمسلمين مقام نبي الله داؤود في القلعة.

أما المزارات المسيحية، فكانت كثيرة ومتعددة في بيت المقدس تشمل الكنائس والأديرة وبعض الأماكن الأخرى. وقد ارتبطت كثير من الكنائس والأديرة بنشأة المسيحية كما ارتبط بعضها بحياة المسيح عليه السلام إلى جانب ارتباطها بحياة آباء الكنيسة الشرقية من القديسين الأوائل (Saints) من أمثال القديس جيرمو، والقديس فرمنتوس وغيرهما.

وتأتي كنيسة القيامة في مقدمة المزارات المسيحية، ويصفها الهروي (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م) بقوله: (وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة قمامة وعمارتها من العجائب... ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة وذلك أنهم يعتقدون أن المسيح قامت قيامته في ذلك الموضع)(٩٢). ويقول عنها القزويني: (وهي كنيسة عظيمة للنصارى في وسط البلد، لا يضبط صنفها حسناً وتنميقاً وكثرة مال)(٩٣). أما مجير الدين الحنبلي فيصفها بقوله: (وعمدة النصارى منها كنيسة قمامة فإنها عندهم بمكان عظيم وبناؤها في غاية الإحكام والإتقان يقصدونها في كل سنة في عدة أوقات من بلاد الروم والإفرنج ومن بلاد الأرمن ومن الديار المصرية والمملكة الشامية وسائر الأقطار ويسمونها القيامة ويزعمون أن حجهم إليها ...)(٩٤).

وقد أوردت المصادر العربية أوصافاً مقتضبة لكنيسة القيامة من الداخل، في حين أن كتابات الرحالة والحجاج النصارى أسهبت في وصفها لكونها أهم كنائسهم. والواقع، فإن بناء كنيسة القيامة لم يتغير منذ أن أعيد بناؤها بعد تدميرها في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠هـ/١٠٢١م، وقد وصف ناصر خسرو الكنيسة بعد إعادة بنائها كما ذكرنا سابقاً في الفصل الأول.وكان للكنيسة على عصر سلاطين المماليك ثلاثة مفاتيح، واحد يحتفظ به أحد ممثلي السلطان المملوكي، والثاني عند نائب بيت المقدس، والثالث بيد أحد رجال الدين. وكان على المسيحيين أن يدفعوا قدراً من المال لدخول الكنيسة.

وحظيت كنيسة صهيون بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد كنيسة القيامة. وقد أورد مجير الدين الحنبلي ترتيب الكنائس الأربعة في بيت المقدس، وهي: كنيسة القيامة، وكنيسة صهيون، وكنيسة مار يعقوب، وكنيسة المصلبية، ويقول في ذلك: (كنيسة صهيون المختصة بالإفرنج وهي في آخر مدينة القدس من جهة القبلة، ثم كنيسة ماريعقوب وتعرف بدير الأرمن وهي بالقرب من صهيون، وكنيسة المصلبية المختصة بطائفة الكرج وهي بظاهر القدس الشريف من جهة الغرب، فهذه الأربع كنائس هي عمدة النصارى والنهاية عندهم كنيسة قمامة)(٩٥). ويذكر الهروي بأن كنيسة مار يعقوب كانت لها مكانة خاصة لدى الطوائف المسيحية المختلفة لأنه: (كان بها بئر يقال أن المسيح اغتسل منها وآمَن السامرية على يديه عندها)(٩٦).

ووجدت في بيت المقدس أيضاً أعداد كبيرة من الأديرة وأهمها: دير المصلبة، ودير السيق، ودير الدواكيس، ودير القديس سابا. وقد أشارت بعض المصادر العربية لتلك الأديرة ووصفت أهميتها، ومن ذلك أن ابن فضل الله العمري ترك لنا وصفاً شيقاً لدير المصلبة إذ يقول: (وهو بظاهر مدينة القدس الشريف ... وهو دير رومي قديم البناء بالحجر والكلس. محكم الصنعة مونق البقعة. في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين، بازاء قرية، تجري على الدير بمرسوم السلطان ... وهذا الدير دخلت إليه، وفيه صور يونانية في غاية من محاسن التصوير، وتناسب المقادير)[٩٧]. كذلك وصف لنا ابن فضل الله العمري دير السيق بقوله: (قبلي بيت المقدس على نشر عال مشرف على الغور ... وبه رهبان ظراف أكياس، ولا يأتيهم إلا قاصد لهم أو مار في مزارع الغور ...)[٩٨].

ويذكر مجير الدين الحنبلي أن قبر مريم عليها السلام كان من أهم المزارات الذي يقصدها كثير من المسلمين والمسيحيين، وكان يقع في كنيسة داخل جبل طور زيتا المطل على المسجد الأقصى: (والكنيسة تسمى الجسمانية بخارج باب الأسباط... وهو مكان مشهور يقصده الناس للزيارة من المسلمين والنصارى)[٩٩].

أما مزارات اليهود في بيت المقدس فتختلف حولها المصادر العربية، وأهمها المقبرة اليهودية في جبل صهيون، والتي يذكر الرحالة سيرجون مانديفيل أن اليهود يزورنها لاعتقادهم بأن الملك داؤود والملك سليمان، وكثير من ملوكهم دفنوا فيها[١٠٠].

المواسم والاحتفالات والأعياد الدينية:

تعددت المواسم والاحتفالات الدينية في بيت المقدس على عهد سلاطين المماليك تعدداً واضحاً، سواء ما كان يتعلق منها بالمسلمين أم المسيحيين من سكان المدينة. وسنركز حديثنا أولاً على بعض المواسم والاحتفالات الرئيسة للمسلمين التي لم تكن موجودة في بقية المدن المملوكية. ومن أهم هذه المواسم:

١) الموالد مثل " موسم النبي صالح " و " موسم النبي موسى " و " موسم أبي عبيدة بن الجراح ". ويرجع تاريخ هذه المواسم إلى أيام صلاح الدين الأيوبي،

وكان الهدف من إنشائها أن تكون موافقة لموسم عيد الفصح، الذي يأتي فيه عدد كبير من الحجاج المسيحيين، خاصة الأوربيين، فأراد صلاح الدين بذلك أن يأتي لبيت المقدس أعداد هائلة من المسلمين من المناطق المجاورة مثل الجليل ونابلس وغيرها. واستمرت هذه الموالد أيام المماليك الذين أقروا الاحتفالات في تلك المواسم، كما أن السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس بني مسجداً فوق قبر موسى عليه السلام مما يمكن أن يعتبر تأكيداً للموسم.

٢) ليالي الوقود، وعلى رأسها ليلة الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من رجب. ويتم في تلك الليلة احتفال عظيم في قبة الصخرة وتشعل القناديل والأنوار حتى تصبح القبة وكأنها قبة من النور كما يقول ابن فضل الله العمري[١٠١]. ويذكر مجير الدين الحنبلي أن بعض المسلمين كانوا يحرصون على إحياء تلك الذكرى بالصيام وبقراءة سورة الإسراء[١٠٢].

وكانت ليلة النصف من شعبان إحدى ليالي الوقود في بيت المقدس إذ توقد فيها القناديل بشكل كبير، وكان نائب المدينة يقصد مجلس العلماء والفقهاء الذين يحضرون الاحتفال في محراب المسجد الأقصى. ويورد المقريزي أن الناس تعودوا قراءة بعض آيات القرآن الكريم، ثم يقرأ صحيح البخاري، ثم يقوم المداح بعد ذلك بمدح النبي ﷺ[١٠٣].

٣) أما في رمضان، فكانت صلاة التراويح تقام طوال الشهر في المسجد الأقصى، وبمغارة الصخرة، وعند أبواب الحرم. وكان شهر رمضان فرصة طيبة للمسلمين للإكثار من الصدقات وإطعام الفقراء، وكان من مظاهر التوسعة صرف كميات إضافية من السكر والحلوى للفقراء والأيتام والصوفية وغيرهم.

أما بالنسبة لأعياد واحتفالات المسيحيين في بيت المقدس، فقد تعددت نتيجة تعدد الطوائف المسيحية في المدينة. ويعتبر القلقشندي مصدراً مهماً للتعرف على تلك الأعياد والاحتفالات. وينبغي الإشارة إلى أن بعض هذه الأعياد كانت أعياداً قومية يشترك فيها غالبية النصارى. ومن أهم الأعياد المسيحية في العصر المملوكي:

١. عيد البشارة، ويقصد به بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بميلاد المسيح، وهو عادة ما يقع في الخامس والعشرين من شهر مارس[١٠٤].

٢. عيد الشعانين، والشعانين كلمة مأخوذة من الكلمة السريانية (سعانين) ويقصد بها سعف النخيل. وقد ارتبط هذا العيد بذكرى مجئ المسيح عليه السلام إلى بيت المقدس راكباً على حمار فاستقبله الناس مسبحين، والصبيان بأيديهم ورق الزيتون[١٠٥].

وقد جرت العادة عند المسيحيين أن تزين الكنائس في هذا اليوم بأغصان الزيتون وسعف النخيل، ويفرق فيها على الناس على سبيل التبرك. ويذكر ابن الوردي (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) أن نصارى بيت المقدس كان يحملون في هذا العيد إلى كنيسة القيامة شجرة من الزيتون، ويشقون بها طرقات المدينة بالقراءة والترانيم والصلوات، حاملين الصليب ومرتدين الملابس البيضاء[١٠٦].

وجرت العادة أن يلتقي جميع المسيحيين في كنيسة القيامة حيث تتجمع كل طائفة منهم في مكان معين ويقوم كاهن كل طائفة بترتيل القداس باللغة التي يتخاطب بها أفراد تلك الطائفة.

٣. عيد الفصح، وهو العيد الكبير عند النصارى كما يقول القلقشندي، ويوافق يوم الفطر بعد صيام طويل. ويعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام قام في ذلك اليوم بعد صلبه بثلاثة أيام، وأقام في الأرض أربعون يوماً ثم صعد إلى السماء[١٠٧]. ويعرف هذا العيد أيضاً بـ: " عيد القيامة ". وكان هذا العيد في البداية في الرابع عشر من شهر أبريل (نيسان)، إلا أن مجمع نيقية المسكوني قرر في سنة ٣٢٥م أن يكون العيد في يوم الأحد التالي لليوم الرابع عشر من هلال أبريل واستمر الحال على ذلك حتى وقت قريب.

وقد أسهبت كتابات الرحالة في وصف الاحتفال بعيد الفصح. ومن أبرز مظاهر الاحتفال أن النصارى والزوار كانوا يذهبون إلى كنيسة القيامة، حيث يكون رهبان كل طائفة من الطوائف قد تجمعوا عند المذبح الخاص بهم، وهناك ينضم الزوار إلى الرهبان، ويقوم كل راهب بترتيل القداس

بلغة طائفته، ثم يرتل الإنجيل، ويظل الجميع يرددون " المسيح قام من بين الأموات " إلى منتصف الليل حيث تقرع الأجراس، ويبقى الاحتفال قائماً حتى ساعة متأخرة من الليل.

٤. عيد الميلاد، ويقصد به الاحتفال بيوم عيد ميلاد المسيح عليه السلام، ويوافق الخامس والعشرين من شهر ديسمبر. ويعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام ولد يوم الاثنين، ولذا فإنهم يجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد: (فيوقدون المصابيح في الكنائس ويزينونها)[١٠٨]. وجرت العادة أن يوقد النصارى القناديل فوق أسطح المنازل، كما كانوا يوقدون فيه النيران أيضاً، ويظهرون فيه الأفراح ويعدون أصناف المآكل والمشارب احتفالاً بهذا اليوم.

وتجب الإشارة إلى أن المصادر التي بين أيدينا لم تعطنا أية إشارة لأعياد واحتفالات اليهود في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى قلة عددهم في المدينة مقارنة بالمسلمين والمسيحيين.

الحياة الاقتصادية في بيت المقدس في العصر المملوكي

تحكمت عوامل الطبيعة، من موقع جغرافي وطبيعة للأرض، في اقتصاد بيت المقدس. وظلت مدينة بيت المقدس مدينة صغيرة في داخلية فلسطين لا تتمتع بموارد طبيعية كبيرة، كما أن أرضها كانت في أغلبها أرضاً صخرية ليست صالحة للزراعة. ولذلك كان طبيعياً أن تعلب القرى المجاورة لبيت المقدس دوراً بارزاً في حياة المدينة الاقتصادية. وكانت مواسم الحج إلى المدينة فترة انتعاش اقتصادي تزدهر فيها الأسواق الموسمية. ورغم أن سلاطين المماليك أولوا بيت المقدس عناية خاصة، وظلوا يرفعون المكوس عن أهلها، إلا أن المدينة شهدت فترات متلاحقة من الأزمات الاقتصادية التي سنأتي على ذكر بعضها بالتفصيل في نهاية هذا الفصل.

١) جغرافية بيت المقدس:

تقع مدينة بيت المقدس على خط العرض ٣٢ درجة شمالاً وعلى خط الطول ٣٥ درجة شرقاً، كما تبعد حوالي ٥٥ كيلو متراً شرقاً من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وحوالي ٣٠ كيلو متراً غرباً من نهر الأردن. ونسبة لموقعها الجغرافي المذكور، ظلت المدينة بعيدة عن طرق التجارة البرية العالمية المعروفة في العصور الوسطى كما لم تكن إحدى الموانئ الهامة.

ومن ناحية أخرى، أقيمت بيت المقدس على أربعة جبال هي: جبل موريا، وجبل صهيون، وجبل أكرا، وجبل بزيتا، كما أحيطت بعدد كبير من الجبال أهمها:

جبل أبو عمَّار، وجبل الزيتون (جبل الطور)، وجبل المشارف، وجبل المنظار، وجبل النبي صموئيل.

وترتفع مدينة بيت المقدس حوالي ٨٩٥ متراً عن سطح البحر، وتحيط بها عدة مرتفعات هي في الواقع تلال متوسطة الارتفاع، ويفصل ما بين تلك التلال والجبال المحيطة بالمدينة عدة أودية، أهمها: وادي جهنم، ووادي القدرون، وغيرها[١٠٩].

وقد أشارت المصادر العربية لجغرافية بيت المقدس وأرضها الصخرية، فيقول ياقوت الحموي: (إن أرضها وضياعها كلها جبال شامخة وليس حولها ولا بالقرب

منها أرض وطيئة البتة ... وأما نفس المدينة فهي على فضاء في وسط الجبال وأرضها كلها من حجر الجبال التي هي عليها)[١١٠]. وكان لطبيعة الأرض الصخرية في بيت المقدس تأثير كبير على الحياة الاقتصادية إذ كانت الأراضي الصالحة للزراعة قليلة، كما كانت الموارد المائية شحيحة. وفي الحقيقة، كانت المدينة تعتمد بشكل أساسي على مياه الأمطار التي تخزن لتستخدم في الشرب. وقد أشار ابن شداد إلى صعوبة حفر الآبار في المدينة إذ يقول: (وأرض القدس لا يُطمع في حفر بئر بها، فيها ماء معين، لأنها جبل عظيم وحجر صلب)[١١١].

وكان للعوامل الطبيعية في تلك المنطقة الجبلية أكبر الأثر في أحوال بيت المقدس المناخية إذ تراوحت الحرارة فيها بين ١٠-٣٥ درجة مئوية، وظل طقسها حار جاف والرطوبة فيه متوسطة. ونسبة لموقع بيت المقدس فوق هضبة ترتفع حوالي ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر كان لذلك أثر كبير على ظروفها المناخية، وبخاصة هبوب الرياح. فقد تعرضت المدينة لكل أنواع الرياح، مثل الرياح الغربية والرياح الشمالية الغربية في فصل الشتاء، والرياح الشرقية والجنوبية التي يستمر هبوبها لعدة أيام[١١٢].

وكان لتلك العوامل الطبيعية، من أرض صخرية وارتفاع عن سطح الأرض، فضلاً عن تعرض بيت المقدس لأنواع مختلفة من الرياح، أثرها الواضح في كمية سقوط الأمطار. وتشير بعض المراجع إلى أن معدل سقوط الأمطار السنوي في المدينة يصل إلى حوالي ٦٠٠ مليمتر، موزعة على موسم الشتاء الممتد من شهر نوفمبر إلى نهاية مارس، وقد تسقط الثلوج في موسم الشتاء.

النشاط الزراعي:

على الرغم من طبيعة الأرض الصخرية في بيت المقدس وندرة الموارد المائية، إلا أنه وجد في أطراف المدينة وحولها بعض التلال والأودية الصالحة للزراعة. وظلت هذه المناطق الزراعية تسد حاجة سكان بيت المقدس من الحبوب والخضراوات والفواكه كما أشارت إلى ذلك كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين. وقد أشار الرحالة ناصر خسرو، الذي زار بيت المقدس سنة ٤٣٨هـ /١٠٤٧م، إلى ذلك إذ يقول:

(سواد رساتيق بيت المقدس جبلية كلها، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف متر من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والأحواض)[١١٣].

وتشير المصادر العربية إلى أن قرية سلوان، التي تقع أسفل سفح جبل صهيون جنوب بيت المقدس، كانت من المناطق الزراعية ذات الخصوبة العالية، وكانت الزراعة فيها تعتمد على الري من بركة سلوان. وتذكر بعض المصادر أن تلك المنطقة كانت تنتج في السنة أربعة محاصيل، وأنها كانت عامرة ببساتين الفواكه، خاصة التين والعنب واللوز، إضافة لحقول القمح.

وفي الجانب الشرقي من مدينة بيت المقدس، وجدت في العصر المملوكي بعض المناطق والقرى الزراعية التي اعتمدت عليها المدينة. ومن هذه القرى والمناطق أريحا، التي يقول عنها مجير الدين الحنبلي: (وهي شرق بيت المقدس بالقرب من نهر الأردن ... وقد صارت أريحا في هذه الأزمنة قرية من قرى بيت المقدس، وهي إقطاع لمن يكون نائباً بالقدس الشريف)[١١٤]. وإلى الغرب من بيت المقدس، وجدت بعض المناطق والقرى الزراعية، وأهمها قرية البقعة والتي وصف مجير الدين الحنبلي أرضها بأنها من أحسن الأراضي الزراعية[١١٥].

والواقع، فإن القرى والمناطق الزراعية حول بيت المقدس كانت تزخر بالموارد المائية التي توفرت من العيون والآبار مثل: عين ماء العذراء (بئر أيوب)، في وادي القدرون، وعين أم الدرج (عين مريم)، وعين اللوزة، وغيرها[١١٦].

وكانت الأودية من المناطق الزراعية الجيدة التي ظلت تمد مدينة بيت المقدس بحاجتها من الحبوب والفواكه والخضراوات. وأهم هذه الأودية تلك الممتدة ما بين بيت المقدس وبيت لحم والخليل، والتي وصفها الرحالة ناصر خسرو: (والمسافة بين بيت المقدس وبين الخليل تقدر بستة فراسخ عن طريق جنوبي به قرى كثيرة وزروع وحدائق وشجر بري لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق ... وعلى فرسخين من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة تسمى الفراديس لجمال موقعها)[١١٧].

وفي التلال المحيطة ببيت المقدس، وجدت بعض المناطق الزراعية التي اشتهرت بإنتاج بعض المحاصيل مثل: " تلال الفول "، الذي كان يقع على بعد حوالي خمس كيلو مترات إلى الشمال من بوابة دمشق.

ومما ذكرناه، يتضح لنا أنه وإن كانت مدينة بيت المقدس قليلة الإنتاج الزراعي بسبب طبيعة الأرض الصخرية وقلة موارد المياه، إلا أنه قد توفر لها من المناطق الزراعية المتمثلة في القرى والتلال والوديان المحيطة بها، ما يفي بحاجتها من المواد الغذائية. ويبقى أن نذكر أن تلك المناطق الزراعية كانت تابعة إدارياً لمدينة بيت المقدس باعتبارها ولاية ثم نيابة في العصر المملوكي.

وقد تنوع الإنتاج الزراعي في بيت المقدس، وما حولها من القرى والوديان، في العصر المملوكي. ويمكن تقسيم الإنتاج الزراعي إلى قسمين رئيسيين هما: الأشجار المثمرة، وما تغله الأرض من زراعات. وعرفت ببيت المقدس وما حولها زراعة عدد هائل من الأشجار المثمرة مثل: الزيتون، والكروم، والتين، واللوز، والتفاح، والمشمش، والرمان، والبرتقال وغيرها.

وكانت زراعة الزيتون منتشرة على سفوح مدينة بيت المقدس وعلى جانب التلال الصخرية الممتدة حول أطراف المدينة. كذلك كثرت زراعة الزيتون في الجبال، خاصة جبل الزيتون، فضلاً عن أنه كانت أشجاره تزرع في كثير من القرى المجاورة لبيت المقدس. أما الكروم، فكان يزرع بكثرة في المناطق التي تقع إلى اليسار من وادي القدرون كما يشير مجير الدين الحنبلي: (وبظاهر القدس الشريف من كل جهة كروم بها من أنواع الفواكه من العنب)[١١٨]. ويبدو من المصادر العربية وكتابات الرحالة الأوربيين الذي زاروا بيت المقدس خلال العصر المملوكي، أن زراعة الكروم كانت من الزراعات التي اهتم بها المسيحيون المحليون كما أشار إلى ذلك الرحالة "بيركارد" (Burchard)، الذي عاش حوالي عشر سنوات في جبل صهيون.

وإلى جانب الزيتون والكروم انتشرت في بيت المقدس، وما حولها من القرى والمناطق الزراعية أشجار الجوز، والتوت، والخروب، والليمون، والمشمش، والرمان، والبرتقال، والفستق، وغيرها، وكما يقول ياقوت الحموي في وصفه لفاكهة بيت المقدس أنه: (جمع الله فيها فواكه الأغوار والسهل والجبل والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز).

أما المحاصيل الزراعية الأخرى التي كانت تزرع في بيت المقدس وما حولها خلال العصر المملوكي، فأهمها الشعير، والقمح، والفول، والبصل والخضراوات. وكانت زراعة القمح تتركز حول القرى المحيطة ببيت المقدس إلا أن الإنتاج لم يكن يكفي حاجة المدينة، ولذلك نجد في المصادر أن بعض السلاطين المماليك كانوا ينعمون على القدس والخليل بكميات كبيرة من القمح(١١٩).

وكان قصب السكر من المحاصيل التي تزرع في بيت المقدس وما حولها، ويبدو أن الظروف الطبيعية كانت من أهم العوامل التي ساعدت على جودته طوال العصور الوسطى. ويصف لنا الرحالة بيركارد (Burchard) أن قصب السكر كان يجمع عن طريق تقطيعه طولياً بما يساوي نصف نخلة قبل حمله إلى المعاصر ليستخدم في صناعة السكر(١٢٠)، وتذكر بعض كتابات الرحالة أن البلسان كان يزرع بكميات وفيرة في بداية عصر سلاطين المماليك قرب بيت المقدس، إلا أن زراعته تضاءلت بعد ذلك نظراً لحاجته للري المستمر(١٢١).

ورغم قلة الإشارات في المصادر العربية عن نظم الزراعة في العصر المملوكي، إلا أن نظام المقاسمة كان شائعاً على عادة البلاد الشامية. ويقوم نظام المقاسمة على أن يتولى أحد الأشخاص استئجار الأرض من مقطعها ويقوم هو بالإنفاق عليها وشراء كل ما يلزمها، ثم يتقاسم ثمن المحصول هو ومن قام بزراعتها. والثابت أن الفلاحين في بيت المقدس كانوا يعانون من جراء النظام الإقطاعي الذي ساد في العصر المملوكي. وتصور لنا بعض المصادر سوء أوضاع الفلاحين بقولها: (ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قرارياً، فيصير عبداً لمن أُقطع تلك الناحية، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق فهو قن ما بقي ومن ولد له كذلك)(١٢٢). وإذا هرب الفلاح من قريته أعيد إليها قسراً كما يقول السبكي: (وجرت العادة بأنه من ينزح دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهراً. ويلزم بشدة الفلاحة والحال في غير الشام، أشد منه فيها ... ومن قبائحهم أنهم إذا اعتمدوا شيئاً مما جرت به عوائدهم القبيحة يقولون هذا شرع الديوان ...)(١٢٣).

ونجد في المقريزي إشارات كثيرة على تعسف أمراء المماليك ونواب السلطنة في معاملة الفلاحين في بيت المقدس وما حولها من القرى والمناطق الزراعية. ومن الشواهد

على ذلك ما ذكره المقريزي في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م أن السلطان الظاهر ططر: (مر بمدينة القدس، فرُفع إليه أن من عادة نائبها أن يجبي كل سنة من فلاحي الضياع نحو أربعة آلاف دينار، وبسبب ذلك خربت معاملة القدس، فعوض النائب عن ذلك ونادى بإبطال هذه المغارم، ونقشه على حجر بالمسجد، فتباشر الناس بأيامه، ورجوا أن يزيل الله عنهم به ما هم فيه من الجور ...)[١٢٤].

وعانى الفلاحون، في بيت المقدس وما حولها أيضاً من نظام إقطاعات زعماء العربان والذي كان سائداً في العصر المملوكي. فقد أعطت الدولة المملوكية كثير من زعماء العربان إقطاعات مقابل ما يقدمونه لها من جهود حربية في حروبها ضد المغول والفرنجة (الصليبيين). واستغل زعماء العربان السلطات الممنوحة لهم في إقطاعياتهم فأساءوا معاملة الفلاحين. وإذا وضعنا في الاعتبار، زيادة هجمات البدو، في العصر المملوكي الثاني، على قرى الفلاحين في فلسطين عامة، وبيت المقدس وما حولها خاصة، لعرفنا السبب وراء هجرة كثير من الفلاحين لقراهم. ويشير مجير الدين الحنبلي لتلك الحقيقة في معرض حديثه عن سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م أيام السلطان الأشرف قاتيباي حيث يقول: (إن أمير عرب جرم قصد أن يجدد مظلمه على الفلاحين بجبل القدس الشريف ويأخذ منهم مالاً ... فهجروا أراضيهم التي أصبحت تعرف بالخربة)[١٢٥].

وعموماً، ظلت الآلات والحيوانات المستخدمة في الزراعة في بيت المقدس وما حولها هي نفسها التي ظلت تستخدم على مر الزمن. فقد كان الفلاح يستخدم محراثاً خشبياً يجره ثور وحمار، في حرث الأرض، وأحياناً كان يستخدم البقر أو الجاموس في جر المحراث. وكانت الحمير تشكل بالنسبة للفلاح في بيت المقدس في العصر المملوكي أهم الممتلكات التي يحرص عليها، فعليها يحمل أثقاله فضلاً عن قيامها بالعمل في الحقل، إلى جانب استخدامها في التنقل إلى الأماكن البعيدة.

النشاط الصناعي:

شهدت مدينة بيت المقدس طوال العصر المملوكي نشاطاً في المجال الصناعي تمثل في ازدهار بعض الصناعات مثل: صناعة استخراج زيت الزيتون، وصناعة

الشمع، وصناعة المنسوجات القطنية، وصناعة السكر وغيرها من الصناعات المحلية. والواقع، فإن بعض الصناعات في المدينة ارتبطت بكثرة أعداد المماليك فيها، إذ كونوا قوة شرائية كبيرة لبعض المنتجات كالملابس، والأثاث والأطعمة.

وتذكر المصادر أن مدينة بيت المقدس شهدت في فترة حكم المماليك نشاطاً عمرانياً هائلاً، بحيث أصبحت المدينة مركزاً للعمالة المتخصصة في بناء المدارس، والمساجد، والتحصينات، والربط، والزوايا، ولعمارة قنوات المياه وبناء الأسبلة والحمامات وغيرها. واستخدم في هذه المنشآت كثير من البنائين، والحجارين، والنجارين وأصحاب الحرف ذات الصلة بالعمران. وكان من أهم نتائج تلك الحركة العمرانية أن نشطت عملية قطع الأحجار من المحاجر المنتشرة في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها. ويورد عدد من الرحالة الأجانب، الذي زاروا بيت المقدس زمن المماليك، أن جبل صهيون كان منطقة رئيسة لقطع الأحجار في المدينة[١٢٦]. كذلك أشار الرحالة إلى وجود عدد كبير من المحاجر في وادي القدرون، الذي يقع بين جبلي موريا والزيتون.

ومن الصناعات التي اشتغل بها عدد كبير من سكان بيت المقدس والمناطق المجاورة لها، صناعة عصر واستخراج الزيت من الزيتون. ويرتبط بهذه الصناعة صناعة أخرى انتشرت في المدينة وهي صناعة الصابون. وقد أشار الرحالة بيركارد إلى أن المشتغلين بصناعة الصابون في بيت المقدس كانوا يجلبون مادة البوتاس الضرورية لتلك الصناعة من الرملة[١٢٧].

وكانت صناعة الشمع من الصناعات المزدهرة طوال العصر المملوكي، إذ كان الشمع المقدسي مرغوباً لدى الأجانب والحجاج المسيحيين الذي يوقدون الشموع داخل كنيسة القيامة طوال أيام الأعياد والاحتفالات الدينية. كذلك ازدهرت في بيت المقدس بعض الصناعات الخفيفة التي ارتبطت بمواسم الحج المسيحي، ومن هذه الصناعات الحفر على خشب الزيتون. وقد تخصص في تلك الصناعة المسيحيون المحليون من الطوائف المقيمة في المدينة[١٢٨]. ومن الصناعات التي ارتبطت بمواسم الحج أيضاً، صناعة المشغولات الفضية والتي يصفها ابن شاهين (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) بقوله: (القدس مدينة شريفة عظيمة يعمل فيها فضة ميناء تجلب منها إلى سائر البلاد وأوصافها كثيرة)[١٢٩].

وإضافة لما ذكرناه، ازدهرت في بيت المقدس طوال العصر المملوكي صناعة المنسوجات القطنية والحريرية التي تخصصت فيها بعض الأسر المقدسية(١٣٠)، كما تخصصت بعض الأسر النصرانية في صناعة النبيذ.

النشاط التجاري والأسواق:

إن الارتباط بين الحياة التجارية في مدينة بيت المقدس وبين نواحي الحياة المختلفة من زراعة وصناعة وغيرها ارتباط وثيق. والملاحظ أن فترة حكم دولة المماليك الأولى (البحرية) تختلف تماماً عن فترة حكم دولة المماليك الثانية (البرجية) وهذا ما يجمع عليه كثير من المؤرخين. فقد شهدت فترة حكم دولة المماليك الأولى نشاطاً كبيراً في مجال العمران في بيت المقدس تمثل في بناء عدد هائل من المدارس والزوايا وغيرها من المؤسسات الخيرية فضلاً عن أن الأوقاف السخية التي أوقفت على تلك المؤسسات كانت مورداً اقتصادياً هاماً للمدينة، مما كان له أثر كبير في انتعاش الحياة الاقتصادية. ونجد في المصادر العربية إشارات كثيرة عن مظاهر هذا الانتعاش الاقتصادي والذي شمل النشاطات الزراعية والتجارية أيضاً، بعكس ما تردده المصادر عن سوء الأوضاع في دولة المماليك الثانية. وينبغي أن نستثني من هذا الإطار العام فترات الاضطرابات والثورات والتي كانت لها تأثيرات سلبية على النشاط التجاري في المدينة.

ومن أهم السلع التي اشتغل تجار بيت المقدس في تجارتها: الزيتون، وقصب السكر، والكروم، والقمح، والشعير، والمنتوجات المحلية المصنوعة في المدينة وما حولها من القرى. وهنالك إشارات في المصادر العربية وكتابات الرحالة الأجانب توضح أن بعض تجار بيت المقدس تخصصوا في العصر المملوكي في تجارة التوابل التي كانت تأتي من يافا(١٣١). وكان في بيت المقدس سوق خاصة لتجارة التوابل عرفت باسم " سوق التوابل " أو " شارع التوابل "(١٣٢). ويذكر الرحالة كازولا أن بعض التجار المقادسة كانوا يجلبون كميات كبيرة من الأسماك من يافا لبيعها في السوق المخصصة لها في مدينة بيت المقدس(١٣٣). واشتغل كثير من اليهود في مدينة بيت المقدس بتجارة الحرير الذي كان يجلب من دمشق. كذلك اشتغل بعض التجار

بالتجارة في الأعشاب النباتية والعقاقير الطبية المستوردة من مصر أو دمشق(١٣٤). وأشارت المصادر العربية إلى استيراد تجار بيت المقدس كميات هائلة من السلع الاستهلاكية مثل: الأرز، والعدس، والفول وغيرها، من مصر وبلاد الشام، لبيعها في المدينة.

وتخصص بعض التجار المقادسة في تصدير بعض المنتجات المحلية إذ اشتغلوا بتصدير زيت الزيتون والصابون الفاخر. وكانت الصادرات من هاتين السلعتين تصدران عن طريق البحر من يافا، أو عن الطريق البري الذي كان يربط بين بيت المقدس ومصر عبر صحراء سيناء مروراً بغزة والخليل وبيت لحم(١٣٥).

وارتبط بالنشاط التجاري في مدينة بيت المقدس خلال العصر المملوكي ظهور عدد كبير من الأسواق. وفي الحقيقة، فقد تعددت الأسواق في المدينة تعدداً ظاهراً من حيث طبيعة تلك الأسواق والهدف الذي تعقد من أجله أو السلع التي كانت تباع فيها، إلا أنها تشابهت فيما بينها من حيث التخطيط والنظام.

كانت الأسواق في مدينة بيت المقدس من حيث التخطيط، عبارة عن مجموعة من الشوارع الطويلة المتوازية المسقوفة وتقفل بأبواب في مداخلها. وتمتد الحوائط المنخفضة على جانبي السوق لعرض البضائع، كما أن الأسواق كانت لها أسقف من القماش يمكن تحريكها تبعاً لفصول السنة(١٣٦). ويعتبر الرحالة كازولا من أكثر الرحالة الذين وصفوا أسواق بيت المقدس في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي إذ يقول: (ومما أدهشني حقاً مشاهدة تلك الأسواق، فهي طويلة وعبارة عن شوارع مسقوفة تمتد إلى مسافات بعيدة، وعلى جانبيها الدكاكين المليئة بالسلع والبضائع المختلفة ... واستخدمت الدكاكين أيضاً كمحلات للعمل ومراكز للصناعة حيث شاهدت أماكن للغزالين والدباغين والصباغين والخياطين وكثير من المسيحيين المشتغلين بالصياغة)(١٣٧).

ونجد في المصادر العربية المعاصرة إشارات لوجود نوع من الأسواق الذي يمكن أن نسميه الأسواق ذات الأنشطة المتعددة في بيت المقدس. ويشير ابن شاهين (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) إلى تلك الأسواق بقوله: (وبالقدس الشريف أسواق كثيرة من جملتها ثلاث قصبات على صف واحد قيل إنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها)(١٣٨).

ويؤكد مجير الدين الحنبلي وما ذكره ابن شاهين إذ يقول: (الأسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل، وهما من بناء الروم ممتدة قبلة بشام ومن بعضها إلى بعض منافذ، فالأول منها الغربي سوق العطارين .. والذي يليه هو الأوسط لبيع الخضراوات والذي يليه لجهة الشرق لبيع القماش وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى الشريف، وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء في بلدة من البلدان وأن ذلك من المحاسن التي لبيت المقدس)(١٣٩).

وكانت أسواق بيت المقدس مقسمة حسب السلع التي تباع فيها، وغالباً ما كان السوق يحمل اسم السلعة التي يتخصص السوق في تداولها. وكان سوق القطانين مجاوراً لباب المسجد الأقصى من جهة الغرب، ووصفه المقريزي بقوله: (وهي سوق في غاية الارتفاع والإتقان لم يوجد مثله في كثير من البلاد)(١٤٠). ومن أسواق بيت المقدس المشهورة " سوق الطباخين " الذي تباع فيه جميع أصناف الأطعمة، و " سوق العطارين "، و " سوق الزيت "، و " سوق السمك " وغيرها. ومن الأسواق التي حملت أسماء من أنشأوها، سوق الفخر، نسبة إلى الأمير فخر الدين، وهو سوق كانت توجد به المصابن التي يعمل فيها الصابون في بيت المقدس(١٤١).

وقد وصفت لنا المصادر العربية المعاصرة وكتابات الرحالة الأجانب أسواق بيت المقدس في العصر المملوكي. فقد ترك لنا الرحالة كازولا وصفاً شيقاً لسوق الطباخين، إذ يقول: (وهي سوق في شارع طويل يمتد إلى مرمى البصر وقد أخبروني أن لا أحد من أهل القدس يطهو طعامه في منزله، وكل ما يشتهيه الفرد من طعام يجده في تلك السوق)(١٤٢). ويؤكد الرحالة فابري ما أورده كازولا عن سوق الطباخين إذ يقول: (زرت صباح اليوم الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٣م سوق الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة ... والقوم يتباعون طعامهم جاهزة. والطهاة ماهرون نظيفون .. وفي السوق يعرض الطهاة اللحوم بشكل نظيف زائد عن الحد)(١٤٣).

كذلك وصف لنا مجير الدين الحنبلي سوق الزيت في بيت المقدس فذكر بأنها كانت في المنطقة المواجهة لباب الناظر، أحد أبواب المسجد الأقصى من جهة الغرب، ووصف الحنبلي نشاط تلك السوق وكيف أن أصحاب المصابن يشترون منها كميات كبيرة من الزيت لصناعة الصابون[١٤٤].

ومن أسواق بيت المقدس المشهورة "سوق السمك"، حيث كانت الأسماك من أهم السلع التي يستوردها سكان المدينة من جهات نهر الأردن ومن سواحل البحر الأبيض المتوسط. وكان سوق السمك يقع قرب أحد أبواب بيت المقدس المسمى "باب السمك" إلى الشمال من سور المدينة. وكان يعرض في هذا السوق أيضاً السمك المجفف المستورد من مصر، والذي كان يعتبر من الأطعمة الرخيصة والمفضلة للحجاج المسيحيين[١٤٥].

وبالإضافة إلى الأسواق المذكورة أعلاه، عرفت بيت المقدس نوعاً من الأسواق الموسمية المرتبطة في الغالب بقدوم الحجاج المسيحيين. ومن تلك الأسواق، السوق التي كانت تعقد في الفناء الواسع الواقع أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة، وتباع فيه الحلى، والمسابح، والتحف الشرقية، وصور القديسيين[١٤٦]. ويذكر الرحالة بيرو تافور (Tafur)، الذي زار بيت المقدس سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٦م، أن المسيحيين المحليين، وبخاصة الروم، كانوا يدخلون كنيسة القيامة ويبيعون الأطعمة للحجاج المسيحيين، كما أن كثيراً من التجار المسلمين كان يسمح لهم بدخول الكنيسة بعد انتهاء القداس(Service)، لعرض بضائعهم على هؤلاء الحجاج[١٤٧].

كذلك ارتبط بالأعياد والاحتفالات المسيحية قيام بعض الأسواق التي تخصصت في بيت السلع المستخدمة في تلك الأعياد. ومن الأمثلة على ذلك "سوق السعف" الذي كان يباع فيه سعف النخيل للحجاج المسيحيين. وكان هذا السوق يقع جنوبي كنيسة القديس ستفين (St. Stephen) ويتجه شرقاً من شارع البطريرك إلى شارع التوابل ماراً بكنيسة القديسة مريم اللاتينية (St. Mary of the Latins)[١٤٨]. كذلك كان الحجاج يشترون المزامير المصنوعة في بيت المقدس من سوق خاص تقع في شارع بالقرب من خان الزيت في الطريق المؤدية إلى كنيسة القيامة[١٤٩].

ومن الأسواق التي عُرفت في بيت المقدس في العصر المملوكي، وكانت مرتبطة بموسم قدوم الحجاج المسيحيين، ما يذكره الرحالة فابري أنه عقب نزول الحجاج بمدينة يافا: (يأتيهم بعض السكان الفقراء يحملون قشاً وبوصاً رطباً يشتريه الحجاج ليناموا عليه ... ثم يأتي تجار من الرملة والقدس ومعهم العطور مثل ماء الورد والبلسم والمسك ... ثم يأتي تجار آخرون كانوا يقلون البيض بالزيت وبعضهم يحمل الرغيف والماء المثلج والفواكه)[١٥٠]

ونجد إشارات لسوق موسمي آخر كان يعقد في بيت المقدس في الخامس عشر من شهر سبتمبر كل سنة، وهو السوق الذي كان يفد إليه التجار الإيطاليين لشراء القرنفل، وجوز الطيب، والفلفل، والبهار، والبخور، والكتان، والزجاج، والملابس وغيرها من السلع المجلوبة من الهند والصين ومصر[١٥١].

كذلك عرفت بيت المقدس في العصر المملوكي بعض الأسواق الدورية التي كانت تقام مرة كل أسبوع، ويقصدها أهل الريف والبدو والقرى المجاورة لبيع محصولاتهم وشراء مستلزماتهم. وغالباً ما كانت هذه الأسواق تنعقد في الأماكن المكشوفة الواسعة قرب بوابات المدينة[١٥٢].

وإلى جانب الأسواق المذكورة، عرفت مدينة بيت المقدس الباعة المتجولين الذين كان بعضهم يفترشون الأرض في الأسواق لبيع بضائعهم في حين يتجول أغلبهم في الشوارع والحارات يحملون بضائعهم. وقد أشار بعض الرحالة الأوربيين لظاهرة كثرة الباعة المتجولين في بيت المقدس في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[١٥٣].

وقد خضعت الأسواق في مدينة بيت المقدس لرقابة الدولة المملوكية التي تمثلت في عدة أشكال، منها أن كان لكل سوق " شيخ " يعين من قبل نائب السلطنة ويختار من أعيان التجار. وكان الشيخ مسؤولاً عن النظام في السوق، ومنع الاحتيال، وجمع الضرائب التي تفرض على أهل السوق[١٥٤]. كذلك وجد من سموا " العرفاء "، والذين كانوا بمثابة مساعدين للمحتسب. ويذكر ابن الأخوة أن العرفاء كان: (يشترط فيهم أن يكونوا على درجة كبيرة من العفة والصيانة والنهضة،

والشهامة، كما أن المحتسب كان يعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون في طلب الغرباء)[١٥٥].

ومن المؤسسات التجارية التي عرفت ببيت المقدس وكان تؤدي مهمة الأسواق أيضاً، القيساريات، والخانات، والفنادق، والوكالات. ولم تعطنا المصادر المعاصرة فروقات واضحة بين تلك المؤسسات ولكنها اشتركت جميعها في كونها ساعدت على تنشيط التجارة في المدن في العصور الوسطى. وكانت القياسر أمكنة لإقامة التجار إضافة لكونها مخازن لبضائعهم. وقد وصف لنا ابن فضل الله العمري (ت ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) أحد قيساريات بيت المقدس، وهي القيسارية التي أنشأها الأمير سيف الدين تنكز، والغرض من إنشائها بقوله: (وتشتمل على صفي حوانيت، بعضها وقف على الحرم، وبعضها وقف على المدرسة والخانقاة التنكزية)[١٥٦].

أما الخان، فهو مبنى ضخم يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطى تحفظ فيه البضائع، ويقيم التجار فيه أيضاً، كما يجدون فيه المأوى لدوابهم. وحتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، تعددت الخانات في المدن التجارية وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية[١٥٧]. ووجدنا في بيت المقدس في العصر المملوكي بعض الخانات التي كانت تخدم التجارة الداخلية والخارجية. أما تجارة العبور (Transit Trade)، فقد كانت لها خانات أقيمت خارج المدينة. ويصف لنا مجير الدين الحنبلي بعض خانات بيت المقدس مثل: " خان الفحم "، الواقع في الشارع الرئيسي للمدينة، وهو كما يورد: (خان عظيم وُقف على مصالح المسجد الأقصى يؤجر في السنة بنحو أربعمائة دينار، ويباع فيه أصناف من البضائع)[١٥٨]. كذلك أشار مجير الدين إلى خانات أخرى في نفس الشارع مثل: " خان الصرف " الذي كان مخصصاً للصيارفة الذين يقومون باستبدال العملات المختلفة وتحرير الصكوك للتجار[١٥٩]. وكانت الصكوك عبارة عن سندات مالية مؤجلة الدفع على آجال طويلة تسدد بعد بيع البضائع. أما الخانات التي كانت مخصصة لتجارة العبور، فقد أشار المقريزي إلى بعضها مثل: " خان الظاهر بيبرس "، الذي بني سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، ويقول عنه: (وأمر السلطان ببناء خان خارج البلد ونقل إليه من القاهرة باب القصر المعروف بباب العبيد)[١٦٠].

كذلك كانت الفنادق من المؤسسات الهامة لخدمة التجارة في بيت المقدس. ولفظ فندق مأخوذة من الكلمة اليونانية (Pandokeion)، والتي نقلت إلى اللغة الإيطالية، لتدل على المبنى الذي أسفله مخازن وأعلاه حجرات لسكنى التجار الأجانب[١٦١]. ويرجح بأن الفنادق في العصر المملوكي كانت تقدم من السلاطين كهبة للتجار الأجانب وتستطيع الدولة استردادها وقت ما تشاء. ويشرف على الفندق موظف يعرف باسم " الفنداقي ". وكان الفندق في الغالب الأعم عبارة عن بناء من طابقين، وله حوش واسع حيث توجد المخازن. وكان يسمح للحجاج الأجانب باستخدام الفنادق في بيت المقدس لعرض بضائعهم إضافة لنزولهم فيها أيضاً[١٦٢].

وفي الحقيقة، فقد لعب الحج إلى بيت المقدس دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية في المدينة. والواقع أن الحج إلى بيت المقدس كان قد تطور عبر العصور من مجرد طقس فردي ليصير غفراناً لبعض الذنوب. ومنذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ومع اعتناق أعداد كبيرة للنصرانية في البلقان وروسيا وشرق أوربا نتيجة جهود الكنيسة الرسمية البيزنطية، زادت ظاهرة الحج إلى المدينة المقدسة زيادة هائلة كما ذكرنا سابقاً. ومن جانبها قامت الكنيسة الكاثوليكية، ومن خلفها البابوية والأديرة الرئيسة في غرب أوربا، بتشجيع الحج إلى بيت المقدس لغفران بعض الذنوب الصغيرة. وفي العصر المملوكي، كان الحجاج يرتدون ثياباً خاصة تميزهم عن غيرهم من زوار بيت المقدس، فكان الواحد منهم يرتدي قباء أغبر اللون كما يلبس حزاماً عريضاً في وسطه عليه صليب أحمر، ويحمل عصا وكيساً.

وخلال العصر المملوكي، ونتيجة ازدهار الحج إلى بيت المقدس، تعددت الطرق البحرية والبرية إلى فلسطين. وكانت الموانئ الإيطالية الرئيسة: جنوا، والبندقية، وبيزا، ومرسيليا، وبيرنزدي (Brinsdi)، هي الأماكن التي تبحر منها السفن المحملة بالحجاج من أوربا إلى فلسطين. أما الحجاج الذين يصلون عن طريق مصر، فكانت السفن تجلبهم إلى ميناء دمياط، ومنها يسلكون الطريق البري الصحراوي من القاهرة إلى بيت المقدس[١٦٣]. أما حجاج روسيا والبلقان والأرمن، فكانوا يسلكون الطريق البري عبر جبال القوقاز وتركيا الحالية إلى بيت المقدس[١٦٤]. وظلت ميناء يافا طوال العصر

المملوكي ميناء لمدينة بيت المقدس، ينزل بها الحجاج المسيحيون القادمون بحراً قبل أن يأخذوا الطريق البري إلى بيت المقدس.

وقد اهتمت الدولة المملوكية بزيارة الحجاج المسيحيين لفلسطين عامة، ولبيت المقدس خاصة، لأسباب سياسية واقتصادية. أما الأسباب السياسية، فمن المرجح أن السلاطين المماليك رأوا في السماح لهؤلاء الحجاج بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين فرصة للدعاية لهم في الغرب الأوربي. أما من الناحية الاقتصادية، فقد كان الحجاج المسيحيون ينفقون أموالاً طائلة في زياراتهم للأماكن المقدسة في فلسطين. وفيما يتصل ببيت المقدس بالذات، كان الحجاج يقضون ما بين ثمانية إلى عشرة أيام في المدينة، يدفعون خلالها رسوماً مختلفة ذكرتها بعض كتابات الرحالة الأوربيين. فقد كان على كل حاج أن يدفع رسوماً للسلطات المملوكية في بيت المقدس مقابل زيارة الأماكن المقدسة العديدة في المدينة. ويذكر سوريانو (Suriano) أن كل حاج كان يدفع ١٣,٥ دوكات[١٦٥]، وهو عملة ذهبية كانت تضربها جمهورية البندقية الإيطالية التجارية. وتذكر مصادر أخرى أن إجمالي ما يدفعه الحاج بلغ (١٧) دوكات[١٦٦]. ويرى بعض الدارسين أن تلك النفقات كانت تصل في مجموعها إلى (٢٢) دوكات نظير الإقامة والضيافة في بيت المقدس[١٦٧]، وتشمل تلك النفقات الرسوم التي كانت تدفع لنائب السلطنة في بيت المقدس وتعرف باسم " ضريبة السلطان " أو " موجب السلطان " ووصلت إلى (٧) دوكات في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وشملت النفقات أيضاً ما كان يدفع للمترجمين، ولحارس باب كنيسة القيامة، ولحارس برج سليمان، وللمرشد الذي يقوم على مرافقة الحجاج. ورغم الاختلاف في تقدير المبالغ التي كانت تفرض كرسوم على الحجاج، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن تلك الرسوم كان يدفعها أيضاً أتباع الطوائف المسيحية الشرقية الذين يأتون لزيارة المدينة.

والمهم، أن موسم الحج كان يمثل فترة انتعاش اقتصادي لمدينة بيت المقدس لأن الحجاج كانوا يصرفون أموالهم في تأجير الدواب لنقلهم من يافا إلى بيت المقدس، كما كانوا يستأجرون الخيام لسكناهم. كذلك كان الحجاج يصرفون الأموال لسد حاجياتهم من الأطعمة والأشربة يومياً، إضافة لشرائهم

التحف والهدايا والتماثيل وغيرها. هذا بالإضافة إلى أن المقادسة كانوا يعملون كتراجمة للحجاج مقابل أجور يتفقون عليها معهم، زيادة على أجورهم كمرشدين[١٦٨]. وكان الحجاج ملزمين بدفع كثير من الهبات في الأماكن المقدسة التي يزورنها. ولعل كثرة تلك المبالغ هي التي دفعت كازولا (Casola) إلى القول أنه كان على كل حاج من الحجاج المسيحيين أن يحمل معه ثلاث حقائب: (حقيبة من الصبر، وحقيبة من الإيمان، وحقيبة من النقود)[١٦٩].

المكوس والضرائب في بيت المقـدس

يرى بعض الباحثين أن السلاطين المماليك لم يفرضوا أية مكوس أو ضرائب على سكان مدينة بيت المقدس، وبنوا رأيهم هذا على إشارة وردت عند ابن شاهين مفادها أنه: (لم يؤخذ من القدس أية مكوس بخلاف جميع البلاد التي خضعت لحكم سلاطين المماليك)[١٧٠]. وفي تقديرنا، فإن ابن شاهين كان معاصراً للسلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م)، الذي اشتهر بتدينه الشديد، وربما دفعه ذلك التدين لرفع المكوس عن المدينة في فترة سلطنته، ولكن إذا نظرنا إلى مصادر أخرى، فإننا نجد ما يؤكد وجود مكوس وضرائب على مدينة بيت المقدس زمن حكم المماليك. فالمؤرخ أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) يذكر في معرض حديثه عن حوادث سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٢٣م بأن السلطان الناصر محمد بن قلاوون: (قام بإبطال المكوس والضرائب عن سائر أصناف الغلال بجميع بلاد الشام)[١٧١]. كذلك يؤكد مجير الدين الحنبلي أن المكوس كانت تؤخذ في بيت المقدس في الفترة السابقة لحكم السلطان جقمق. ففي حديثه عن نائب القدس الأمير شهاب الدين أحمد اليغوري أنه: (وعندما ولاه السلطان الظاهر برقوق نظر الحرمين ونيابة السلطنة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام سنة ٧٩٦هـ ... أبطل المكوس والمظالم والرسوم التي أحدثها النواب قبله)[١٧٢]. وفيما أورده مجير الدين الحنبلي تأكيد قاطع على أن المكوس كانت موجودة في بيت المقدس.

وطالما أننا أكدنا على وجود مكوس وضرائب كانت تؤخذ من سكان بيت المقدس خلال العصر المملوكي، إلا أننا نعود ونذكر بأن سياسة السلاطين عموماً كانت الحرص على تأكيد سياساتهم الدينية القائمة على رفع المظالم والمكوس عن أهل المدينة والتخفيف عنهم. ونجد في المصادر العربية إشارات كثيرة تدلل على صدق هذا الرأي. فالمؤرخ مجير الدين الحنبلي مثلاً كثيراً ما يشير إلى رفع المكوس والمظالم عن سكان بيت المقدس، ومن ذلك ما أورده عن السلطان الأشرف قاتيباي الذي عندما زار المدينة، سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م: (اشتكى الناس

الأمير جار قطلي نائب القدس، ورفعت فيه القصص بسبب ما تعمده من الظلم والجور، فطلبه السلطان وسمع فيه الشكوى، وأنصف الناس منه وأمره أن يدفع لهم ما أخذه منهم ... فدفع لكل من أخذ منه شيئاً)[١٧٣].

ويرى لابيدوس (Lapidus) أن المكوس كثرت في نهاية الدولة المملوكية نتيجة اضطراب أحوال الدولة الاقتصادية مما اضطر السلاطين لإيجاد المال عن طريق فرض المكوس الباهظة[١٧٤].

هذا، ونجد في المصادر العربية مسميات بعض الضرائب والرسوم التي كانت تجبى في بيت المقدس خلال العصر المملوكي. ومن هذه الضرائب ما كان يسمى " الرسم " أو " الرسوم "، وهي نوع من الضرائب كانت تستخدم حيث يصعب تقدير نسبة العُشر على الماعز وأراضي الرعي، وكذلك على الطواحين والمعاصر[١٧٥]. ومن الرسوم التي عرفت في بيت المقدس " رسوم الولاية "، وهي عبارة عن مبلغ من المال يقوم بجبايته النواب من عرفاء الأسواق ومن عامة الناس. ويبدو أن تلك الرسوم كانت كثيرة بحيث تضرر منها كثير من الناس، إذ يذكر المقريزي في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م أنه: (وفي أيام السلطان فرج بن برقوق فرض نائب القدس على الناس مالاً، فأبوا عليه فتركهم حتى اجتمعوا بالمسجد الأقصى، وغلق الأبواب وألزمهم بالمال فاستغاثوا عليه، فلبس السلاح وقاتلهم، فقتل بينهم بضعة عشر رجلاً وجرح كثير، وفر النائب مهزوماً، فلما بلغ الخبر الأمير شيخ نائب الشام بعث عوضه إلى القدس)[١٧٦].

ونجد في كتاب: " الأنس الجليل " لمجير الدين الحنبلي إشارات كثيرة تؤكد تضرر الناس من الرسوم والمغارم في بيت المقدس. ومن أبرز الشواهد التي وردت في الكتاب أن الأمير ماماي الخاصكي حين ولي القدس سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م: (رسم على أكابر البلد منهم مالاً فأخذ من ناظر الحرمين أربعة بغال وحصاناً ... ومن شيخ الصلاحية ثلاثين ديناراً، ومن القاضي فخر الدين ابن نسبية أربعمائة دينار، ومن القاضي شهاب الدين الجوهري ثلثمائة دينار ... وحصل للناس منه شدة لذلك)[١٧٧].

ومن الرسوم أيضاً التي ذكرتها المصادر، ما كان يعرف برسم " نفقة الأجناد ". وقد ظهرت هذه الرسوم مبكراً منذ سلطنة الظاهر ركن الدين بيبرس،

إذ يذكر ابن عبد الظاهر أن السلطان: (حين علم بحركة أبغا ملك التتار أصدر مرسوماً أن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حل أهل القرية ويقومون بكفلهم)(١٧٨). كذلك يشير المقريزي أن السلطان الظاهر بيبرس فرض في سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م: (على أهل الذمة في بيت المقدس ديناراً برسم نفقة الأجناد ... إلا أن السلطان قلاوون أبطل ذلك الرسم سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)(١٧٩).

والراجح أن رسوم " نفقة الأجناد " ما كانت تفرض على أهل بيت المقدس إلا عند الضرورة القصوى، ذلك أننا لم نسمع بها مرة ثانية إلا بعد أكثر من قرن بعد سلطنة الظاهر بيبرس حين قام السلطان الأشرف برسباي يجمع من سكان كل من بيت المقدس والرملة ونابلس وحوران وغيرها من المدن:(مبلغ ثمانية عشر ألف دينار لقتال التركمان ... وتم جمعه وحصل للناس حيف من ذلك)(١٨٠).

وقد أكثر السلاطين المتأخرين من جمع الضرائب والمكوس من الناس لمجابهة النفقات العسكرية المتزايدة المتمثلة في قتال التركمان ثم العثمانيين. ويذكر ابن طولون (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) أن السلطان الأشرف قاتيباي: (أرسل في سنة ٨٩٢هـ أحد الأمراء ليصادر أهل البلاد الشامية كغزة والقدس وصفد وحماة وطرابلس وحلب)(١٨١). ويذكر نعيم زكي أن السلطان الغوري أكثر من فرض الضرائب على السكان ليغطي العجز في ميزانية الدولة (١٨٢). وكان من أهم إجراءات الغوري أنه طلب دفع الضرائب مقدماً لعدة سنوات، كما فرض على اليهود والنصارى أموالاً كثيرة. وبالطبع، كان لإجراءات الغوري آثاراً سيئة على سكان بيت المقدس مسلمين ويهود ونصارى.

وفي إطار رفع المظالم والمغارم عن سكان بيت المقدس، سعى بعض السلاطين المماليك المتأخرين لتخفيف وطأة تلك الضرائب رغم الأزمات الاقتصادية التي كانت تعاني منها الدولة. ويورد المقريزي أن السلطان ناصر محمد أبو السعادات بن قاتيباي أمر: (بإبطال ما جدد على القصابين والمتسببين بالقدس الشريف من الحمايات والمظالم وأن يبيعوا اللحم بسعر الله تعالى ولا يؤخذ لحم بغير قيد ثمن وذلك في السادس من شهر ذي القعدة الحرام من شهور سنة اثنين وتسع مائة)(١٨٣).

ومن الضرائب التي وجدت في بيت المقدس في العصر المملوكي ما عرف بـ: "مقرر السجون"، وهي المبالغ التي كان يدفعها السجين للسجان وقدرها ستة دراهم غير ما يغرمه حتى ولو تم الإفراج عنه بعد ساعة من سجنه. وقد وصفها المقريزي بقوله: (ولو لم يقم به إلا لحظة واحدة، أخذ منه المقرر)(١٨٤).

وهناك ضرائب أخرى أشار إليها المقريزي مثل: المقررات على المسابك، ودار الضرب، وما يتحصل من دار الوكالة، ونصف متحصل كنيسة القيامة، وإن لم يذكر لنا مقدار تلك الضرائب والمقررات(١٨٥).

وكانت الجزية، أو الجوالي، من الأموال التي تؤخذ في بيت المقدس من أهل الذمة، من يهود ونصارى، البالغين منهم دون النساء والصبية والرهبان والمجانين. وكان يختلف مقدارها بحسب دخل الشخص منهم، ويرجح بأنها تراوحت ما بين عشرة دراهم وخمسة وعشرين(١٨٦). ويذكر ابن طولون بأن الجزية كانت تحصل من أهل الذمة أواخر كل سنة هجرية لا شمسية ويضاف إلى كل جزية درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين(١٨٧). كما تذكر بعض المصادر أنه كان للجزية ناظر يقوم بتحصيلها يوليه نائب السلطنة. ويذكر المقريزي أن الجزية كانت: (تستخرج سلفاً وتعجيلاً في غرة السنة)(١٨٨)، كما يورد ابن طولون أن أموال الجزية كانت في بداية العصر المملوكي يدخل بعضها لبيت المال بينما يخصص البعض الآخر للإنفاق على القضاة وأهل العلم(١٨٩). ويورد المقريزي أيضاً أن بعض الجزية كان أحياناً يرصد للقيام ببعض الأعمال العمرانية، ومن ذلك ما يرويه في حوادث سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م من أن السلطان المنصور قلاوون: (رسم أن تكون جوالي الذمة بالقدس وبلد الخليل وبيت لحم وبيت جالا مرصدة لعمارة بركة في بلد الخليل)(١٩٠). ويضيف المقريزي أن دخل الجوالي في بيت المقدس أصبح اعتباراً من سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، يضاف إلى مخصصات كبار الأمراء المماليك من الإقطاعيين كل حسب درجته وعدد أتباعه(١٩١). ويذكر المقريزي بأن هذا الوضع ظل مستمراً في بيت المقدس حتى نهايات العصر المملوكي الثاني وأن المبالغ المأخوذة من أهل الذمة: (ظلت في تناقص مستمر، إما بسبب تنقلهم من إقطاع إلى آخر، أو بسبب إسلام بعضهم ... بحيث أصبح كثير من العلماء والفقهاء ينادون بموجب تحصيلها شهرياً)(١٩٢).

كذلك ذكرت المصادر " المواريث الحشرية "، وهي الأموال التي تركها من لا وريث له، أو له وارث لا يستحق كل الميراث. وهي من الموارد المالية التي كانت تضاف إلى بيت المال. وقد ذكر القلقشندي أنه كان في بيت المقدس موظف يشرف على المواريث الحشرية أطلق عليه: " ناظر ديوان المواريث " ويعاونه في أداء مهامه عدد من الكتاب لكتابة أسماء المتوفين وما يتعلق بهم، وشهود، وشاد، ومشارف لتحصيل الإرث[١٩٣].

ومن الضرائب التي سادت أيام المماليك، ما عرف بالرمي، أو الطرح، وهي سياسة تقوم على احتكار السلاطين لبعض السلع وإلزام الناس بشرائها بالأسعار التي يحددونها. وقد مارس كثير من سلاطين دولة المماليك البحرية (الثانية) سياسات الرمي أو الطرح مما كان له أكبر الأثر في استمرار سوء أوضاع الناس. ولا يهمنا إلا ذكر بعض الشواهد على ما جرى في بيت المقدس، وتأثير تلك السياسات على أهل المدينة. ومن الأمثلة على ممارسة الطرح ما ذكره المقريزي في معرض حديثه عن حوادث سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، عن ابن الطبلاوي، نائب السلطنة في بيت المقدس: (فأخذ ابن الطبلاوي هذا في الأفحاش ... وطرح على الناس السكر الواصل من الغور)[١٩٤]. ويورد مجير الدين الحنبلي حوادث كثيرة لعمليات الطرح، ومنها ما ذكره في حديثه عن سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م أيام سلطنة الأشرف قاتيباي من أنه: (وحضر الأمير بمرسوم يرمي الزيت المتحصل من جبل نابلس على أهل بيت المقدس الخاص والعام من المسلمين واليهود والنصارى كل قنطار بخمسة عشر ديناراً ... وكان الزيت قبل ذلك من تقادم السنين ومضى الأزمنة يرد من جبل نابلس ويباع بالقدس بالسعر الواقع من غير حرج على أحد)[١٩٥].

ويورد المقريزي تفاصيل أوفى عن الأضرار التي لحقت بتجار بيت المقدس من سياسة احتكار بعض السلاطين لزيت الزيتون في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ويذكر المقريزي أنه بعد سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م: (قام نائب القدس وكتب أسماء أهل البلد في قوائم، وعين لكل إنسان قناطير معينة وأمرهم بشراء الزيت كل قنطار بخمسة عشر ديناراً وشدد على الناس وضربهم ضرباً مؤلماً وشرع يحمل كل واحد فوق طاقته ومن لم يطعه ضربه حتى كاد يهلك، ومن غاب

هجم على منزله وأخذ ما له من الأمتعة ومن لم يوجد له أمتعة أحضر زوجته وضربها وسجنها حتى تدفع ما على زوجها ... ومن لم يظفر بزوجته أحضر من يكون من أقاربه فإن لم يوجد له قريب أحضر من يكون من جيرانه ... وباع الناس أمتعتهم وثيابهم بأبخس الأثمان ويقي الناس يأخذون الزيت كل قنطار بخمسة عشر ديناراً ذهباً ويبيعون بمائتي درهم وخمسين درهماً فكانت الخسارة أكثر من الثلثين)[١٩٦].

ورغم المبالغة فيما أورده المقريزي عن قضية زيت الزيتون في بيت المقدس في عهد السلطان الأشرف قاتيباي، فإن سياسة الرمي أو الطرح كانت لها آثارها الضارة على الأوضاع الاقتصادية المتردية أصلاً في المدينة في أواخر حكم سلاطين المماليك.

المعاملات المالية في بيت المقدس

يورد القلقشندي عن بيت المقدس: (ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس على ما تقدم في معاملة دمشق)[١٩٧]. وواضح مما أورده القلقشندي أن بيت المقدس لم يكن لها نظام نقدي منفصل عن دولة السلاطين المماليك وإنما كانت المعاملات المالية فيها تتم بنفس فئات العملة المتداولة في الدولة المملوكية. ولا نجد في المصادر أية إشارة إلى أن أحد ولاة بيت المقدس، أو نوابها، قد قام بسك عملة خاصة. ويرى اشتور (Ashtor) أن الدينار الأشرفي، الذي ضربه السلطان برسباي، ظل هو العملة الذهبية في كل من مصر وبلاد الشام منذ بدايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وحتى نهاية حكم المماليك[١٩٨].

ويذكر ابن فضل الله العمري (ت ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)، أن المعاملات المالية في بيت المقدس على أيامه كانت: (الدراهم وثلثاها فضة والثلث نحاس ... وبها نوع من الدراهم السود والدرهم منها ثلث درهم ... والدرهم قيمته ثمانية وأربعون فلساً)[١٩٩].

ونجد في المصادر العربية إشارات أخرى مهمة عن كيفية المعاملات المالية في بيت المقدس خلال العصر المملوكي. فابن الهائم (ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م)، يورد أنه عندما كان مقيماً ببيت المقدس سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م: (كان التعامل إذ ذاك بالفلوس العددية، وكانت نوعاً واحداً كل ثمانين فلساً منها بدرهم، وكل حبة خمسة أفلس لأن الحبة عبارة عن نصف ثمن الدرهم في القدس بخلاف مصر حينئذٍ فإنها عبارة عن ثلث قيراط ... وما كانت الفلوس رائجة رواج النقود لعدم التعامل بها في شراء عقار ونحوه ... ثم دخلت الفلوس المصرية العددية القدس الشريف المعبر عنها بالجدد ... وصار التعامل في القدس بالنوعين ثم راجت الجدد على المعتق رواجاً كبيراً ... ولم يتعامل الناس بالدراهم ولا بالفلوس العتق إلا نادراً)[٢٠٠].

وتؤكد المصادر العربية المعاصرة، وخاصة ابن الصيرفي وابن إياس، ما أورده ابن الهائم عن سياسات السلاطين المماليك المتأخرين الاقتصادية وتأثيراتها السلبية على حياة الناس في الدولة. كما تؤكد المصادر المعاصرة القيمة المالية الفعلية للفلوس

وكيف أنها كانت تضرب من النحاس ولم يكن الناس ميالين للتعامل بها في المعاملات الاقتصادية الكبيرة كشراء الدور وغيرها، وإنما كان التعامل بها مقصوراً على شراء الأشياء التافهة القليلة الثمن.

والواقع، فإن بيت المقدس عانت، مثل غيرها من المدن المملوكية، من التلاعب في سك العملات سواء الذهبية أم الفضية إذ تجمع المصادر على انتشار التزييف وغش العملات النقدية. وكانت الدولة تلجأ للغش في العملات أحياناً عن طريق إنقاص القيمة الفعلية للعملة (devaluation) بأن تضيف معدناً خسيساً، مثل النحاس، للعملات الذهبية. وتورد المصادر، وبخاصة المقريزي، أن المعاملات المالية ظلت مستقرة منذ بداية عهد سلاطين المماليك نتيجة ثبات قيمة الدنانير والدراهم الظاهرية التي ضربها السلطان الظاهر بيبرس، وظل الحال على ثباته حتى حوالي سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م حين ضرب السلطان الظاهر برقوق الدراهم الحموية، فهو كما يقول المقريزي: (فلما تسلطن ... أكثر من ضرب الفلوس وأبطل الدراهم فتناقصت حتى صارت عرضاً ينادي عليه في الأسواق)[٢٠١]. وفي الحقيقة، فإن تغيير النقود ونقصان قيمة الفضة في الدراهم كان يصحبه كثير من القلاقل والاضطرابات الاقتصادية، وبخاصة في المعاملات في الأسواق والإيجار وأسعار السلع الضرورية وما إلى ذلك. ولا شك أن مدينة بيت المقدس تأثرت كثيراً بما كان يحدث في هذا المجال، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن عمليات التغيير المتواصل في قيمة العملة كان يصحبها نشاط واسع لمزيفي النقود ممن عرفوا في المصادر العربية باسم " الزغلية ". ويمكن اعتبار بعض السلاطين أنفسهم مسؤولين عن عمليات إنقاص قيمة النقود المتداولة بين الناس، فالسلطان الأشرف برسباي لم يكتفي باحتكار بعض السلع كالحرير والتوابل، بل عمد إلى إنقاص معدل العملة سواء الذهبية أو الفضية أو النحاسية، مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية. وقد حذا حذوه كثير من سلاطين القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، كما تذكر المصادر، مما ساعد على زيادة تعميق التدهور الاقتصادي الذي شهدته مصر وبلاد الشام.

وبما أن مدينة بيت المقدس كانت مدينة مقدسة للنصارى واليهود، فقد عرفت إلى جانب العملات المحلية، من دينار ودرهم وفلس، كثيراً من العملات

الأجنبية. وتنوعت النقود المتداولة فيها تنوعاً يتناسب مع العناصر والأجناس التي كانت تفد إليها. ويؤكد لنا كثير من الرحالة الأوربيين، الذين زاروا المدينة خلال العصر المملوكي، أن النقود الأوربية كانت متداولة في بيت المقدس ومعروفة. ولعل من أهم العملات الأجنبية المتداولة في المدينة الدوكات (Ducat) الذي كانت تضربه جمهورية البندقية الإيطالية التجارية. كذلك عرف التعامل بالفلورين (Flurin)، وهي عملة فضية كانت تضربها جمهورية فلورنسا الإيطالية. وكان التعامل بالدوكات أكثر شيوعاً بين الناس في بيت المقدس لثبات وزنه ونقاء معدنه من الذهب أكثر من الميل للتعامل بالفلورين[٢٠٢].

ومن العملات التي ذكرتها المصادر الأجنبية في بيت المقدس، العملات الفضية الألمانية التي وصفها الرحالة فيلكس فابري بأنها مصنوعة من الفضة الجيدة وعليها علامة الصليب[٢٠٣]. كذلك كان كثير من الحجاج الغربيين يجلبون معهم البيزنتة (Pisanta)، وهي عملة فضية كانت تعادل عشرة دراهم. وظل الدوكات، يليه الفلورين، أكثر العملات الأجنبية شيوعاً في بيت المقدس، وبلغ من درجة تداولهما أن السلاطين المماليك أنفسهم اعتبروهما عملات رسمية.

ويرى نعيم زكي أن ظاهرة التدهور الاقتصادي في نهاية الدولة المملوكية يرجع لعوامل معقدة ومتشابكة مثل: إهمال الإنتاج الزراعي، والاعتماد على التجارة الخارجية التي انهارت كلياً عقب نجاح البرتغال في الوصول إلى الهند مباشرة عن الطريق المباشر والدوران حول رأس الرجاء الصالح. والواقع، فإنه بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يعد البحر الأبيض المتوسط مركز التجارة الدولية وإنما تحول ذلك البحر والدول الواقعة عليه إلى مجرد مناطق عبور (Transit) للتجارة الدولية المجلوبة بواسطة البرتغاليين من الهند والصين والمراد بيعها ونقلها إلى أوربا[٢٠٤].

الأزمات الاقتصادية في بيت المقدس

شهدت مدينة بيت المقدس أزمات اقتصادية كثيرة خلال العصر المملوكي، وبخاصة في عصر دولة سلاطين المماليك الثانية (البحرية). وقد تعددت عوامل تلك الأزمات من عوامل سياسية واقتصادية. وسنكتفي بذكر أبرز فترات الأزمات الاقتصادية في المدينة مع ذكر العوامل المسببة لها حتى تكتمل الصورة في أذهاننا عن الحياة الاقتصادية:

١. كان النظام الإقطاعي هو النظام السياسي الذي ساد خلال فترة حكم المماليك وهو نظام كان يقوم على الأرض كمصدر للثروة، ولذلك كان من الطبيعي أنه حين تضطرب إنتاجية الأرض يحدث خلل كبير في مداخيل الطبقة العسكرية، كما يضطرب في نفس الوقت حال السواد الأعظم من سكان المدن. ولم تكن مدينة بيت المقدس استثناء من هذه القاعدة، إذ تذكر المصادر أنه حين كان يقل الإنتاج الزراعي في المدينة وما حولها من المناطق الزراعية المجاورة، تتأثر بعض الصناعات القائمة على الإنتاج الزراعي مثل صناعة الصابون وصناعة السكر.

وكان للنظام الإقطاعي أثر آخر على خلق الأزمات الاقتصادية أحياناً أخرى، ذلك أن التغير الدائم للأشخاص المقطعين، جعل كل مقطع يحرص على أن يجمع لنفسه ثروة طائلة دون الاهتمام بوسائل زيادة الإنتاج أو تحسين الأرض المنتجة. ومن أهم الآثار السلبية لتلك السياسة الاستنزاف الدائم للأرض الزراعية، إضافة إلى إرهاق الفلاحين، مما دفع الكثيرين منهم إلى الهجرة عن أرضهم وقراهم. ويمكن أن نذكر مثالاً لما حدث في بيت المقدس سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م، حين ولى الأمير دقماق نائباً على المدينة حيث: (تزايد ظلم دقماق نائب القدس الشريف وكثر طمعه وتلاشت أحوال المعاملة واختل نظامها ... وكثر السراق وأفحشوا في قطع الطرق وقتل الأنفس وبقي الناس في شدة)[٢٠٥].

ومن ناحية أخرى، كان لضعف سلطة السلاطين على العربان منذ بدايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، أكبر الأثر في خلق الفوضى والأزمات الاقتصادية، حيث صاروا يهاجمون القرى ويفرضون على أهلها الأتاوات. ونجد في المصادر إشارات كثيرة على هجمات العربان على مدينة بيت المقدس في عصر دولة السلاطين الثانية (البحرية).

٢. قد لعبت الأمطار دوراً هاماً في حياة سكان المدن في العصر المملوكي. وبالنسبة لبيت المقدس، ظلت الأمطار شريان الحياة لندرة موارد المياه الكافية فيها كما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن جغرافية المدينة في هذا الفصل، وكما يورد الحنبلي، فإذا كانت الأمطار في بيت المقدس كافية: (خرجت تلك السنة على خير ومن الله تعالى على عباده بمحصول الرخاء وتيسير الأقوات وانحطاط الأسعار وحصل الرفق للعباد)(٢٠٦). ولكن إذا امتنع المطر عن النزول، كانت العواقب وخيمة على المدينة كما يقول المقريزي: (أجدبت أراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة، لعدم نزول المطر في أوانه ونزح كثير من سكان هذه البلاد من أوطانهم وقلت المياه عندهم)(٢٠٧). ويصور لنا مجير الدين الحنبلي تأثير المطر على مدينة بيت المقدس سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م وما ترتب عليه من ارتفاع أسعار بعض السلع الضرورية إذ يقول: (اشتد الأمر ببيت المقدس وقلت الأقوات منه ووصل سعر القمح كل مد بدينار والشعير كل مد بعشرين درهماً ووقع الغلاء في كل الأصناف من الأرز والزيت والبصل وغير ذلك حتى في الخضروات وضج الناس إلى الله سبحانه وتعالى)(٢٠٨). ويصف مجير الدين الحنبلي انزعاج الناس في بيت المقدس من تأخر سقوط المطر فيقول: (فإذا مضى أغلب الشتاء ولم ينزل المطر انزعج الناس لذلك أشد الانزعاج وخرجوا إلى المسجد الأقصى ليستسقوا ويضجون بالدعاء إلى الله تعالى فضلاً عن مداومتهم على التهليل والتكبير بقبة الصخرة الشريفة، ثم ينصرفون، فإذا سقوا في يومهم أدركوا أن الله أغاث عباده، وإذا لم يسقوا جزعوا لذلك)(٢٠٩).

وكانت سياسة السلاطين المماليك تقوم على رفع المعاناة عن سكان بيت المقدس في حالات انحباس المطر وقلة الأقوات، وذلك بإرسال كميات من القمح من مصر إلى المدينة. والشواهد على ذلك كثيرة جداً في المصادر المعاصرة، نكتفي بذكر القليل منها. ففي سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م، تأخر سقوط المطر في بيت المقدس، فكثر الغلاء كما يقول ابن قاضي شهبة: (وجاءت الأخبار من القدس أن غرارة القمح بألف وأن الخبز لا يوجد وأن الماء قليل جداً ... وأنهم استسقوا بالقدس مراراً ووقع مطر ولكن لم تملأ منه الآبار ولا نفع لغير الزرع وأنهم في شدة زائدة)[٢١٠]. وبعد حوالي ثلاثة أشهر، يقول ابن قاضي شهبة أن السلطان أرسل بكميات من القمح إلى المدينة وترتب على ذلك: (ورد الخبر بانخفاض الأسعار بالقدس وأبيع القمح كل غرارة بثلاثمائة درهم إذ نقل من مصر إلى بلاد الشام قمح كثير)[٢١١]. ويبدو نزول سعر غرارة القمح ببيت المقدس واضحاً إذ انخفض من ألف إلى ثلاثمائة درهم، استناداً إلى ما أورده ابن قاضي شهبة.

٣. ومن العوامل التي ساعدت أيضاً على خلق بعض الأزمات الاقتصادية في بيت المقدس خلال العصر المملوكي، زيف النقود المتداولة بين الناس. وهذه الظاهرة كانت في الحقيقة واضحة منذ بدايات حكم سلاطين المماليك إذ يذكر أبو شامة في معرض حديثه عن حوادث سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م: (ابتلى الناس في هذه السنة بغلاء شديد عام في جميع الأشياء من المأكل والملابس وغيرها ... وبلغ رطل الخبز درهمين ورطل اللحم خمسة دراهم وأوقية القنبريس درهماً، والجبن درهماً ونصف. والثوم أوقية بدرهم والعنب رطل بدرهمين، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية وكانت كثيرة الغش)[٢١٢].

وإلى جانب انتشار ظاهرة تزييف النقود طوال أغلب العصر المملوكي، فإن بعض السلاطين أكثروا من ضرب الفلوس النحاسية، واختلفوا في تقديرها بالوزن، فحيناً يكون الرطل منها بستة دراهم، وأحياناً بأثني عشر درهم وأحياناً بدرهمين ونصف، وفي جميع هذه الحالات كان التجار والأهالي مرغمين على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الدولة

المملوكية. وتذكر المصادر أن كثيراً من تجار بيت المقدس كانوا يضطرون لإغلاق حوانيتهم خوفاً من بخس بضاعتهم.

٤. وكان تكرار انتشار الأوبئة والأمراض من العوامل التي ساعدت على خلق الأزمات الاقتصادية في المدن خلال العصر المملوكي. وفي بيت المقدس بالذات تعددت الأوبئة طوال العصر المملوكي، وخاصة عصر دولة المماليك الثانية، كما يتضح من المصادر العربية وكتابات الرحالة الأوربيين الذين زاروا المدينة. ويعتبر المقريزي من أكثر المصادر العربية التي ركزت على بيان تأثيرات الأوبئة والأمراض على حياة الناس الاقتصادية في بيت المقدس وغيرها من مدن فلسطين. وقد ذكر الرحالة الإيطالي سوريانو أن وباء الطاعون كان يتكرر حدوثه في بيت المقدس كل عشر سنوات تقريباً كما ذكرنا سابقاً.

٥. ومن العوامل التي ساعدت أيضاً في خلق كثير من الأزمات الاقتصادية في مدينة بيت المقدس، وبخاصة في عصر الدولة المملوكية الثانية، سوء الأحوال الاقتصادية في عاصمة الدولة في مصر نتيجة اضطراب الدخل الزراعي، وقلة الموارد المالية، فضلاً عن استنزاف خزانة الدولة في الحروب والفتن الداخلية والخارجية، والذي انعكس بصورة مباشرة في شكل البراطيل والمبالغ التي أصبحت تفرض لتولي كثير من الوظائف الرئيسة في المدينة[٢١٣]. ونجد في المصادر العربية المعاصرة إشارات كثيرة تفيد بكثرة الأعباء المالية التي أصبحت تفرض على نواب القدس لتقديمها للسلاطين أو نوابهم، كما نجد ما يوضح بجلاء، سوء أصحاب الحرف في المدينة نتيجة الأموال المفروضة عليهم من قبل النواب والمحتسب وغيرهما. ومن الشواهد على ذلك ما ذكره مجير الدين الحنبلي من أن السلطان الأشرف حين زار بيت المقدس سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م: (رُفع إليه بأنه كان يؤخذ من المحتسب مال لنائب القدس فيلزم منه تسلطه على الفقراء والمتسببين .. فرسم السلطان بإبطال تولية الحسبة من نائب القدس وإبطال ما هو مقرر على الوظيفة من الرشوة)[٢١٤].

هوامش الفصل الثالث

١. Ashtor, E., A social and economic history of the Near East in the Middle Ages, London, 1976, P. 259-288.
٢. Ibid, P. 290.
٣. Ibid, P.P. 291-297.
٤. Felix Fabri, The book of the wanderings of Felix Fabri, Vol. I, P. 245.
٥. Adler, E., Jewish Travelers, P. 235.
٦. Newett, Casola's Pilgrimage, P. 251.
٧. عن انتشار الطاعون المسمى "الفناء الكبير"، انظر على سبيل المثال:
٨. - المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٧٢٦، وص ٨٩١، وص ١٠٠٣.
٩. - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣٣، ص ٥٦.
١٠. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٥٠.
١١. Souriano, F., Treatise on the Holy Land, trans. from Italian by Bellorini, Jerusalem, 1948, P.10.
١٢. المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٩٣٩.
١٣. المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ٦٠٩.
١٤. محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (١-٤)، تحقيق محمد مصطفى، نشر جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٧٢م، ج٢، ص ١٠٤.
١٥. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٥٦ وما بعدها.
١٦. ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٢٨، ج١، ص ١٠٠، ج٢، ص ١٢١، ج٢، ص ٢٠٠، ج٢، ص ٢٣٥، ج٢، ص ٣١٢، ج٢، ص ٣١٩.
١٧. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٢.
١٨. ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج٢، ص ٦٤٩.
١٩. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، عني بنشره وتحقيقه علي الخاقاني، بغداد، ١٩٥٨م، ص ١٤٣.
٢٠. وانظر أيضاً:
٢١. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٥٦.
٢٢. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠٤.
٢٣. القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٢٤.
٢٤. Wolf-Dieter Hutteroth and kamal Abdulfattah, Historical geography of Palestine, Trans Jordan and Southern Syria in the Sixteenth centaury, Erlangen, 1977, P. 48.
٢٥. Souriano, F., Treatise on the Holy land, P. 209.
٢٦. المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٤٠.

٢٧. Felix Fabri, The book of the wanderings, Vol. I, P. 219.
٢٨. Rev. Henry Formly, A visit to the East, London, 1843, P. 228.
٢٩. Wolf-Dieter Hutteroth, Historical geography, p. 27.
٣٠. محمد بن أحمد بن جبير، تذكرة الأخبار في اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير)، دار الشروق العربي، بيروت، ١٩٦٤م، ص ١٠.
٣١. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص ١٥٣.
٣٢. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٠٥-٥٩١.
٣٣. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥١٢.
٣٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٥٦.
٣٥. ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص ٣٤٢.
٣٦. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٩٠.
٣٧. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٩٥ – ٥٣٧.
٣٨. Amnon Cohen and Bernard Lewis, Population and revenue in the towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton University Press, New Jersey, 1978, P. 34.
٣٩. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٠٢.
٤٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص ٥٥-٥٥٣.
٤١. Wolf – Dieter Hulteroth, Historical geography, P. 54.
٤٢. Runciman, S., The Christian Arabs of Palestine, Longman, London, 1970, p. 12.
٤٣. Felix Fabri, the Book of the wanderings, Vol. I, P. 339.
٤٤. Murphy O'connor, J., the Holy Land, Oxford University Press, 1980, Vol. I, P.P. 23-24.
٤٥. Runciman, The Christian Arabs, P. 28.
٤٦. رنسيمان، ستفن، تاريخ الحروب الصليبية، (١-٣)، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٩م، ج٣، ص ٧٥٢.
٤٧. ميخائيل مكس إسكندر، القدس عبر التاريخ – دراسة جغرافية تاريخية أثرية للمدينة المقدسة، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ١٢٤.
٤٨. Felix Fabri, the Book of the wanderings, Vol. I, P. 265.
٤٩. شمس الدين محمد بن علي بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢٩.
٥٠. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل ج٢، ص ٦٩١.
٥١. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٦٢٥ وما بعدها.
٥٢. Wolf-Leslan, "Ethiopian Itineraries", in Speculum, Vol. 34, No. 2, 1959, P.P. 125-140.
٥٣. أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مطبعة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٢٢-٢٥.

٥٤. Souriano, F., Treatise on the Holy Land, P. 3.
٥٥. Ibid, P. 4
٥٦. Ibid, P. 5
٥٧. أحمد دراج، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٥٦.
٥٨. بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٥.
٥٩. عطية القوصي، " صلاح الدين واليهود "، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٤، القاهرة (د.ت)، ص ص ٤٠-٨٢.
٦٠. Standshut, Jewish communities and the Muslim countries of the Middle East, Published by the Jewish Chronicle, London, 1950, P.2
٦١. Felix Fabri, the Book of the wandering, Vol. II, P. 226.
٦٢. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٠٢.
٦٣. أحمد دراج، المماليك والفرنج، ص ٣٦-٤٤.
٦٤. Marmorasch, Old and new places in Palestine, Syria and Lebanon, Jerusalem, 1946, P. 72.
٦٥. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٠٣.
٦٦. Marmorasch, Old and new places, P. 73.
٦٧. ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين، ط٢، بيروت ١٩٧٩م، ص ١٦٢.
٦٨. Newett, Casola's pilgrimage to Jerusalem, P. 96.
٦٩. Souriano, F., Treatise on the Holy land, P. 127.
٧٠. ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٥٤.
٧١. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٣٤-٦٣٦.
٧٢. Souriano, F., Treatise on the Holy land, P. 120.
٧٣. أحمد دراج، وثائق دير صهيون، ص ١١٤.
٧٤. أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١١٥.
٧٥. المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٨٩.
٧٦. أحمد دراج، وثائق دير صهيون، ص ١١٥.
٧٧. ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦.
٧٨. ابن إياس، المصدر السابق، ج٤، ص ١٩٨.
٧٩. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٦١.
٨٠. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٦١.
٨١. مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٠.
٨٢. ابن فضل العمري، مسالك الأبصار، ج٥، ص ٩٣.
٨٣. مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٨٧، ص ٤٠٧، ص ٤٠٨.
٨٤. Wright, J., Farly Travels, P. 168.

٨٥. Felix Fabri, The book of the wanderings, P.P. 285.

٨٦. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٤٢.

٨٧. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٣٥.

٨٨. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠٤.

٨٩. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨٣.

٩٠. أبو محمد عبدالله محمد بن إبراهيم ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٥٧.

٩١. أبو عبدالله محمد بن شهاب الدين المنهاجي السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ص ٥٥.

٩٢. عبدالغني النابلسي، الرحلة الأنيسية في الرحلة القدسية، طبع جريدة الإخلاص، القاهرة، ١٩٠٢م، ص ١٧.

٩٣. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٨٥.

٩٤. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤٠.

٩٥. زكريا محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٦٣.

٩٦. أبو الحسن علي الهروي، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل، دمشق، ١٩٥٣، ص ٢٨.

٩٧. القزويني: آثار البلاد، ص ١٦٣.

٩٨. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٠١.

٩٩. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠١.

١٠٠. الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٢٧.

١٠١. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص ٣٩.

١٠٢. ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٠.

١٠٣. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤١٠.

١٠٤. Wright, J., Early Travels, P. 174.

١٠٥. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص ٣٥.

١٠٦. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٦٨.

١٠٧. المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٤٢١.

١٠٨. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٢١.

١٠٩. القلقشندي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤١٥.

١١٠. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج١، ص ٨٠.

١١١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤١٦.

١١٢. القلقشندي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤١٧.

١١٣. Smith, J., Historical geography of Jerusalem, London, 1909, P.P. 13-16.

١١٤. شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.

١١٥. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢١٥.

١١٦. Smith, J., Historical geography, P. 18.

١١٧. ناصر خسرو، سفرنامة، ص ١٧.

١١٨. ناصر خسرو، المصدر السابق، ص ١٨.

١١٩. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٦٧٦.

١٢٠. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص٢١٧.

١٢١. Smith, J., Historical geography, P. 21.

١٢٢. ناصر خسرو، سفرنامة، ص ١٩.

١٢٣. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص ١٩٥.

١٢٤. Burchard of Mount Sion, A description of the Holy Land, trans. by Aubery Stewart, in (P.P.T.S.), Vol. VI, London, 1896, Reprint, New York, 1971, P. 81.

١٢٥. Smith, J., Historical geography, P. 118.

١٢٦. السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص ٨٣.

١٢٧. السبكي، المصدر السابق، ص ٨٤.

١٢٨. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٨٩.

١٢٩. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٤٠٥.

١٣٠. Wright, Early travels in Palestine, P. 5, P. 67, P. 84.

١٣١. Burchard of Mount Sion, A description of the Holy Land, P. 112.

١٣٢. Pero Tafur, Travels and adventures in the Holy Land, London 1926, P. 55.

١٣٣. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٢٣.

١٣٤. Lapidus, Ira. M., Muslim Cities in the later Middle Ages, Harvard University Press, 1967, P. 5.

١٣٥. Newett, Casola's pilgrimage, P. 243.

١٣٦. Ibid, P. 244.

١٣٧. Ibid, P. 247.

١٣٨. Adler, Jewish travelers, P. 152.

١٣٩. Lapidus, Muslim Cities, P. 36.

١٤٠. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٦٣٧.

١٤١. Newett, Casola's pilgrimage, P. 251.

١٤٢. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٢٤.

١٤٣. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٠.

١٤٤. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٨٩.

١٤٥. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٤٠١.

١٤٦. Newett, Casola's pilgrimage, P. 251.

١٤٧. Felix Fabri, The book of the wanderings, P. 81.

١٤٨. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٣٠٤.

149. Schafer, K., Jerusalem in the Ayyubid and Mamluk eras, an unpublished Ph.D. thesis, University of New York, 1985, P. 102.
150. Smith, J. A., Jerusalem, the topography, economy and history, (1-2) Hodder and Stoughton, London, 1963, Vol. 1, P. 315.
151. Pero Tafur, Travels and adventures, P. 57.
152. Ency. Britanica, 1972, Vol. 12, P. 1009.
153. Ibid, P. 1009.
154. Felix Fabri, the book of the wanderings, P. 270.
155. Conder, the city of Jerusalem, London, 1907, P. 258.
156. Lees, R, Village Journey life in Palestine, London, 1905, P.P. 180-187.
157. Prescatt, Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteenth century, London, 1954, P. 460.
158. Lapidus, Muslim Cities, P. 96.

١٥٩. ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٣٢١.

١٦٠. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص ١٦٢.

١٦١. نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٢٩٣-٢٩٤.

١٦٢. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٤٠٢.

١٦٣. مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج١، ٤٠٣.

١٦٤. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٩١.

١٦٥. آدم متز (Metz)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٤٢م، ج٢، ص ٣٢٦.

١٦٦. نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص ٢٨٣.

167. Suriano, Treatise on the Holy Land, P. 186.
168. Graham, S., With the Russian pilgrims to Jerusalem, London, 1927, P. 81.
169. Suriano, Treatise on the Holy Land, P. 34.
170. Tafur, Travels and adventures, P. 56.

١٧١. نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص ١٥٣.

172. Wright, T., Early travels in Palestine, P.P. 285-288.
173. Newett, Casola's pilgrimage, P. 225.

١٧٤. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٢٣.

١٧٥. أبو الفداء، تاريخ أبو الفداء، طبع في القسطنطينية، ١٣٨٠هـ، ج٤، ص ٩٥.

١٧٦. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، من ٦٠٨.

١٧٧. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٤٧.

178. Lapidus, Muslim Cities, P.P. 9-11.

١٧٩. المقريزي، السلوك، ج٣، ص ١١٥٤.

١٨٠. المقريزي، المصدر السابق، ج٣، من ١١٥٥.

١٨١. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٦٦.

١٨٢. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٢٠.

١٨٣. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٦٦١.

١٨٤. مؤلف مجهول، حوليات دمشقية، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٥٣.

١٨٥. شمس الدين محمد بن علي بن طولون، مفاكهة الخلان في حودث الزمان، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٧٨.

١٨٦. نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص ٣٠.

١٨٧. المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٦٤.

١٨٨. المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ١٦٥.

١٨٩. المقريزي، السلوك، ج٣، ص ١٠٦٦.

١٩٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٢٨.

١٩١. ابن طولون، إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق عبد العظيم حامد خطّاب، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣م، ص ٢٩.

١٩٢. المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٠٦.

١٩٣. ابن طولون، إعلام الورى، ص ٢٩.

١٩٤. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٧١٢.

١٩٥. المقريزي، الخطط، ج١، ص ٨٩-٩٢.

١٩٦. المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٢-١٠٦.

١٩٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٦٠.

١٩٨. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٨٦.

١٩٩. المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٤٤٨.

٢٠٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٩٩.

٢٠١. Ashtor, A social and economic history, P. 324.

٢٠٢. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٥، ص ٦٨.

٢٠٣. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٢٩. نقلاً عن مخطوط في دار الكتب المصرية لابن الهائم بعنوان: نزهة النفوس في بيان التعامل بالفلوس ".

٢٠٤. المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٤٥٦.

٢٠٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٤١.

٢٠٦. ولمزيد من المعلومات عن العملات الأجنبية المتداولة في العصر المملوكي، انظر: توفيق اسكندر، " نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط "، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٦ القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢٨-٤٠.

٢٠٧. Felix Fabri, the book of the wanderings, Vol. 2, P. 138.

٢٠٨. نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص ٣٦٠-٤١٢.

٢٠٩. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٧٥.

٢١٠. المقريزي، السلوك، ١٦٠، ص ٦٠٩.

٢١١. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦١٩.

٢١٢. مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٧٨.

٢١٣. مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٧٨.

٢١٤. مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٧٩.

٢١٥. ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج٣، ص ٢٨٢.

٢١٦. ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٨٣.

٢١٧. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٢١١.

٢١٨. عن البذل والبرطلة في العصر المملوكي، انظر:

٢١٩. أحمد عبد الرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٢٠. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٤٧-٦٤٨.

الفصل الرابع

الحياة العلمية
في بيت المقدس في العصر المملوكي

عوامل ازدهار الحياة العلمية في بيت المقدس

ازدهرت الحياة العلمية في بيت المقدس بعد الفتح الصلاحي واسترداد صلاح الدين المدينة من الفرنجة (الصليبيين) سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. وعلى الرغم من الظروف السياسية الحرجة التي مرت بها المدينة بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، إلا أن الحركة العلمية استمرت تحت رعاية بعض أبناء البيت الأيوبي، فظهرت في المدينة بعض الأسرات التي توارثت تولي بعض المناصب الدينية والعلمية الرفيعة مثل: أسرة آل صصري، وآل جماعة وغيرهم. وظل المسجد الأقصى موئلاً لحركة فكرية علمية نشطة على الرغم من انتشار بعض المدارس المشهورة إذ عقدت به حلقات العلم، وخاصة في مجال العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية.

وفي العصر المملوكي، استمرت الحياة العلمية مزدهرة في بيت المقدس نتيجة بعض العوامل التي ساعدت على ذلك. ومن تلك العوامل:

أولاً: رغم المكانة الدينية الكبيرة لمكة المكرمة والمدينة المنورة، فإن الحياة فيهما كانت قاسية، مما جعل الكثير من العلماء لا يستسيغون الإقامة الطويلة فيهما، فضلاً عن بعدهما عن مركز النشاط الحضاري في المشرق الإسلامي في عصر المماليك. أما بيت المقدس، فكانت على عكس ذلك تماماً، ذلك أن الحياة فيها كانت أطيب نسبياً لاعتدال جوها، إضافة إلى وقوعها داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة المملوكية.

ثانياً: ظلت هجرة العلماء إلى بيت المقدس مستمرة أغلب فترات العصر المملوكي مما أرفد الحياة العلمية فيها بعدد وافر من العلماء المشهورين الذين أسهموا في ازدهار الحركة الثقافية والعلمية. فقد هاجر إلى بيت المقدس أعداد كبيرة من العلماء المغاربة نتيجة الضغوط السياسية الواقعة على أقاليمهم من نصارى الأندلس الذين اتحدوا لطرد المسلمين فيما عرف بـ: " حركة الاسترداد "، كما أن كثيراً من علماء العراق هاجروا أيضاً إلى المدينة نتيجة التقلبات السياسية في الإقليم أثناء وعقب الغزو المغولي الذي أدى لإسقاط الخلافة العباسية السنية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. ونجد في كثير من كتب التراجم معلومات هائلة عن العلماء المهاجرين إلى بيت المقدس خلال العصر المملوكي، وخير مثال على ذلك كتاب " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " للمقري، الذي يخصص حوالي ثلث حجمه لذكر العلماء المغاربة الذين وفدوا إلى بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك.

وفي الحقيقة، فإن كتاب التراجم، من أمثال: ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، والصفدي (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م)، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، والمؤرخون من أصحاب الحوليات، من أمثال: ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) ومجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، يذكرون عدداً هائلاً من العلماء الذين هاجروا إلى بيت المقدس وأقاموا بها في العصر المملوكي، مما يؤكد أن الحياة العلمية بها كانت مزدهرة وأنها أصبحت مركزاً إسلامياً لثقافة عربية واسعة النطاق، وأن العلماء كانوا يفدون إليها، ليس من أجل التعبد في مساجدها وزيارة أماكنها المقدسة فحسب، بل من أجل انتجاع موارد العلم في مدارسها. والواقع، فإن المصادر المذكورة أعلاه توضح بأن بيت المقدس جذبت إليها علماء من أقاليم ومناطق ومدن شتى مثل: العراق، وإيران، والأندلس، والمغرب، وأذربيجان، واليمن، وتركستان، وهراة، وبلخ، وشيراز، وهراة وغيرها كما سنرى عند ذكرنا لبعض مشاهير العلماء المقادسة[1].

وليس أدل على أن بيت المقدس كانت إحدى المراكز العلمية الهامة في عصر سلاطين المماليك، وأنها كانت قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة، من أن كبار علماء ذلك العصر وفدوا إليها وتلقوا جانباً من تعليمهم بها، مثال ذلك مؤرخ الشام شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وشهاب الدين بن حجي فقيه[٢] الشام المشهور (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، وبدر الدين العيني، المؤرخ المشهور (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، الذي ذكر أنه لازم شيخ علماء مصر في ذلك الوقت، علاء الدين علي بن أحمد بن محمد السيرامي، ودرس على يديه[٣].

وتشير المصادر أيضاً إلى أن بعض مشاهير العلماء في العصر المملوكي كانوا يفضلون الحياة في بيت المقدس على الحياة في القاهرة عاصمة الدولة المملوكية، ومن ذلك ما يروى عن الشيخ جمال الدين عبدالله محمد بن سليمان البلخي (ت ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م)، الذي كان يشتغل بالعلم في القاهرة، ثم انتقل إلى بيت المقدس وظل مقيماً بها إلى أن توفى، وكان شيخاً: (وله مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفاً من التفسير) كما يقول ابن كثير[٤]. كذلك يؤكد المقريزي في حديثه عن ابن الهائم المصري (ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م) من أنه درس بالقدس: (وكان قد تحول إليه من القاهرة وبرع في الحساب والفرائض)[٥]. وينبغي أن لا ننسى أن كثيراً من علماء فلسطين، وخاصة علماء المدن والقرى القريبة، قد استقروا ببيت المقدس واكتسبوا سمعة كبيرة بين الناس نتيجة اشتغالهم ببعض العلوم. ومن علماء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري، شيخ القراء في عصره. فقد ولد في قرية جعبر سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٣٤م وسمع من تاج الدين بن يونس البغدادي أحد أبرز علماء الشافعية في عصره، ثم قدم بيت المقدس، ودرس بالغزالية وتدرج في المناصب العلمية والدينية حتى ولي مشيخة الحرم. وظل مقيماً في بيت المقدس حتى وافاه الأجل سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م[٦]. وقد صنف الجعبري تصانيف عديدة في علم اللغة، منها:

" شرح الشاطبية "، كما اختصر مختصر ابن الحاجب ومقدمته في النحو، وكتاب " تذكرة الحفاظ في مشتبه الألفاظ "، وكتاب " الترصيع في علم البديع ". كما ألف في العلوم الدينية، ومن أبرز مؤلفاته في علم الحديث كتاب: " رسوم التحديث في علم الحديث ".

وكان من أهم نتائج هجرة العلماء إلى بيت المقدس أن نشأت كثير من الأسرات العلمية التي أثرت الحياة في المدينة خلال العصر المملوكي. وليس من السهولة بمكان أن نذكر كل الأسرات العلمية البارزة في المدينة، ولذلك نكتفي بذكر بعضها مركزين على المؤسسين لتلك الأسرات، مع ذكر لأبرز مؤلفاتهم. ومن أبرز الأسرات العلمية:

١) بنو جماعة: وينسبون إلى مؤسس أسرتهم الشيخ برهان الدين أبو إسحاق بن أبي الفضل سعد الله بن جماعة (ت ٥٧٥هـ/ ١٢٧٦م). وقد أنجبت هذه الأسرة كثيراً من العلماء الذين تقلدوا مناصب القضاء في بيت المقدس، كما برز منهم بعض مشاهير علماء الحديث بوجه خاص[٧].

٢) بنو قدامة: وينسبون إلى الشيخ قدامة المقدسي. ويأتي على رأس هذه الأسرة الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة (ت ٦٠٧هـ/ ١٢٠٨م). وقد كان لهذه الأسرة شأن كبير في مجال الحياة العلمية، سواء في بيت المقدس أو في بلاد الشام عامة ودمشق خاصة، حيث استوطن بعض علمائها صالحية دمشق من أمثال الشيخ تقي الدين أبو الفضل سليمان بن قدامة (ت ٧١٥هـ/ ١٣١٥م)، المعروف بلقب مسند الشام في زمانه. وفي بيت المقدس، ظل أفراد الأسرة يتوارثون بعض المناصب الدينية مثل مشيخة الحرم. وقد عدد السخاوي[٨] (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، ومجير الدين الحنبلي[٩] أكثر من عشرين عالماً من بني قدامة ممن تولوا مشيخة الحرم خلال العصر المملوكي.

٣) بنو غانم: ويرجع نسب هذه الأسرة إلى الشيخ غانم المقدسي، شيخ الخانقاه الصلاحية ببيت المقدس أيام صلاح الدين الأيوبي. وقد برز من هذه الأسرة كثير من العلماء الذين أثروا الحياة العلمية في المدينة، وظل بعضهم يتوارثون منصب القضاء إضافة إلى منافستهم لأسرة بني قدامة في تولي مشيخة الحرم خلال العصر المملوكي.

٤) بنو كيكلدي: وتنسب هذه الأسرة إلى مؤسسها الشيخ صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي (ت ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م). ونجد في كتب التراجم معلومات هامة عنه وكيف أنه كان من أبرز علماء بيت المقدس في

العلوم الدينية خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[10]. وقد ورث ذريته العلم، وكان منهم كبار العلماء والفقهاء في عصرهم الذين تتلمذ عليهم كثير من علماء العصر المملوكي.

٥) بنو القرقشندي: ويأتي على رأس هذه الأسرة المقدسية الشيخ تقي الدين القرقشندي (ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م)، عالم الحديث المشهور[11]. وقد أنجبت هذه الأسرة كثيراً من العلماء والفضلاء الذين تولوا عدداً من المناصب الهامة في بيت المقدس، مثل الإفتاء والتدريس، كما اشتهر كثير منهم في علم الحديث.
ومن أبرز علماء هذه الأسرة الشيخ زين الدين عبدالكريم القرقشندي (ت ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م)، الذي يصفه مجير الدين الحنبلي بقوله: (وكان من أعيان العلماء بالقدس الشريف، وله اليد الطولى في علم الحديث، وأخذ منه جماعة من الأعيان وله أحاديث مخرجة)[12].

٦) بنو الديري: نسبة إلى قرية الدير بالقرب من نابلس. وأول من استوطن منهم بيت المقدس هو شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن جمال الدين بن عبدالله بن سعد من علماء الحنفية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وظل علماء هذه الأسرة يشتغلون بالعلم في بيت المقدس ويتوارثون بعض المهام مثل تدريس علم الخلاف، وهو علم كان ينظر في مسائل الخلاف بين المذاهب الأربعة، كما تولوا رئاسة الحنفية بالمدينة. ولعل من أشهر علماء هذه الأسرة الذين ورد ذكرهم في المصادر وكتب التراجم، الشيخ سعدالدين بن محمد بن عبدالله الديري الحنفي (ت ٨٦٧هـ/ ١٤٦١م)، وكان: (على رأس الحنفية في ببيت المقدس)، كما ولى القضاء بالقاهرة من قبل، وله تصانيف عديدة)[13].

ولم يقتصر دور العلماء والأسرات في بيت المقدس على الرجال فحسب، بل كان للنساء مشاركات في الحياة العلمية في المدينة. فقد برزت بعض النساء في مجال علم الحديث مثل: أسماء ابنة الحافظ صلاح الدين خليل بن العلائي، من سيدات القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وكانت قد سمعت على والدها وغيره من الفقهاء، وحدثت بالكثير مما سمعت. وكذلك المسندة آمنة ابنة العلامة تقي الدين إسماعيل القرقشندي، وكانت قد سمعت على جدها

لأمها ووالدها، وحدثت ببيت المقدس. ومن النساء الشهيرات بالعلم أيضاً، عائشة بنت محمد بن عبدالهادي بن قدامة، والتي بلغت شأناً عظيماً في الحديث حتى سميت محدثة دمشق. وقد روى عنها ابن حجر العسقلاني وقرأ عليها كتباً عديدة، وتوفيت سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م(١٤).

ومن المرجح أنه كانت ثمة منافسة علمية بين أبناء الأسرات المقدسية، وإن كان وجه المنافسة الواضح طوال العصر المملوكي هو تطلع كل أسرة من الأسرات أن تحوز الجزء الأكبر من الوظائف الدينية الهامة مثل الخطابة، والقضاء وغيرها. وحتى يرضى علماء الأسرات المقدسية، كان السلاطين ونوابهم يقومون أحياناً بإشراك أبناء هذه الأسر في المنصب الواحد، كما يذكر مجير الدين الحنبلي: (وكان اشتراك بني القرقشندي وبني جماعة في الخطابة بالقدس الشريف من زمن الملك المؤيد شيخ قبل العشرين والثمانمائة)(١٥).

والواقع، فإن كتاب " الأنس الجليل " لمجير الدين الحنبلي يعتبر مصدراً أساسياً لدراسة الأسرات العلمية خاصة، والحياة العلمية في بيت المقدس عامة خلال العصر المملوكي. فقد اهتم المؤلف بتقسيم طبقات العلماء والأسرات حسب مذاهبهم الدينية، كما أورد تراجم مفيدة لأشهر العلماء المقادسة. ويتضح من الكتاب غلبة العلماء والأسرات الشافعية على الحياة العلمية في بيت المقدس. وفي الحقيقة، فقد ذكر مجير الدين في كتابه تراجم لثلاثمائة فقيهاً وعالماً شافعياً، في حين لم يذكر سوى خمس وستون ترجمة لفقهاء من الحنابلة. أما المالكية، فقد أورد تراجم لخمس وثلاثين فقيهاً منهم، والحنابلة لم يترجم سوى لأربعة من فقهائهم. وإذا وضعنا في الاعتبار أن بيت المقدس كانت مدينة صغيرة الحجم، فإن هذا العدد الهائل من العلماء والفقهاء الذين يزيد عددهم عن أربعمائة، يعتبر مؤشراً هاماً على ازدهار الحياة العلمية والثقافية في المدينة.

مظاهر ازدهار العلوم الدينية:

كان من أبرز مظاهر ازدهار الحياة العلمية في بيت المقدس خلال العصر المملوكي النتاج الواسع من المؤلفات والرسائل والمصنفات في شتى فروع المعرفة. وفي الحقيقة، فإن النتاج العلمي لبيت المقدس في هذه الفترة لم يقتصر على

العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، بل تعداه إلى علم التاريخ وبعض العلوم التطبيقية مثل الطب. وسنكتفي بذكر أبرز العلماء المقادسة في الفروع الرئيسة التي برزوا فيها مع ذكر لتراجم حياتهم ومؤلفاتهم.

ونبدأ بالعلوم الدينية، وهي العلوم التي كان لها الحظ الأوفر من الازدهار خلال العصر المملوكي. فقد وضح انتعاش واضح في فروع مثل: علوم الحديث، وعلم التفسير، والفقه، وعلم القراءات، والتصوف.

أولاً: علم الفقه:

يعتبر علم الفقه من أبرز فروع العلوم الدينية التي اشتغل بها علماء بيت المقدس خلال العصر المملوكي. فقد حاول علماء كل مذهب من المذاهب الأربعة شرح أصول مذهبهم الفقهية، ولذلك كان التأليف في هذا الفرع واسعاً. وتبدو هذه الظاهرة استثنائية في بيت المقدس لأن السلاطين عملوا على مراعاة السماح لاتباع المذاهب الأربعة بإنشاء المدارس المتخصصة لتدريس مبادئ تلك المذاهب. صحيح أن الغلبة ظلت للمذهب الشافعي، ولكن هذا لا يعني أن علماء بقية المذاهب لم يساهموا في الحياة العلمية في بيت المقدس خلال العصر المملوكي.

ومن أبرز العلماء المقادسة الذين برزوا في علم الفقه خلال العصر المملوكي:

١. الإمام شمس الدين أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلي. كان إماماً فقيهاً ورعاً زاهداً، انتهت إليه رئاسة مذهب الإمام أحمد بن حنبل في زمانه. ظل من أبرز علماء بيت المقدس خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وتوفي سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[١٦].

٢. الشيخ نجم الدين الطوخي الصرصري الحنبلي. كان من أبرز علماء الحنابلة في بيت المقدس، وولي التدريس بالمدرسة الصلاحية، وله مصنفات عديدة، منها: " بغية السائل في أمهات المسائل في أصول الدين " و " مختصر الروضة في أصول الفقه "، وغيرها من المصنفات في الأدب والجدل. وظل يقوم بتدريس المذهب الحنبلي حتى وفاته سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م[١٧].

٣. شهاب الدين أحمد بن جباره المرداوي الحنبلي الفقيه الأصولي المقرئ النحوي. جمع عدداً من المعارف والعلوم، وكان أحد شيوخ المؤرخ زين الدين عمر بن الوردي(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٣م). اشتهر في القاهرة، ثم قدم دمشق ودرس بها قبل أن ينتقل إلى بيت المقدس حيث مكث بها حتى وفاته سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م[١٨]. وكان صالحاً صادقاً زاهداً، وله مصنفات عديدة أهمها " شرح الشاطبية " في أربع مجلدات.

٤. شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي ابن قدامة المقدسي الجماعيلي. ولد في قرية جماعيل من قرى فلسطين، ودرس في دمشق على أبرز علماء زمانه، ثم انتقل إلى بيت المقدس التي ظل بها حتى وفاته سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م. كان حافظاً للحديث، عارفاً بالأدب. كان من كبار علماء الحنابلة وأخذ عن ابن تيمية والذهبي وغيرهما، وصنف ما يزيد على سبعين كتاباً. ومن مؤلفاته: " فضائل الشام "، و " قواعد أصول الفقه "، وكتاب " الأحكام في فقه الحنابلة " في ثمان مجلدات وغيرها[١٩].

٥. صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي. كان محققاً من أبرز علماء الشافعية المقادسة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. درس بدمشق وبها اشتهر، ثم انتقل إلى بيت المقدس مدرساً بالصلاحية، وظل فيها مقيماً بالقدس حتى وفاته سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م[٢٠]. كان إماماً في الفقه والأصول، وفي علم الحديث ومعرفة الرجال، وألف كثيراً من المؤلفات التي ضاع أغلبها.

٦. شمس الدين محمد بن مفلح بن مفرج المقدسي. ولد ونشأ في بيت المقدس، وبها درس على شيوخ الحنابلة. درس بمدارس عديدة في بيت المقدس، وصار أحد كبار علماء الحنابلة في عصره، وله تصانيف عديدة، أهمها: " كتاب فروع الفقه " في ثلاثة مجلدات، وكتاب " أصول الفقه "، و " الآداب الشرعية الكبرى " توفي في بيت المقدس سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م[٢١].

7. عز الدين محمد بن أحمد بن سعيد المقدسي – أصله من بيت المقدس وينتمي إلى أسرة علمية ظلت تشتغل بالعلوم في المدينة منذ العهد الأيوبي. كان من كبار فقهاء الحنابلة في عصره، وتولى قضاء الحنابلة. تنقل بين دمشق وحلب وبيت المقدس، كما جاور بمكة حيث توفي بها سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م(٢٢). ومن أبرز مؤلفاته التي ذكرتها المصادر وكتب التراجم: " الشافي والكافي في الفقه ".
8. محمد بن عبدالوهاب بن خليل بن غازي المقدسي. ولد ببيت المقدس سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، ونشأ بها، ودرس القرآن والعلوم الدينية على أبرز شيوخ زمانه. كان من أشهر علماء الشافعية، وتصدر بالأقصى، وأشير إليه بالفضل ظل يدرس بمدارس الشافعية. من أهم مؤلفاته كتاب في أصول الفقه سماه: " الإرشاد ". توفي ببيت المقدس سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٥م[٢٣].
9. نجم الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكتاني الشافعي. ولد ببيت المقدس ونشأ بها، وأصبح من كبار علماء الشافعية في عصره. كان من أبرز الأصوليين والإخباريين، ومن تصانيفه: " النجم اللامع في شرح جمع الجوامع " في أصول الفقه وغيره. توفي ببيت المقدس سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م[٢٤].
10. الشيخ كمال الدين أبو المعالي محمد بن محمد بن أبي بكر بن رضوان المري المقدسي أخذ عن الشيخ عبدالسلام البغدادي وغيره، ولازم خدمة العلماء. انتقل إلى بيت المقدس وسطع نجمه بعد أن درس بالصلاحية. برز في الفقه، وصار من أبرز علماء الشافعية بالمدينة، كما تولى الإفتاء للشافعية. له مصنفات عديدة أهمها: " شرح العقائد للتفتازاني "[٢٥]، وتوفى سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م.

ثانياً: علم الحديث:

اشتهر في بيت المقدس خلال العصر المملوكي عدد من علماء الحديث ممن ذاع صيتهم في بلاد الشام، وكان أغلب مشاهير علماء الحديث من الشافعية. ونجد في كتب التراجم معلومات هامة عنهم، ومن أبرزهم:

١. شهاب الدين أبو العباس الخويي. انتقل إلى بيت المقدس وصار من مشاهير العلماء في علوم الحديث ودرس بمدارس المدينة المختلفة. توفي ببيت المقدس سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م[٢٦].

٢. الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن نعمة بن أحمد بن حمّاد المقدسي الشافعي. أورد ابن كثير في ترجمته: (هو الشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتي، شرف الدين أبوالعباس بن نعمة. ولد سنة اثنتين وعشرين وستمائة وسمع الكثير، وكتب حسناً، وصنف فأجاد وأفاد)[٢٧].

ولي القضاء في دمشق حتى أصبح قاضي القضاة كما تولى التدريس بالمدرسة النورية بدمشق وجمع بين التدريس والخطابة بالمسجد الأموي. ثم انتقل إلى بيت المقدس، وظل مدرساً بالمدرسة الشافعية البرانية لفترة طويلة. وفي بيت المقدس كان من جلساته شيخ الإسلام ابن تيمية، ويقال بأنه أذن لابن تيمية بالإفتاء. صنف كتباً كثيرة في علم الحديث، ومات في بيت المقدس سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م[٢٨].

٣. بدر الدين أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة. وصفه مجير الدين الحنبلي بأنه: (قاضي القضاة، شيخ الإسلام ... ولي الخطابة بالمسجد الأقصى وإمامته وقضاء القدس)[٢٩]. ومن الألقاب التي وصف بها ما يدلل على علو مكانته العلمية إذ تولى منصب قاضي القضاة، كما ولي الخطابة والإمامة بالمسجد الأقصى، كما تولى القضاء في بيت المقدس لبعض الوقت. وفي الحقيقة، فإن بدر الدين بن جماعة ينتمي إلى أسرة علمية ذائعة الصيت في بيت المقدس هي أسرة بني جماعة التي ذكرناها ضمن الأسرات العلمية الشهيرة في المدينة في العصر المملوكي. كان شافعياً، وله ولع خاص بدراسة الفقه والحديث، ومن مؤلفاته في علم الحديث: " المنهل الروي في علوم الحديث النبوي " و " الفوائد الغزيرة في أحاديث بريرة ".

وتوفى في بيت المقدس سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م.

٤. محب الدين محمد بن أحمد بن عماد بن الهائم المصري المقدسي. ولد في القاهرة وبها نشأ ودرس. كان آية في سرعة الحفظ وجودة القريحة، واشتغل

بالفقه والعربية والقراءات، لكنه برز في علم الحديث بوجه خاص. رافق ابن حجر العسقلاني لبعض الوقت، ثم صنف وخرج لنفسه ولغيره، وقد وصفه ابن حجر بقوله: (وهو أذكى من رأيت ... وجمع الدين والتواضع وحسن الخلق والصيانة)[30]. انتقل إلى بيت المقدس واشتهر بين علمائها الشافعية وبها توفى سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م.

٥. محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن سليمان بن حمزة المقدسي، المعروف بـ: ناصر الدين زريق. سمع من الفخر الصلاحي وغيره، وكان عارفاً بعلم الحديث. واشتهر بين علماء بيت المقدس في علم الحديث خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. رتب صحيح ابن حبان، وقد رافق ابن حجر العسقلاني كثيراً. وقد وصفه ابن حجر بأنه لم ير من يستحق أن يطلق عليه اسم " الحافظ " غيره ببلاد الشام[31]. توفى في بيت المقدس سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م.

ثالثاً: علم التفسير:

برز علماء كثر في علم التفسير في بيت المقدس خلال العصر المملوكي، ومنهم:

١. جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين البلخي المقدسي المعروف بابن النقيب – ينتمي لأسرة علمية هاجرت من بلخ إلى بيت المقدس. ولد في بيت المقدس سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م، وبها نشأ ودرس قبل أن يتحول إلى القاهرة حيث أقام مدة بالجامع الأزهر ودرس في بعض المدارس، ثم رجع إلى بيت المقدس واستوطن بها إلى أن مات سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م[32]. كان شيخاً فاضلاً في التفسير وله فيه مصنف كبير جمع فيه حوالي خمسين مصنفاً من التفاسير وبلغ تسعاً وتسعين مجلداً. وقد لاقى كتابه هذا رواجاً كبيراً وعُرف بالتفسير الكبير.

٢. شهاب الدين أبوالعباس أحمد بن محمد بن علي المقدسي، المعروف بابن الهائم. كان من أبرز علماء الشافعية في عصره. انتقل إلى بيت المقدس وظل بها حتى وفاته سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م[33]. وله تصانيف في علوم عديدة وإن كان أغلبها في التفسير. ومن أبرز مؤلفاته: " التبيان في

تفسير القرآن "، و " رفع الكلام عن القائل باستحباب القيام " و " كفاية الحفاظ في الفرائض ". وله مصنفات في العلوم التطبيقية كالرياضيات والجبر وبعضها مخطوطات في دار الكتب المصرية. ومن مصنفاته المخطوطة: " مرشد الطالب إلى أسنى المطالب في علم الحساب "، مخطوط رقم (ك) ٥٨٧١، والمعونة في الحساب، مخطوط رقم ٦٨. واللمع، وهي رسالة في علم الحساب، ورقم المخطوط (ك) ٣٨١٥.

٣. عبدالرحمن محمد بن إسماعيل القرقشندي المقدسي. ينتمي لأسرة بني القرقشندي التي ذكرناها ضمن الأسرات العلمية المشهورة في بيت المقدس خلال العصر المملوكي. ولد في بيت المقدس، وسمع بدمشق ونابلس والقدس قبل أن يذيع صيته بين الناس في علم التفسير. كان من أبرز علماء الشافعية في عصره، وله تصانيف عديدة أهمها: " تفسير سورة الفاتحة "، وتعليق على شرح السراج البلقيني لجامع الصحيح البخاري ". توفى في بيت المقدس سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م[٣٤].

٤. عبدالعزيز علي بن عبدالعزيز البغدادي المقدسي. كان من علماء الحنابلة في بيت المقدس وبرز في علم التفسير والفقه وكان أصولياً مقرئاً محدثاً. ولد ببغداد ونشأ بها ثم انتقل إلى بيت المقدس وولي بها القضاء. شرح مختصرا الخرقي في فروع الفقه الحنبلي. توفي في بيت المقدس سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م[٣٥].

٥. سعد بن محمد بن عبدالله بن أبي بكر بن سعد النابلسي القدسي، المعروف بان الديري. يرجع نسبه لأسرة بني الدير التي ذكرناها ضمن الأسرات العلمية المقدسية. كان مفسراً، فقيها، متكلماً وأديباً لمع أسمه في سماء الحياة العلمية في بيت المقدس. ولد في بيت المقدس، ودرس في القاهرة قبل أن يعود إلى موطنه حيث أصبح واحداً من أبرز علماء الحنفية في زمانه توفي ببيت المقدس سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م[٣٦].

رابعاً: التصوف:

شهدت مدينة بيت المقدس نشاطاً ملحوظاً في مجال التصوف، ونبغ كثير من المقادسة في هذا المجال. والواقع، فإن التصوف نشط نشاطاً واضحاً منذ

استرداد صلاح الدين المدينة من الفرنجة (الصليبيين) سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. واستمر التصوف مزدهراً في بيت المقدس طوال العصر المملوكي تقريباً نتيجة تشجيع بعض السلاطين واحتضانهم للصوفية من جهة، ولأن العصر نفسه كان عصر إعجاب بالتصوف.

وقد وفد إلى بيت المقدس بعض مشايخ الصوفية وإن لم يستقر بها سوى عدد قليل منهم. وانقسم الصوفية في المدينة إلى فرق عديدة لكل فرقة شيخها وشعارها، فالطائفة الأحمدية نسبت إلى الشيخ أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر، والطائفة الرفاعية نسبت إلى أبي العبَّاس أحمد المعروف بابن الرفاعي وشعارها العمائم السوداء. وأطلق الصوفية على أنفسهم اسم " الفقراء " بحسبان أن الفقر شعار الصالحين. وكان لكل واحد من هؤلاء " الفقراء " شيخه الذي يرتبط به وبطريقته وبأوامره. وإذا ارتبط أحدهم بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه، ألبسه الشيخ خرقة التصوف.

وقامت حياة الصوفية في بيت المقدس على التقشف في الملبس والمأكل وغير ذلك، ووجهوا كل نشاطهم نحو العبادة والذكر. وقد تطرف بعض الصوفية في بيت المقدس كما تذكر المصادر المعاصرة. ومن ذلك طائفة منهم أطلق عليها اسم " المجاذيب " الذين اشتهروا بأفعالهم الغريبة. وقد شهد الرحالة تافور (Tafur) جماعة من هؤلاء المجاذيب في بيت المقدس ووصفهم بأنهم: (قد حلقوا رؤوسهم ولحاهم وشعر حواجبهم كما أزالوا رموش أعينهم فبدوا في صور مزعجة تشبه المجانين).

وقد شارك بعض الصوفية في الحياة العلمية في بيت المقدس عن طريق التأليف.

ومن الصوفيين المقادسة الذين أشارت إليهم المصادر وكتب التراجم:

١. ابن غانم المقدسي، وكان حليماً، واعظاً كثير التصانيف في مجال التصوف. ومن أبرز مصنفاته التي وصلت إلينا: " حل الرموز ومفاتيح الكنوز " الذي كتبه ليبين للناس أنهم يجب أن يتبعوا من الكلام معانيه، حيث رأى أن كثيراً من الألفاظ قد ارتبك في غموضها كثير من الناس في عصره[٣٧]. ومن مؤلفاته الهامة أيضاً: " الفتوحات الغيبية في الأسرار القلبية ".

٢. ومن مشاهير الصوفية المقادسة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ابن المقدسي الذي يقول عنه المقريزي في معرض حديثه حن حوادث سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م: (توفي شيخ الشيوخ بخانقاة سريا قوس شهاب الدين أحمد بن سلامة ابن المقدسي الشافعي. وكان قبل ذلك شيخ خانقاة بشتاك وخطيب جامعها وصنف كتباً مفيدة في التصوف)[٣٨].

٣. ومن المتصوفة المقادسة الذين ورد ذكرهم في كتب التراجم، ابن نباتة المقدسي وهو عبداللطيف بن عبدالرحمن بن أحمد بن غانم السعدي الأنصاري. اشتهر بقربه من السلاطين، وله مؤلفات كثيرة في التصوف، ومن أبرزها: " تحفة واهب المواهب في بيان المقامات والمراتب ".

٤. وذكر مجير الدين الحنبلي بعض الصوفية المقدسيين مثل: الشيخ برهان الدين إبراهيم بن علي بن يوسف الحسني الشافعي صاحب كتاب: " تحفة الطلاب ومنحة الوهاب في الآداب من الشيخ والأصحاب ".

خامساً: علم القراءات:

برع كثير من المقادسة في علم القراءات في العصر المملوكي. ونجد في بعض المصادر العربية، وخاصة مجير الدين الحنبلي وابن العماد الحنبلي، معلومات هامة عن بعض هؤلاء الأشخاص. ونكتفي بذكر المشاهير منهم مثل:

١. شمس الدين الجزري، من علماء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويقول عنه مجير الدين: (اعتنى بالقراءات فأتقنها ومهر فيها وله مصنفات جليلة منها: كتاب النشر في القراءات العشر ... وجميع مصنفاته مفيدة نافعة)[٣٩].

٢. جبارة المقدسي الذي استوطن بيت المقدس وتصدر لاقراء القراءات، وصنف كثيراً في علم القراءات. ذكره ابن العماد الحنبلي فقال عنه: (كان إماماً مقرئاً بارعاً فقيهاً نحوياً نشأ في صلاح ودين وزهد ... وانتهت إليه مشيخة بيت المقدس)[٤٠]. توفي في بيت المقدس سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م.

٣. ابن القباقبي المقرئ، ذكره السيوطي، وقال عنه: (المصنف في القراءات الأربعة عشر ... تصدى للاقراء، وانتفع به الناس، وولي مشيخة الجوهرية ببيت المقدس ...)[٤١].

سادساً: علوم اللغة العربية:

كان لعلماء بيت المقدس فضل كبير في ازدهار علوم اللغة العربية، من نحو وأدب وشعر ونثر وغيرها. وقد أورد مجير الدين الحنبلي والسيوطي تراجم لكثير من العلماء المقادسة. وينبغي ملاحظة أن الكثيرين ممن اشتغلوا بالأدب كان لهم ميل لقرض الشعر ولذلك يمكن إدراجهم مع الأدباء أو الشعراء. ومن أشهر علماء بيت المقدس خلال العصر المملوكي:

١. نجم الدين الطوخي الصرصري، وقد ذكرناه ضمن قائمة علماء بيت المقدس المشهورين في الفقه. وقد كانت له أيضاً إسهاماته في الأدب، منها: " الرحيق المسلسل في الأدب " و " تحفة أهل الأدب في معرفة لسان العرب "، كما شرح مقامات الحريري(٤٢). توفى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م.

٢. علي بن جبارة بن عبدالله، اشتغل بعلوم اللغة العربية، وصنف شرحاً مطولاً للشاطبية، وشرحاً آخر للرائية في الرسم، وكان من أبرز علماء بيت المقدس في النحو واللغة. توفي سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م(٤٣).

٣. الشيخ أبو العزم محمد بن محمد بن الحلاوي الشافعي النحوي. وكانت له شهرة واسعة في العربية، وكان يقرئ اللغة بالمسجد الأقصى. صنف كثيراً، ومن أشهر مؤلفاته: (شرح الجرومية). توفي في بيت المقدس سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م(٤٤).

٤. محمد بن علي الحصفكي، المعروف بابن أبي اللطف، وهو عالم ولد ونشأ في بيت المقدس واشتهر في علم النحو. ظل يدرس النحو وعلم اللغة في بعض مدارس بيت المقدس حتى وفاته سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م.

٥. برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي شريف، من علماء أواخر العصر المملوكي. اشتهر بعلوم شتى كعلم القراءات وعلم النحو وكان له نظم بارع. ومن أهم مؤلفاته في النحو: " شرح قواعد الإعراب لابن هشام ". توفي في بيت المقدس سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٥م(٤٥).

سابعاً: علم التاريخ:

كان لعلم التاريخ نصيب وافر من النشاط في إطار الحياة العلمية في بيت المقدس طوال العصر المملوكي. وقد شهد العصر بروز عدد من أعلام المؤرخين

المقادسة الذين أسهموا في تطوير الكتابة التاريخية باهتماماتهم بتسجيل أهم الأحداث السياسية والاجتماعية في بيت المقدس بوجه خاص، وفي بلاد الشام بوجه عام. ويمكن القول بأن غالبية المؤرخين المقادسة اهتموا بتاريخ المدينة المحلي، وبالتراجم والوفيات، ونشاط العلماء والفقهاء، وذلك بسبب خلفياتهم الثقافية الدينية. ولكننا وجدنا أيضاً نفر من المؤرخين ممن اهتموا بالأمور الإدارية بحكم أنهم شغلوا بعض الوظائف الإدارية في دواوين الدولة المملوكية. ومن أبرز المؤرخين الذين أنجبتهم بيت المقدس:

١. أبو شامة: وهو عبدالرحمن بن إسماعيل. ولد بدمشق سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، وبها درس في صباه قبل أن يتحول إلى الإسكندرية حيث تتلمذ على كبار مشايخها. وقد اتصل مؤرخنا بصلاح الدين الأيوبي، وقام بتأليف كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " الذي يعتبر من أوثق المصادر التاريخية للصراع الإسلامي – الفرنجي خلال الفترة التي غطاها الكتاب بين سنتي ٥٩٠-٥٩٧هـ/ ١١٩٣-١٢٠٠م. وتميز كتاب الروضتين بمنهج واضح في التركيز على ذكر أهم الأحداث المحلية والسياسية في بلاد الشام، بالإضافة إلى الاهتمام بالنواحي الدينية. وقد اعتمد أبو شامة على روايات بعض المعاصرين مثل، ابن الأثير، وابن شداد، والعماد الأصفهاني الكاتب. وقد بدأ الكتاب بتاريخ الزنكيين حتى وفاة عماد الدين الزنكي، ثم انتقل لظهور نور الدين محمود بن زنكي وجهوده في توحيد الجبهة الإسلامية والاستيلاء على دمشق وضم مصر، ثم انتقل إلى تاريخ صلاح الدين الأيوبي وسيرته وجهاده قد الفرنجة حتى وفاته. واختتم الكتاب بالحديث الموجز عن بعض الأحداث بعد وفاة صلاح الدين وحتى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م. ولأبي شامة كتاب آخر في التاريخ والتراجم هو كتاب: " الذيل على الروضتين "، وفيه ابتدأ المؤلف تاريخه بسنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، وخصص الجزء الأكبر من الكتاب للأحداث المتصلة بالصراع بين أبناء البيت الأيوبي من جهة، وصراعاتهم ضد الفرنجة من جهة أخرى، إضافة لذكر بعض الأحداث الهامة مثل الغزو المغولي لبلاد الشام وسقوط الخلافة العباسية في بغداد، وانتهى فيه إلى سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، وهي سنة وفاته[٤٦].

٢. ابن فضل الله العمري: هو أحمد بن محي الدين يحيى بن فضل الله بن يحيى، القاضي شهاب الدين العمري المقدسي الأصل. وينتمي ابن فضل الله لأسرة ظلت تتولى ديوان الإنشاء بمصر على مدى قرن من الزمان تقريباً، وهو مثال للمؤرخ الإداري، حيث ورث عن أسرته العمل في الدواوين ذلك أنه عمل في ديوان الإنشاء خلال سلطنة الناصر محمد بن قلاوون. وظل ابن فضل الله العمري يتقلب في الوظائف الإدارية حتى أصبح رئيساً لديوان الإنشاء، كما عمل بالقضاء لفترة من الزمان.

وقد ألف العمري مؤلفات عديدة في مواضيع متنوعة مثل: تقويم البلدان والتاريخ، وشؤون الإدارة، وتراجم الشعراء، إلا أنه اشتهر بكتابين هما: " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " و " التعريف بالمصطلح الشريف ". وكتاب مسالك الأبصار يشتمل على معارف وعلوم عديدة مع أن عنوانه يعطي انطباعاً بأنه من كتب الجغرافيا. والكتاب يقع في أربعة عشر جزءاً، ويعتبر موسوعة ودائرة معارف علمية. وتتبع أهمية الكتاب من كونه يحتوي على معلومات قيمة في الأدب، والأديان، والتاريخ، فضلاً عن فيض من المعلومات عن الحياة الاجتماعية، والأقليات الدينية، وعلاقتها الرسمية بالدولة. وعلى عادة المؤلفين المسلمين، يستشهد العمري أحياناً بالشعر أو النثر وبذلك تمتزج العلوم بالأدب في مؤلفه. ويشتمل الكتاب على كل ما يهم طبقة الكتاب من الأمور الإدارية المتعلقة بالدولة، كما أن العمري يلقي كثيراً من الأضواء على بعض جوانب الحياة في العصر المملوكي الأول[٤٧].

أما كتاب: " التعريف بالمصطلح الحديث "، فالراجح أن العمري قام بتأليفه في الفترة الأخيرة من حياته ووضع فيه ثمار خبرته كواحد من كبار المسؤولين في الجهاز الإداري للدولة المملوكية. وقد أوضح العمري في مقدمة الكتاب الغرض من تأليفه، وهو أن يكون مرجعاً لكل من يعمل بالدواوين حيث جعله: (لما يحتاج إليه في ذلك الديوان المباشر، ويكون له كالمعلم الحاضر والجليس المباصر). وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقسام هي: (الأول في المكاتبات، والثاني في عادات العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير، والثالث في نسخ الإيمان، والرابع في الأمانات والهدن والمواصفات، والخامس في

نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتيق، والسادس في مراكز البريد، والحمام، ومراكز الهجن، والمراكب المسفرة في البحار، والسابع في أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه)[٤٨].

وللعمري مؤلفات أخرى لم تشتهر بين الناس مثل: " تذكرة الخاطر " و " حسن الوفا لمشاهير الخلفا " و " ذهبية العصر "، و " سفرة السامر ويقظة المسافر "، و " فواصل السمر في فضائل آل عمر " وغير ذلك.

١. ابن سرور المقدسي؛ هو الشيخ المحدث جمال الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال المقدسي الشافعي. ولد في بيت المقدس وبها درس في صباه وشبابه، كما مارس التدريس بالمدرسة التنكزية، وله عدد من المؤلفات في علم التاريخ أهمها: " مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ". ويعتبر الكتاب من كتب الفضائل وكان قد فرغ من تأليفه سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م. ويركز الكتاب على فضائل بيت المقدس ذاكراً الأحاديث النبوية التي تتضمن ذلك الفضل، ثم يذكر الفتح العمري للمدينة، ويذكر بناء مسجد قبة الصخرة والعجائب التي كانت في بيت المقدس في القدم. ويتضمن الكتاب ذكراً لأسماء الصحابة الذين نزحوا إليها ويذكر قبور من ماتوا بها. والجزء الأكبر من الكتاب يتضمن الأحاديث المضاعفة التي تقول بمضاعفة الحسنات لمن يقوم بزيارة المدينة، كما يتحدث عن فضائل شد الرحال إلى المسجد الأقصى، وفضل الصدقة في المدينة. ويختتم الكتاب بذكر الفتح الصلاحي لبيت المقدس، مع ذكر لبعض مشاهير مشايخ المدينة.

وقد توفي ابن سرور في بيت المقدس سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م.

٢. مجير الدين الحنبلي؛ هو مجير الدين أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العمري المقدسي العليمي الحنبلي. ولد ببيت المقدس، وبها تتلمذ على يد الشيخ تقي الدين القرقشندي، ثم ارتحل طلباً للعلم وقضى حوالي عشرة سنوات بالقاهرة. ثم عين قاضياً لمدينة الرملة سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م، ثم قاضياً للقدس سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م. واستمر

قاضياً للحنابلة في بيت المقدس حتى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. وتوفى ببيت المقدس سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م(٤٩).

وكان مجير الدين معاصراً للسلطان الأشرف قاتيباي، وهو يندرج تحت طائفة المؤرخين المهتمين بالتراجم والنواحي الدينية. ومن أهم مؤلفاته كتاب: " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل " الذي جمع فيه تواريخ بيت المقدس منذ القدم إلى سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م. والكتاب من أهم المؤلفات التي تناولت تاريخ بيت المقدس في العهد الأيوبي والعصر المملوكي. واستغرق تأليف الكتاب حوالي خمسة سنوات، وذكر المؤلف في المقدمة الأسباب التي دعته للتأليف بقوله: (وإنما دعاني لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا ما يتعلق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة من الزمن السابق وبيت المقدس لم أطلع له على شيء من ذلك يختص به، وإنما ذكروا في التواريخ أشياء في أماكن متفرقة. ورأيت الأنفس متشوقة إلى شيء من هذا النمط الذي قصدت فعله، فإن بعض العلماء كتب شيئاً يتعلق بالفضائل فقط، وبعضهم تعرض لذكر الفتح العمري ... وبعضهم ذكر الفتح الصلاحي واقتصر عليه ولم يذكر ما وقع بعده، وبعضهم كتب تاريخاً تعرض فيه لذكر بعض جماعة من أعيان بيت المقدس مما ليس فيه كبير فائدة. فأحببت أن أجمع بين ذكر البناء والفضائل والفتوحات وتراجم الأعيان وذكر بعض الحوادث المشهورة ليكون تاريخاً كاملاً)(٥٠).

وقد قسم مجير الدين كتابه إلى مواضيع مستقلة كالمدارس، والمساجد، والكنائس، والأسواق، والمزارات، وضمن كل موضوع من هذه الموضوعات يتبع المؤلف الترتيب الحولي عند ذكره للحوادث السياسية المتعلقة بالموضوع. وإذا كان مجير الدين يسرد في كتابه الحوادث ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإن اهتمامه بالأحداث الدينية، وتلك المتصلة بنشاطات الفقهاء، يبدو أكبر. وفي الحقيقة، فإن المؤلف يخصص الجزء الأكبر من الكتاب لتراجم الفقهاء في بيت المقدس، مع التوسع المدهش في الحديث عن القضاة، ومذاهبهم، وأهم أعمالهم(٥١).

والكتاب يعتبر من أحسن ما كتب عن تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ويجد الدارس بين ثنايا الكتاب كماً هائلاً من المعلومات الشيقة

عن الأخبار الاجتماعية، والمعلومات الإدارية والسياسية المتعلقة بمدينة بيت المقدس. وباختصار، فإنه يمكن القول بأن ما نجده في كتاب: " الأنس الجليل " لا يوجد في غيره من المؤلفات إذ لم يتعرض غيره لمثل ما ذكره من حيث التنوع والفائدة التاريخية.

وهناك عدد من المؤرخين المقادسة الذين لم يشتهر ذكرهم بين الناس، وقد قام بعضهم بالتأليف في تاريخ بيت المقدس، ومن هؤلاء:

١) أبو موسى المقدسي؛ الذي ورد ذكره عند ابن حجر العسقلاني، والذي جمع تاريخاً لبيت المقدس اهتم فيه بذكر الوفيات بشكل مختصر حتى سنة وفاته عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م[٥٢].

كذلك يذكر مجير الدين الحنبلي عدداً من المؤرخين ممن اهتموا بالتأليف في علم التاريخ، مثل:

١. تاج الدين التدمري؛ الذي يصفه الحنبلي بقوله: (خطيب مقام الخليل، وصنف كتاباً أسماه مثير الغرام إلى زيارة الخليل عليه الصلاة والسلام ... وهو كتاب حسن فيه فوائد جليلة)[٥٣]. وواضح من اسم الكتاب أنه من كتب الفضائل، ولا زال مخطوطاً ينتظر التحقيق. والراجح أن التدمري مات سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م ببيت المقدس.

٢. ومن علماء بيت المقدس الذين اشتهروا في علم التاريخ، محمد بن أبي حامد المقدسي، من علماء القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. فقد ألف كتاباً أسماه: " دول الإسلام الشريفة البهية وذكر ما ظهر لي من حكمة الله الخفية في جلب طائفة الأتراك إلى الديار المصرية ". والكتاب لا زال مخطوطاً ينتظر التحقيق والدراسة، ونجد صورة عنه في فهرس المخطوطات المصورة الموجودة بمعهد المخطوطات العربية.

٣. ومن علماء بيت المقدس الذين كتبوا في علم التاريخ، الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشافعي، المشهور بابن روحة أبي عذيبة. وقد ذكره مجير الدين الحنبلي وقال بأنه كتب كتابين في التاريخ، أحدهما تاريخ مطول والآخر مختصر. وذكر الحنبلي بأن تاريخ ابن روحة المطول لم يصل إلينا إلا أجزاء قليلة منه. أما مؤلفه المختصر فهو مرتب على

حروف المعجم ويضم بين ثناياه تراجم لعلماء عصره من المقادسة، وقد استفاد كثيراً من تراجم من سبقوه من أمثال ابن سرور المقدسي، كما نقل عن ابن حجر العسقلاني الذي كان معاصراً له. وقد توفى ابن روحة سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م، وهي ذات السنة التي توفى فيها ابن حجر[٥٤].

٤. ومن علماء بيت المقدس الذين اهتموا بالكتابة في التاريخ، ابن عبدالهادي المقدسي. وقد ذكره مجير الدين الحنبلي، وأورد أنه كتب كتاباً سماه: " الرياض اليانعة في أعيان المائة السابعة ". وواضح من اسم الكتاب أنه يركز على تراجم الأعيان في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٥٥]. وقد توفى ابن عبدالهادي في بيت المقدس سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م.

وفي الحقيقة فإن عدداً كبيراً من مشاهير المؤرخين في العصر المملوكي، من أمثال: أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، والسبكي، (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٦هـ/ ١٤٢٥م)، وابن شاهين (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، وابن الصيرفي (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، أوردوا معلومات هامة عن تاريخ بيت المقدس وترجموا لبعض علمائها في ثنايا تواريخهم. ويعتبر ما ورد عند هؤلاء المؤرخين مكملاً لما صاغه أبناء بيت المقدس من المؤرخين وإن كانت معلومات المؤرخين المقادسة أكثر دقة وتفصيلاً، خاصة مجير الدين الحنبلي.

وعموماً، يمكن القول بأن النشاط في مجال التاريخ كان نشاطاً متصل الحلقات، وأن الكتابة التاريخية عن بيت المقدس شهدت تطوراً ملحوظاً خلال العصر المملوكي إذ تحول الاهتمام من كتابة التاريخ الموسوعي الشامل إلى الاهتمام بالتاريخ المحلي. كذلك يلاحظ أن كتابات المؤرخين المقادسة تميزت بعدم التصنع لأن معظمهم كتبوا حباً في التاريخ وليس لاستجلاب رضا السلاطين، كما يلاحظ بأن مؤلفاتهم كانت جديدة في موضوعاتها ولم تكن ذيولاً أو نقولات أو تكملات لكتب سابقة كما كان الحال عند بعض المؤرخين في مركز الدولة في القاهرة من أمثال بدر الدين الزركشي (ت ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) الذي ذيل على كتاب " وفيات الأعيان " لابن خلكان بكتاب سماه: " عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان ".

ازدهار العلوم العقلية (التطبيقية) في بيت المقدس في العصر المملوكي

شهدت مدينة بيت المقدس نشاطاً ملحوظاً في مجالات العلوم التطبيقية، مثل الطب والرياضيات والفلك، وبرع من أبنائها بعض العلماء ممن ذاع صيتهم بين الناس خلال العصر المملوكي. وسنركز في حديثنا على علم الطب وعلم الرياضيات بحسبان أنها الأكثر ازدهاراً في المدينة على عصر سلاطين المماليك.

أولاً: علم الطب:

ظل علم الطب مزدهراً في مدينة بيت المقدس خلال العصر الأيوبي. وكان علم الطب يدرس نظرياً وعملياً، إذ يدرس الطالب كتب الطب على أساتذة، ثم يلازمهم في البيمارستانات لمعاينة المرضى، والتعرف على أوصاف الأمراض وأسبابها. وظلت البيمارستانات أماكن تعقد بها المناظرات والمناقشات الطبية، كما كانت تجري فيها التطبيقات العملية لمختلف فروع الطب. وكان البيمارستان الصلاحي، الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي في مكان الكنيسة المجاورة لدار الاسبتارية قرب كنيسة القيامة، أهم بيمارستانات بيت المقدس خلال العهد الأيوبي، وظل يقوم بدور كبير في معالجة المرضى، إضافة لكونه مركزاً لتعليم الطب نظرياً وتطبيقياً. ولم يكن البيمارستان الصلاحي على نفس درجة شهرة البيمارستان النوري في دمشق، لكنه ظل يؤدي دوراً مقدراً في النواحي العلاجية والتعليمية في بيت المقدس.

وكانت دراسة علم الطب في العصر المملوكي امتداداً لنشاط مدرسة الطب في العهد الأيوبي، والتي كان يمثلها الطبيب يعقوب بن صقلاب المقدسي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٧م). وقد ولد ابن صقلاب بالقدس، وتعلم فيها الطب على يد بعض الأطباء النصارى حتى ذاع صيته، كما اشتهر بصناعة الأدوية. وظل في مباشرة البيمارستان الصلاحي، إلى أن ملك الملك المعظم عيسى بن العادل بيت المقدس فاختص به[٥٦]. ويصفه ابن أبي أصيبعة بقوله: (كان أعلم أهل زمانه

بكتب جالينوس، ومعرفتها والتحقيق لمعانيها والدراية بها ... وأما معالجاته فإنها كانت في الغاية من الجودة ... وكان شديد البحث واستقراء الأمراض ... وكانت أبداً معالجاته لا مزيد عليها في الجودة)[٥٧]. وقد خلفه من بعده ابنه سديد الدين أبو منصور الذي كان من أفاضل الأطباء وأعيان العلماء في بيت المقدس، وخدم الملك الناصر صلاح الدين داؤود بن الملك المعظم عيسى إلى أن توفى[٥٨].

ونجد في المصادر العربية، مثل ابن أبي أصيبعة(ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، وابن حجر العسقلاني، ومجير الدين الحنبلي، معلومات تفيد في إلقاء الضوء على تطور علم الطب في بيت المقدس على عهد سلاطين المماليك، كما تلقي الأضواء على إنجازات بعض مشاهير الأطباء المقادسة. ومن أطباء بيت المقدس في العصر المملوكي:

١. عماد الدين إسماعيل بن إبراهيم بن سليمان المصري، ذكره ابن حجر وقال عنه: (اعتنى بالطب ومهر فيه ... وكان حسن المعالجة ... ومات في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة بالقدس)[٥٩]. والواقع فإن عماد الدين أخذ الطب عن مشاهير علماء عصره من أمثال عماد الدين النابلسي، الطبيب المشهور في بدايات العصر المملوكي، كما تتلمذ على يد الطبيب ابن العديم. والراجح أن عماد الدين درس أولاً في القاهرة قبل أن ينتقل إلى بيت المقدس التي ذاع صيته فيها كطبيب، وظل يمارس الطب حتى وفاته سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م.

٢. صلاح الدين محمد بن إبراهيم بن سليمان، المعروف بابن البرهان الجرائحي. ولد في بيت المقدس من أسرة علمية، وقال عنه الصفدي: (قرأ الطب على ابن النفيس ... وكان فاضلاً مائلاً إلى علم النجوم ... وقرأ في فترة متأخرة كتاب الشفاء لابن سينا على الأصفهاني)[٦٠]. وذاع صيت ابن البرهان الجرائي في بيت المقدس، فقصده الناس للعلاج على يديه من أغلب مدن وقرن فلسطين، وقيل بأنه خلف تركة بلغت حوالي ثلاثمائة ألف درهم. وتوفى في بيت المقدس سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٠م.

٣. أحمد بن محمد بن عبدالله بن عمرو المقدسي، المعروف بابن المحتسب. ولد في دمشق سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤، وكان في بداية حياته عطاراً، ثم

درس الطب وانتقل إلى بيت المقدس حيث ذاع صيته بين الناس كما يقول ابن حجر(٦١).

٤. محمد بن حسن بن أحمد المقدسي، المعروف بابن الكردية. ولد سنة ٧٨١ هـ/ ١٣٧٩م لأبوين من الأكراد، وقدم إلى بيت المقدس مع أسرته صغيراً. ودرس في صباه العلوم الدينية، ثم اتجه لدراسة الطب، وأقام ببيت المقدس ثلاثين سنة قبل أن يتحول إلى مكة المكرمة فقطنها لكنه ظل دائم التردد على بيت المقدس. وقد ترجم له السخاوي ووصفه بقوله: (كان عارفاً بالطب ... ويجمع كتب الطب من أقاصي البلاد)(٦٢). وتوفى سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م.

٥. ومن مشاهير الأطباء المقادسة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، الطبيب جمال الدين يوسف بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي. وهو من الأطباء القلائل الذين اهتموا بالتأليف في علم الطب وله كتاب مشهور متخصص في علاج الأسنان سماه: " الإتقان في أدوية اللثة واللسان ". ويُفهم من عنوان الكتاب أنه كان ببيت المقدس بعض الأطباء الذين تخصصوا في بعض فروع العلوم الطبية. وقد توفى في بيت المقدس سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م.

ويلاحظ من تراجم من ذكرناهم من الأطباء المقادسة أنهم لم يكن لهم شأن كبير في مجال التأليف ما عدا جمال الدين بن عبدالهادي، كما يلاحظ بأن تراجم حياتهم لم تشر إلى خدمتهم في البيمارستان الصلاحي على عكس أطباء العهد الأيوبي. ولعل السبب في ذلك أننا وجدنا أن ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) يفرد كتابه " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " كله لتراجم الأطباء ولذلك اهتم بذكر تفاصيل وافية عنهم، في حين أننا لم نجد مصدراً ترجم لأطباء العصر المملوكي وإنما جاءت الأخبار عنهم متفرقة في المصادر التاريخية وبعض كتب التراجم غير المتخصصة، مثل مجير الدين الحنبلي وابن حجر العسقلاني وغيرهما.

وتجدر الإشارة إلى أنه وجد في بيت المقدس عدد من الأطباء من أهل الذمة كانوا يقومون بمعالجة أبناء طوائفهم المختلفة بالإضافة إلى المسلمين، وليس أدل

على ذلك مما أورده الرحالة اليهودي الأسباني إسحاق هيلو (Isacc Heilo)، الذي زار بيت المقدس سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، من أن بعض اليهود كانوا يشتغلون بمهنة الطب[٦٣]. كذلك أشار الرحالة فيلكس فابري (Felix Fabri) إلى وجود أطباء في دير الرهبان الفرنسيسكان يقومون بعلاج الحجاج المسيحيين في المستشفى الصغير الملحق بالدير في جبل صهيون[٦٤]. كذلك أشار بعض الرحالة الأوربيين، الذين زاروا بيت المقدس خلال العصر المملوكي، إلى أن أبناء الطوائف المسيحية المحلية كان لهم أطباء يعالجون المرضى داخل مؤسساتهم الدينية والاجتماعية، وبخاصة في الأديرة[٦٥].

ثانياً: الرياضيات:

برع عدد من العلماء المقادسة في علم الرياضيات في العصر المملوكي. وينبغي ملاحظة أن ازدهار العلوم العقلية عامة، وعلم الرياضيات خاصة، في بيت المقدس لا يقارن بما كان يحدث في مركز الدولة المملوكية في القاهرة فقد كانت بيت المقدس مدينة صغيرة نسبياً، ولذلك لم يكن من المتوقع أن يكون بها أكثر من بيمارستان رئيسي لتعلم الطب، أو مرصد كبير للتطبيق العملي لعمليات الرصد الفلكي. ولكننا نجد في المصادر العربية وكتب التراجم، وخاصة ابن حجر العسقلاني ومجير الدين الحنبلي، معلومات متناثرة عن بعض العلماء المقادسة الذين اشتهروا في مجال العلوم العقلية (التطبيقية)، ومن مشاهير علماء بيت المقدس في الرياضيات وفروعها كالحساب والهندسة، نذكر:

١. عبدالرحمن بن محمد بن إبراهيم بن أبي عمر المقدسي الحنبلي القرضي، ولد في بيت المقدس سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، وفيها تلقى تعليمه. برع في العلوم العقلية، خاصة الرياضيات، ودرس في بعض مدارس بيت المقدس، ويصفه ابن حجر بقوله: (ومهر في الرياضيات وانتفع به الناس وكان من الأخيار)[٦٦]. توفى في بيت المقدس سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م.

٢. عثمان الحصني الشافعي، استوطن بيت المقدس واشتغل بالرياضيات والفرائض. وترجم له مجير الدين وقال عنه: (كان من أهل الفضل، وله يد طولى في الفرائض ... اشتغل عليه جماعة وانتفعوا به، وكانت وفاته بعد الثمانية والثمانمائة بالقدس الشريف)[٦٧].

٣. شرف الدين موسى بن محمد الحنبلي، كان من أبرز علماء الهيئة (الفلك) في بلاد الشام. انتقل إلى بيت المقدس وذاع صيته فيها، وله مؤلفات عديدة في علم الفلك منها: " رسالة في الاسطرلاب " و " معرفة الأوقات "، وغيرها[٦٨].

٤. شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين بن علي المصري المقدسي، المعروف بابن الهائم. من أشهر العلماء الذين وفدوا إلى بيت المقدس وبرع في الفرائض والحساب ودرس في الصلاحية إلى أن صار من شيوخ المقادسة، وقد لقيه ابن حجر وقال عنه: (اجتمعت به ببيت المقدس وسمعت من فوائده)[٦٩]. وهو من أكثر العلماء المقادسة شهرة في علم الرياضيات، خاصة في مجال التأليف. وقد أوردت كتب التراجم الكثير من المؤلفات المنسوبة إليه، ولا يزال بعضها مخطوطاً في دار الكتب المصرية، ومن مؤلفاته:

- " التحفة القدسية في الفرائض " و " ترغيب الرائض في علم الفرائض ".
- " الحاوي في الحساب " و " شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة ".
- " الفصول المهمة في مواريث الأمة " و " والوجيز في علم الهيئة ".
- " مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب في علم الحساب ".

ومن مؤلفاته بعض الرسائل المتخصصة في بعض فروع الرياضيات كإمساك الدفاتر المستخدمة في عمليات البيع والشراء إذ له رسالة سماها " المعونة "، تناول فيها بعض المسائل مثل أقسام العدد وكيفية التوصل إلى استخراج المجهولات، وكل ما يهم المشتغلين بعلم العمليات الحسابية.

وله رسالة سماها " المناسخات " يتحدث فيها عن كيفية الفصل بين الورثة إذا تعددت مصادر إرثهم، وأورد فيها عدداً من الجداول الرياضية لاستخدامها في المسائل والعمليات الحسابية. وقد أورد مجير الدين معلومات شيقة عن ابن الهائم المصري المقدسي وركز على شهرته في علم الحساب خاصة. وتوفي في بيت المقدس سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م[٧٠].

وينبغي الإشارة إلى أن بعض علماء بيت المقدس من أهل الذمة اشتغلوا أيضاً بعلوم الرياضيات من حساب وفلك وغيرها، كما أشار إلى ذلك الرحالة اليهودي إسحاق بن شيلو، الذي زار المدينة سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م[٧١].

المؤسسات التعليمية:

تعددت المؤسسات التعليمية في بيت المقدس من مدارس وخانقاوات، وزوايا، وجوامع، ومساجد وبيمارستانات. وقد لعبت هذه المؤسسات والمراكز أدواراً هامة في الحياة العلمية والتعليمية والثقافية في المدينة طوال العصر المملوكي.

وقد تكاتفت عوامل عديدة، من أمن واستقرار وأوقاف، لظهور عدد كبير من المؤسسات والمراكز التعليمية في بيت المقدس. وقد عدد مجير الدين الحنبلي أكثر من أربعين مدرسة، وأكثر من عشرين زاوية، فضلاً عن مكاتب تعليم الأطفال والمساجد في المدينة في عصره[٧٢]. وينبغي أن نذكر أن بعض العلماء كان يتخذ من داره مجلساً للعلم كما يظهر من تراجم بعض العلماء المقادسة في كتاب "الضوء اللامع" للسخاوي[٧٣].

وتعددت بواعث إنشاء هذه المؤسسات والمراكز التعليمية في بيت المقدس خلال العصر المملوكي. ويلاحظ بأن السلاطين والأمراء لم يكونوا الوحيدين وراء إنشاء هذه المؤسسات، بل شاركهم في ذلك بعض التجار والمحسنين من الرجال والنساء[٧٤].

ولعل من أهم بواعث السلاطين والأمراء المماليك من إنشاء المدارس وغيرها، التقرب إلى الله كما يتضح في كثير من النقوش على تلك المؤسسات. ومنها أيضاً التقرب إلى الرعية، وخاصة من جانب الأمراء ونواب السلطنة في بيت المقدس. كذلك كان لتعصب بعض الناس لمذاهبهم الفقهية باعثاً لإنشاء مدرسة لتدريس مبادئ ذلك المذهب كما سيتضح لنا من دراسة بعض المدارس.

أولاً: المدارس:

حظيت بيت المقدس خلال العصر المملوكي بعدد كبير من المدارس. وقد كان بعض هذه المدارس قد أنشئ خلال العهد الأيوبي، كما تم بناء مدارس جديدة خلال العصر المملوكي. وتفاوتت هذه المدارس في أحجامها وشهرتها، وإن كان العدد الأكبر قد تركز في منطقة الحرم الشريف. ولا نجد في المصادر التي بين أيدينا وصفاً لكل مدارس بيت المقدس، ولذلك سنكتفي بذكر بعضها، ومنها:

١. المدرسة الصلاحية، وهي أول مدرسة أقيمت في بيت المقدس بعد تحريرها من قبضة الفرنجة (الصليبيين) سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ومنشؤها هو صلاح الدين الأيوبي. وقد تعاقب على مشيخة المدرسة الصلاحية خلال العهد الأيوبي عدد هائل من مشاهير الفقهاء والعلماء، من أمثال المؤرخ بهاء الدين بن شداد صاحب كتاب " النوادر السلطانية "، وفخر الدين بن عساكر الشافعي، والإمام تقي الدين أبو عمر عثمان ابن الصلاح الشهرزوري، والشيخ سالم بن نصر الله الحموي، والد المؤرخ جمال الدين بن واصل[٧٥].

وظلت المدرسة الصلاحية واحدة من أشهر مدارس بيت المقدس خلال العصر المملوكي، وتنافس السلاطين والأمراء والولاة على وقف الأوقاف السخية عليها.

٢. المدرسة الأشرفية، وهي مدرسة بدأ بناءها الأمير حسن الظاهري ناظر الحرمين الشريفين، سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م، ولما لم يستطع إكمال البناء، سأل السلطان الأشرف قاتيباي أن يكملها. وبالفعل أكمل السلطان الأشرف بناء المدرسة، فنسبت إليه، وهو الذي رتب لها شيخاً، وفقهاء وأوقف عليها الأوقاف.

ونجد في وثيقة الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف التي أوقفها السلطان الأشرف قاتيباي على المدرسة، تفاصيل هامة عنها. فقد أوردت الوثيقة عدة أجزاء من قرى كثيرة في فلسطين، في كل من الخليل، وغزة، واللد، ونابلس، والرملة، وبعض المباني من خانات، وحمامات، ومعاصر زيوت، وأفران، وطواحين، واصطبلات وغيرها ضمن أوقاف المدرسة[٧٦].

كذلك أوضحت الوثيقة الوظائف الخاصة بتلك المدرسة، ومرتب كل منها، وأبواب الصرف من ريع الوقف. وعلى سبيل المثال، أوضحت الوثيقة أن يخصص لناظر الوقف ستمائة درهم شهرياً، ولشيخ المدرسة خمسمائة وعشرة دراهم شهرياً، كما نصت الوثيقة أن يقيم بالمدرسة ستون صوفياً يصرف لكل واحد منهم خمسة عشر درهم شهرياً، وعشرة طلاب يصرف لكل واحد منهم خمسة وأربعون درهماً. وتذكر الوثيقة ما كان يجب أن يتم من التوسعة على النازلين بالمدرسة في شهور

رجب وشعبان ورمضان من كل عام وخصصت مبلغ ألفين درهم لذلك الغرض. وتمضي الوثيقة لتذكر تفاصيل أخرى عن راتب خازن الكتب بالمدرسة في حدود عشرة دراهم، والبواب والفراش و الوقار ولكل واحد منهم ستون درهماً شهرياً، والمباشر وله أربعون درهماً شهرياً، كما تذكر راتب الشاد والجابي، ولكل واحد منهما مائة درهم شهرياً. كذلك تذكر الوثيقة المبالغ التي تصرف على زيت الإضاءة، وثمن الحصر والقناديل والأباريق شهرياً. وتنتهي الوثيقة بتوضيح أنه إذا بقي فائض من ريع الوقف، (فإنه على الناظر أن يصرفه في وجوه البر والقربات والأجر والمثوبات ثم للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا)[٧٧].

ويذكر المقريزي أن السلطان الأشرف قاتيباي أعاد بناء المدرسة الأشرفية، وسير لذلك الغرض المهندسين المعماريين والحجارين وغيرهم من الصناع من القاهرة. وقد تم افتتاح المدرسة الجديدة سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، وتم زيادة الأوقاف الموقوفة عليها كما يتضح ذلك من وثيقة الوقف الثانية التي حررت سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م. وظلت المدرسة أحد أشهر مدارس بيت المقدس ولم يتغير مكانها داخل المسجد الأقصى قرب باب السلسلة.

٣. المدرسة الدوادارية، وتقع عند مدخل باب الدوادارية أحد أبواب المسجد الأقصى. وكانت في البداية خانقاه مخصصة للصوفية ثم صارت مدرسة لتدريس المذهب الشافعي. وقد بناها الأمير سنجر الدواداري، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة كما يتضح من وثيقة الوقف الخاصة بها. فقد وقف عليها الأمير سنجر قرى عديدة قريبة من بيت المقدس، وست حوانيت ووراقة بنابلس، إضافة لثلاثة بساتين وثلاث حوانيت بمدينة بيسان.

٤. مدرسة دار الحديث، وكانت بجوار التربة الجالقية. وقد أوقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين الهكاري سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م[٧٨]. وكانت المدرسة مخصصة لتدريس علم الحديث فقط، ويبدو أنها كانت من المدارس الصغيرة نسبياً ولم نجد عنها معلومات واسعة في المصادر التي بين أيدينا. وتذكر بعض المصادر أن السلطان الظاهر بيبرس جدد بناء مدرسة دار الحديث.

٥. المدرسة النحوية، وهي من المدارس التي أقيمت منذ العهد الأيوبي إذ أنشأها الملك المعظم عيسى سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م، وأشرف على بنائها والي بيت المقدس حينذاك حسام الدين قايماز المعظمي على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة.

وكانت المدرسة مقتصرة على تدريس علم النحو وعلم اللغة، إضافة إلى تعليم القراءات السبع. وظلت المدرسة موقوفة على فقهاء المذهب الحنفي، وقد رتب لها الملك المعظم، كما يقول ابن فضل الله العمري: (إماماً يصلي الصلوات الخمس، ورتب لها خمسة وعشرون نفراً من طلبة النحو، وشرط أن يكونوا حنفية)[٧٩].

وخلال العصر المملوكي، ظلت المدرسة النحوية تقوم على تدريس النحو وإن لم نجد في المصادر سوى معلومات قليلة عنها. فقد ذكر مجير الدين الحنبلي بأنها كانت من المدارس الموجودة داخل الحرم الشريف قريباً من مدارس أخرى، وأن عدد طلابها كان قليلاً مقارنة بالمدارس المجاورة[٨٠].

٦. المدرس الأفضلية، وهي من المدارس التي أقيمت منذ العهد الأيوبي إذ بناها الملك الأفضل علي بن صلاح الدين سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، وأوقفها على علماء المالكية. وقد بنيت المدرسة في حي المغاربة، في الجهة الجنوبية الشرقية من الحرم الشريف، في المنطقة المحيطة بالبراق الشريف وهي من المدارس المنتشرة داخل الحرم الشريف بجوار عدد آخر من المدارس. ولكنها لم تنل سمعة واسعة خلال العصر المملوكي.

٧. المدرسة الفارسية، كانت بداخل الحرم الشريف، ولم نعرف من بناها. وقد ذكرها مجير الدين الحنبلي ضمن مدارس المسجد الأقصى[٨١].

٨. المدرسة الناصرية، وكانت تقع على برج باب الرحمة في منطقة الحرم الشريف. وقد ذكرها مجير الدين الحنبلي ضمن المدارس الصغيرة في عصره[٨٢].

٩. المدرسة التنكزية، والتي أنشأها الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م. وقد ذكرها ابن فضل الله العمري وأوضح بأنها كانت قريبة من خانقاه ورباط انشأهما تنكز وأوقف عليها سوقاً[٨٣].

وكانت المدرسة تقع عند باب السلسلة وملاصقة لسور المسجد الأقصى الغربي من الداخل، وقد خصصت لتدريس المذاهب الأربعة.

١٠. المدرسة الخاتونية، وكانت بباب الحديد. ولم نجد عنها أية معلومات في المصادر التي بين أيدينا مما يرجح بأنها كانت من المدارس الصغيرة غير المشهورة.

١١. المدرسة العثمانية، بناها السلطان الأشرف برسباي بباب المتوضأ تجاه سبيل السلطان الأشرف قاتيباي.

١٢. المدرسة الميمونية، وهي مدرسة وجدت في بيت المقدس منذ العهد الأيوبي إذ بناها الأمير المملوكي فارس الدين ميمون القصري عند باب الساهرة في الجهة الشمالية من المدينة. وقد خصصت المدرسة لتدريس الفقه الشافعي، وظلت كذلك طوال العصر المملوكي. وقد ذكرها مجير الدين الحنبلي ضمن مدارس بيت المقدس في عصره[٨٤].

١٣. المدرسة الأباصيرية، وكانت تجاه الرباط المنصوري بجوار باب الناظر. وقد بناها السلطان الظاهر بيبرس، وأوقف عليها أوقافاً عديدة. ولم تكن المدرسة الأباصيرية من مدارس بيت المقدس المشهورة.

١٤. المدرسة الغزية، وبنيت في عهد السلطان برقوق، وكانت على مقربة من باب الأسباط.

١٥. المدرسة الباسطية، وبناها السلطان الأشرف برسباي شمال الحرم الشريف بالقرب من باب الغنم.

١٦. المدرسة القادرية، وبناها أيضاً السلطان الأشرف برسباي وكانت تقع بين باب حطة من الغرب ومئذنة إسرائيل من الشرق.

١٧. المدرسة الحسينية، وبناها السلطان الأشرف برسباي، وكانت بباب الناظر غربي الحرم الشريف فوق أحد رباطات بيت المقدس[٨٥].

١٨. المدرسة الجاولية، نسبة للأمير علم الدين سنجر الجاولي الذي بناها أيام سلطة الناصر محمد بن قلاوون.

١٩. المدرسة الكريمية، وكانت تقع بباب حطة، وبناها الأمير علم الدين سنجر الجاولي.

٢٠. المدرسة المزهرية، وتقع بباب الحديد. وقد أنشأها السلطان الأشرف قاتيباي كما يذكر مجير الدين الحنبلي[٨٦].

٢١. المدرسة الزمينية، وكانت تقع غرب الحرم فوق الأيوان الذي بباب القطانين. وقد أنشأها السلطان الأشرف قاتيباي.

٢٢. مدرسة الدركاة، وتقع بجانب البيمارستان الصلاحي في الجهة الغربية من بيت المقدس. وقد بناها الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، وأوقفها لعلماء الشافعية[٨٧]. والراجح أن المدرسة بنيت في المكان الذين كان يسمى دار الفرسان الاسبتارية[٨٨]. ولم نجد لها ذكراً كبيراً في العصر المملوكي مما يرجح بأنها لم تكن من المدارس الشهيرة في المدينة.

٢٣. المدرسة الأرغونية، وتقع بباب الحديد (باب أرغون قديماً) أحد أبواب المسجد الأقصى.

٢٤. المدرسة الجوهرية، بباب الحديد أيضاً.

٢٥. المدرسة البلدية، وتقع بباب السكينة بجوار باب السلسلة قرب المدرسة الأشرفية.

٢٦. مدرسة دار القرآن السلامية، وكانت تقع تجاه مدرسة دار الحديث، وقد أوقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر السلامي لتدريس القرآن سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م[٨٩].

ويمكن إبداء بعض الملاحظات الهامة حول مدارس بيت المقدس في العصر المملوكي، ومنها:

أولاً: أن بعض هذه المدارس وجدت منذ العهد الأيوبي مثل: المدرسة الصلاحية، والمدرسة النحوية، والمدرسة الأفضلية، والمدرسة الميمونية، ومدرسة الدركاة.

ثانياً: كان بعض هذه المدارس على درجة عالية من الفخامة في البناء وعلى درجة كبيرة من الشهرة بفضل من درسوا فيها من مشاهير العلماء. ومن أمثلة تلك المدارس: المدرسة الأشرفية، والمدرسة الدوادارية.

ثالثاً: يلاحظ أن معظم مدارس بيت المقدس في العصر المملوكي تركزت في مكان واحد حول الحرم الشريف أو بداخله، ومن ذلك على سبيل المثال لا

الحصر، المدرسة الفارسية، والمدرسة النحوية، والمدرسة التنكزية، والمدرسة البلدية، والمدرسة العثمانية، والمدرسة الخاتونية، والمدرسة الجوهرية. وفي الحقيقة، فقد وجدت اثنى عشر مدرسة في منطقة الحرم. ولعل السبب في تركيز تلك المدارس في منطقة الحرم راجع إلى طبيعة المدينة الدينية، وحرص السلاطين وأهل الخير على أن يجعلوا من منطقة الحرم الشريف مجمعاً إسلامياً يضاهي بقية الأمكنة النصرانية في المدينة.

رابعاً: يلاحظ أن بيت المقدس عرفت نوعاً من المدارس التي تدرس فيها المذاهب الأربعة والتي لم تخصص لتدريس مذهب واحد، ولذلك راعى بناة هذه المدارس اختيار الشكل الذي يتناسب مع طبيعة تلك المدرسة، والمواد التي ستدرس فيها، فكانوا يفضلون لهذا النوع من المدارس أن تكون على شكل إيوانات متعاقدة ومتقابلة ولكل مذهب مكان مستقل عن أماكن تدريس المذاهب الأخرى. وخير مثال لذلك النوع المدرسة التنكزية.

خامساً: يلاحظ أن أغلب مدارس بيت المقدس كانت موقوفة على المذهب الشافعي، وهو المذهب السائد في بلاد الشام عامة. ويلاحظ أنه رغم الانتعاش النسبي للمذهب المالكي والحنبلي في بلاد الشام خلال العصر المملوكي إلا أن المدارس الموقوفة عليهما كانت قليلة.

سادساً: لم يرد في المصادر العربية ذكر للمدارس النصرانية أو اليهودية في بيت المقدس في العصر المملوكي. والواقع، فإن المسيحيين المحليين كانوا يقومون بتعليم أبنائهم في الكنائس والأديرة الخاصة بهم والتي عد مجير الدين الحنبلي منها أكثر من عشرين في بيت المقدس(٩٠).

أما بالنسبة لليهود، فالراجح أن عددهم كان قليلاً في بيت المقدس مقارنة بالمسلمين والنصارى ولذلك لم تذكر لهم مؤسسات تعليمية كثيرة بالمدينة خلال العصر المملوكي. والراجح، أن كنيس اليهود، الذي بناه الرابي موسى بن نحمان في العهد الأيوبي، وكان يعرف بالأكاديمية اليهودية، ظل محور الحياة التعليمية لليهود في المدينة. وظلت الأكاديمية اليهودية تعتمد على التبرعات والأموال التي كانت تجمع من يهود المغرب العرب وأسبانيا(٩١).

المؤسسات التعليمية الأخرى في بيت المقدس

إلى جانب المدارس، وجد في بيت المقدس في العصر المملوكي، مؤسسات ومراكز تعليمية أخرى مثل: الخانقاوات، والزوايا، والجوامع، والمساجد، والبيمارستانات، والكنائس والأديرة وغيرها. وقد لعبت هذه المؤسسات والمراكز أدواراً متعددة في الحياة العلمية والتعليمية في المدينة. وينبغي ملاحظة أن المصادر المعاصرة تخلط بين مدلول الخانقاة والرباط والزاوية ولا تفرق بين مدلول هذه الألفاظ الثلاثة.

أولاً: الخانقاوات:

الخانقاة لفظ مأخوذ عن الفارسية، ومعناه البيت الذي ينزل فيه الصوفية. وقد بنيت الخانقاوات في بيت المقدس منذ العهد الأيوبي، ذلك أن صلاح الدين أنشأ الخانقاة الصلاحية سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، مكان دار البطريرك، غرب الحرم الشريف وبالقرب من كنيسة القيامة[٩٢]. وقد خصص صلاح الدين الخانقاة للصوفية، وأوقف عليها أوقافاً سخية، ومنذ ذلك الحين كانت الخانقاة ملجأ للصوفية إضافة لكونها مركزاً تعليمياً لهم إذ كان يتم فيها تعليم أصول التصوف نظرياً ثم يتم تطبيق هذه الأصول عملياً عن طريق القيام بالشعائر الصوفية.

ونتيجة لازدهار التصوف في العصر المملوكي، اهتم السلاطين والأمراء ببيوت الصوفية فشيدوا منها الكثير وحبسوا عليها الأوقاف الكثيرة. وكان لكل خانقاة شيخ اشترط فيه: (أن يكون من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة). واعتبرت مشيخة الخوانق من الوظائف التي يصدر بها قرار من ديوان الإنشاء السلطاني، وكل خانقاة يعامل شيخها في المكاتبة حسب أهمية الخانقاة التي يتولى مشيختها.

ومن الخانقاوات الهامة في بيت المقدس خلال العصر المملوكي:

١. الخانقاة الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وكانت دار البطريرك أيام الفرنجة (الصليبيين) كما ذكرنا سابقاً. ونجد في وثيقة وقفية الخانقاة الصلاحية الأوقاف التي أوقفت عليها من قرى مجاورة لبيت المقدس، وحوانيت وغيرها. وظلت الخانقاة الصلاحية

نشطة تعمل على إيواء الصوفية في بدايات العصر المملوكي ثم لم يرد ذكر نشاطها بعد ذلك.

٢. الخانقاة التنكزية، التي بناها الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون(٩٣). وكانت خانقاة كبيرة متينة البناء وأوقفت عليها أوقافاً سخية.

٣. الخانقاة الدوادارية، وتعرف أيضاً باسم الزاوية الدوادارية. وقد أنشأها الأمير سنجر الدواداري. وقد نشر فان برشم (Van Brechem) نص حجة الوقف الخاصة بها التي تقول: (أمر بإنشاء هذه الخانقاة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى عبدالله بن عبدربه ابن عبدالباري سنجر الدواداري الصالحي ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفراً من الطائفة الصوفية من العرب والعجم منهم عشرون نفراً عزاباً وعشرة مزوجون يقيمون بها لا يظعنون عنها لا صيفاً ولا شتاءً ولا ربيعاً ولا خريفاً إلا لحاجة وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية مدة عشرة أيام ووقف عليها قرية بيرا من قرى القدس وقرية حجلا من أريحا وطاحون وعلوهما بالقدس ودار ومضية وست حوانيت ووراقة وثلاث بساتين وثلاث حوانيت وأربع طواحين ببيسان ... ووقف ذلك على هذه الخانقاة وعلى تدريس مذهب الشافعي وعلى شيخ يسمع الحديث النبوي وقارئ يقرأ عليه وعلى عشر نفر يسمعون الحديث وعشر نفر يتلون كتاب الله كل يوم ختمة وعلى مادح ينشد مدح النبي ...)(٩٤).

ويتضح من دراسة نظم الخانقاوات أن كلاً فيها كونت وحدة قائمة بنفسها وبداخلها عدد معين من الخلوات.

ثانياً: الرباطات:

الرباط في الأصل هو المكان المحصن الذي يقام قرب الحدود ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء أو دفع خطرهم. وكان أهل الرباط يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية. وقد أدى ازدهار التصوف في العصر المملوكي أن يفقد الرباط طابعه الحربي وتغلبت عليه بالتالي الصفة الدينية. ويفهم مما أورده المقريزي أن الرباط أحياناً قد تغلب عليه صفة الملجأ للصوفية.

ومن ذلك ما ذكره عن السلطان بيبرس الجاشنكير الذي بنى رباط: (وقرر به مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت)[٩٥].

ومن أشهر الرباطات التي وجدت في بيت المقدس في العصر المملوكي:

١. الرباط المنصوري، الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون، ويقع بباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى. وقد ذكره مجير الدين الحنبلي وقال عنه: (وهو رباط غاية في الحسن والبناء المحكم)[٩٦].
٢. الرباط الناصري، الذي أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م[٩٧].
٣. الرباط التنكزي، الذي بناه الأمير تنكز نائب الشام، وألحق به سوقاً موقوفاً على المسجد الأقصى[٩٨].

ثالثاً: الزوايا:

الزاوية في الأصل مبنى أو مسجد صغير للصلاة والعبادة. ولكن لفظ " زاوية " تطور معناه فأصبح يقصد به أحياناً الخانقاة أو منزل الصوفية.

والواقع، فإن الخانقاة، والرباط، والزاوية تشابهت معانيها على عصر سلاطين المماليك حتى اختلط الأمر على المعاصرين ولم يستطيعوا التفرقة بين مدلولات هذه الألفاظ الثلاثة. فابن بطوطة مثلاً يقول إن الخانقاة هي الزاوية، أما المقريزي، فقد فرق في تعداده بين الخوانق والربط والزوايا، وذكر كل نوع في قائمة مستقلة، ولكن في تعريفه لكل نوع لم يخرج عن معنى واحد هو أنها كانت جميعاً " بيت الصوفية ومنزلهم ".

وجرت العادة أن يعين لكل زاوية شيخ أو أكثر، وتمتعت معظم الزوايا بأوقاف يصرف عليها من إيرادها، وكثيراً ما نصت شروط الوقف على أن يفضل الأعزب على المتزوج للمبيت في الزاوية، حتى يكون منقطعاً للعبادة متفرغاً لها.

ولم نجد ذكراً في المصادر التي بين أيدينا لعدد الزوايا التي أقيمت في بيت المقدس خلال العصر المملوكي. ويبدو أن عدم التفريق الواضح بين لفظ" زاوية " و " خانقاة " ربما أدى إلى ذلك رغم أننا وجدنا إشارات مؤكدة لزوايا في بيت المقدس خلال العهد الأيوبي مثل الزاوية الختنية، والزاوية الجراحية[٩٩].

طرق التعليم وأساليب التدريس

لم تختلف طرق التعليم في مدارس بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك عن أية مدينة إسلامية أخرى في المشرق الإسلامي فقد بقي التعليم في مرحلتين هما مرحلة التعليم العام في سنوات الطفولة وحتى سن المراهقة، ثم المرحلة التالية والتي تشبه مرحلة التعليم العالي في العصر الحديث(١٠٠). وقد تطلب هذا النمط من التعليم أنواعاً مختلفة من المؤسسات التعليمية، وهي الكتاب، أو المكاتب لتعليم الأطفال، في حين أن المرحلة الثانية من التعليم، تطلبت وجود المساجد، والمدارس، والزوايا، والربط، والخانقاوات والبيمارستان وغيرها.

١) التعليم في مكاتب الأطفال:

والمكاتب، وهي ما عرفت أيضاً باسم الكتاتيب، كانت بداية تعليم الأطفال، وكانت مهمتها الأساسية تحفيظ الأطفال القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة. والراجح أن بيت المقدس، مثلها مثل المدن الأخرى في العصر المملوكي، قد عرفت نوعين من المكاتب، النوع الأول من المكاتب التي يرسل الآباء إليها أولادهم ليتعلموا مقابل أجر يدفع إلى صاحب المكتب، وهو ما يمكن أن نسميه المكاتب الخاصة. والنوع الثاني من المكاتب تلك التي كانت أقيمت بهدف تعليم الأيتام والفقراء علاوة على صرف " المعاليم " النقدية والعينية لهم ولمن يقوم على تدريسهم، وغائباً ما كان هذا النوع والمكاتب وقفاً من أحد المحسنين. وقد أشار ابن فضل الله العمري للنوع الثاني من المكاتب في معرض حديثه عن الأمير تنكز الذي بنى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م: (مدرسة جليلة إلى جوار الرباط المنصوري وبأعلاها خانقاة مشرفة وبحضرتها مكتب أيتام)(١٠١).

وقد اشترطت كتب المعاصرين شروطاً كثيرة يجب توفرها في مكاتب تعليم الأطفال في مواقع المدن الإسلامية، فيذكر ابن الحاج العبدري (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م): (وتكون المكاتب في أماكن ظاهرة لا يخفى فيها المكتب عن نظر المارة في الطريق، وألا يكون موقع المكتب في أحد الشوارع التي يغلب على

ساكنيها أهل الذمة، ويستحسن أن يكون بالسوق إن أمكن ذلك فإن تعذر فعلى شوارع المسلمين ... ويكره أن يكون بموقع ليس بمسلوك للناس فإن الصبيان يسرع إليهم القيل والقال)[١٠٢].

كذلك اشترطت كتب الحسبة الإسلامية عدة شروط يجب توفرها في مؤدب الأطفال أهمها أن يكون صحيح العقيدة كما يقول السبكي: (وأول ما يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم قبل البحث عن دينه، لأن كثيراً من الصبية ينشأون وعقيدتهم فاسدة لأن فقيههم كان كذلك)[١٠٣]. كذلك اشترط فيه أن يكون متزوجاً منعاً لسوء الظن به، ولم يكن يسمح لعازب بأن يفتح مكتب لتعليم الأطفال إلا أن يكون شيخاً معروفاً بالدين والخير، وحتى إن كان كذلك فلا يؤذن له بالتعليم إلا بتزكية. واشترط ابن الحاج في مؤدب الأطفال: (أن لا يضحك مع الصبيان ولا يباسطهم لئلا يفضي ذلك إلى الوقوع في عرضه وعرضهم وإلى زوال حرمته عندهم إذ أن من شأن المؤدب أن تكون حرمته قائمة على الصبيان)[١٠٤]. كذلك اشترط ابن الأخوة في مؤدب الأطفال: (ألا يستخدم أحد الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم، كنقل التراب والزبل، وحمل الحجارة وغير ذلك، ولا يرسله إلى داره وهي خالية لئلا يتطرق إليه التهمة)[١٠٥].

كذلك اشترطت كتب الحسبة ألا يفرق المؤدب بين أبناء الأغنياء والفقراء في المعاملة: (وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة لا يميز بعضهم عن بعض) وأن يقوم على تعليمهم بنفسه وألا يسمح لهم: (بأن يحضروا معهم الأطعمة أو النقود لأن من هذا الباب ينكسر خاطر الصغير الفقير منهم والضعيف لما يرى من جدة غيره، كما ينبغي به ألا يدع أحداً من الباعة يقف على باب المكتب ليبيع الصبيان خوفاً مما قد يقع من ذلك من مفاسد)[١٠٦].

أما عن نظام التعليم في المكاتب، فقد كان الأطفال يلحقون بها من سن الرابعة وحتى العاشرة. وكان الأطفال يجلسون داخل المكاتب حول مؤدبهم على حصير مفروش على الأرض. وكان الهدف الأساسي من التعليم في المكاتب تعليم الأطفال آداب الدين، إلى جانب تحفيظهم القرآن الكريم عن طريق التلقين. كذلك كان على الأطفال أن يتعلموا في سن مبكرة قواعد الوضوء

وكيفية الصلاة وقواعد الإسلام الخمس، كما يحفظون بعض الحكم والأمثال وأبيات من الشعر عن طريق التلقين والتكرار(١٠٧). وكان تعليم الخط العربي من المواد الأساسية التي يتعلمها الأطفال في المكاتب، وغالباً ما كانت الألواح والأقلام والمواد وغيرها تقدم للأطفال مجاناً إذ تشتري من ريع الوقف. وكان يوجد في كل مكتب عريف يساعد المؤدب في أداء عمله، ويقوم مقامه أثناء غيابه(١٠٨).

ولم يكن تعليم الأطفال قاصراً على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث والأمثال إلى جانب تعليمهم القراءة والكتابة والخط، بل اشترطت كتب الحسبة أن يتعلم الأطفال قواعد السلوك الإسلامي السليم والآداب العامة كأن يتعلم الطفل: (أن لا يبصق في المجالس ولا يتمخط بحضرة غيره ولا يضع رجلاً على رجل ولا يستدبر غيره ... كما يعلم كيفية الجلوس ... ويمنع أن يبتدئ بالكلام ويعوّد أن لا يتكلم إلا جواباً وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً ويوسع لمن هو فوقه المكان ... ويمنع من لغو الحديث وفحشه وعن اللعب والشتم ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من الفواحش فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء ... وينبغي أن يعلم طاعة الوالدين ومعلمه وكل من هو أكبر منه سناً ... كما يعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش)(١٠٩).

كذلك كان لمؤدب الأطفال دور هام في توفير الرعاية الصحية للأطفال الذي يدرسون في مكتبه، فإذا اشتكى أحد الأطفال من مرض فعليه أن يتحقق من مرضه وأن يصرفه حتى لا يعدي الأطفال الآخرين. كما كان على المؤدب أن يختار شخصاً يساعده في توصيل الأطفال إلى منازلهم إن دعت الضرورة لذلك، وكان يطلق عليه لفظ " سائق " ويجب فيه أن يكون أميناً وثقة(١١٠). وكان من سلطة المؤدب أن يعاقب من يرتكب الخطأ منهم ويحق له ضربهم بشرط أن لا يكون الضرب بعصا غليظة تكسر العظام ولا رقيقة لا تؤلم الجسم بل تكون وسطاً. ويقول ابن الأخوة في ذلك: (وله أن يتخذ مجلداً عريض السير ويعتمد بضربه على الالايا والأفخاذ وأسافل الرجلين، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة)(١١١).

ولم تكن أيام الدراسة في المكاتب محددة بل كان الأمر متروكاً لصاحب المكتب، لكن وجدت بعض أيام للإجازة، ويقول ابن الحاج العبدري في ذلك: (وانصراف الصبيان واستراحتهم يومين في الجمعة لا بأس به وكذلك انصرافهم قبل العيد بيومين أو ثلاثة وكذلك بعده بل ذلك مستحب لقوله عليه الصلاة والسلام روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها)(١١٢). وقد تنتهي الدراسة أحياناً قبل المواعيد بسبب تكاثر الثلج في الشتاء مثلاً، كما كانت المكاتب تعطل الدراسة أيام الأعياد والاحتفالات الدينية.

وتوضح وثائق الوقف كل التفاصيل التي يجب مراعاتها في مكاتب الأطفال. وقد نشر فان برشم (Van Brechem) نص وثيقة وقف على أحد تلك المكاتب في مدينة بيت المقدس جاء فيها: (بعد البسملة ... رحم الله من ترحم على الفقير الذي بنى هذه البقعة المباركة وجعلها مكتباً على أولاد المسلمين عامة لتعليم القرآن فيها وقف عليها الدار المعروفة بدار أبي نعامة تحت القبور مقابل باب المسجد الأقصى عمره الله تعالى ويكون أجرته به تصرف به إلى المعلم والدار في يده لأجرة تعلم الأيتام والمساكين وما فضل من عمارة المكتب والدار وإشعال القناديل تحت القبو والماء للصبيان لغسل الألواح والشرب بشرط أن يكون المعلم من أهل الدين والصلاح ... وهذا وقفاً مؤبداً مخلداً لا يغير ولا يبدل)(١١٣).

وواضح من نص الوثيقة المذكورة أعلاه شروط الواقف التي وضعها لتسيير مكتب تعليم الأطفال الواقع مقابل باب المسجد الأقصى واشتراطه عدم تبديل بنوده. والواقع، فإن دراسة الحجج الوقفية، سواء للمكاتب أو المدارس وغيرها، توضح بجلاء الحرص على تنفيذ كل تفاصيل الوقف حتى تؤدي المؤسسة التعليمية دورها كاملاً في مجال عملها. ويبدو من نص وثيقة المكتب المذكور أعلاه أنه لم توجد شروط كثيرة يجب تنفيذها، ولكن عند دراسة وقفيات المدارس الكبيرة نجد تفاصيل أكثر.

والجدير بالذكر أن تعليم الأطفال قد يتم داخل إحدى المدارس وليس في المكاتب فحسب، فقد أورد مجير الدين الحنبلي في حديثه عن الشيخ شمس الدين البسطامي، المتوفى في سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، أنه: (كان يحفظ القرآن ويقرئ الأطفال بالمدرسة الكازية)(١١٤). كذلك أورد الحنبلي عن الشيخ شمس

الدين بن عقبة المتوفى سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، أنه: (كان يؤدب الأطفال بالمدرسة الجوهرية بالقدس)[115]. ويؤكد لنا الرحالة فيلكس فابري ما ذكره مجير الدين الحنبلي إذ يذكر في معرض مشاهداته في بيت المقدس: (بينما كنت نازلاً من جبل صهيون للصلاة في الكنيسة، سمعت أطفالاً يقرأون بصوت مرتفع، فأقتربت من باب المدرسة ونظرت إليهم فرأيت أطفالاً جالسين على الأرض في صفوف، وكانوا يرددون مجتمعين نفس الكلمات، ويهزون رؤوسهم للأمام والخلف ... وهي أول ما يعلمون أطفالهم لأنها أصل عقيدتهم)[116]. ويؤكد لنا مجير الدين الحنبلي أن تعليم الأطفال كان يتم أيضاً داخل المسجد الأقصى، إذ يذكر عن الشيخ عمر بن إسماعيل الحنفي، المتوفى سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، أنه: (كان يؤدب الأطفال بالمسجد الأقصى بالمكان المجاورة لجامع المغاربة من جهة القبلة)[117].

والراجح أن أهل الذمة من النصارى واليهود كانت لهم مكاتب خاصة لتعليم أطفالهم في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك. وفي الحقيقة، فإن المصادر العربية لم تذكر شيئاً عن مكاتب أهل الذمة، ولكن قياساً بالمدن الأخرى في الدولة المملوكية، يمكن القول بأن النصارى تركت لهم حرية تعليم أبنائهم أصول ديانتهم. ويبدو أن المكاتب كانت تقوم أيضاً بتعليم أطفال النصارى القراءة والكتاب ومبادئ الحساب[118].

أما اليهود في بيت المقدس، فيرجح أنه كانت لهم مكاتب لتعليم أطفالهم من سن السابعة وحتى سنة الثانية عشر يتلقون فيها القراءة والكتابة وحفظ قوانين التوراة. وكانت مكاتب الأطفال هذه ملحقة بالكنيس اليهودي في بيت المقدس، وكان بعضها خاصاً بتعليم أبناء الفقراء اليهود في حين أن البعض الآخر كانت تقوم بالتعليم مقابل أجور يدفعها أولياء أمور الأطفال[119].

٢) التعليم في المدارس:

لم يكن التعليم في المدارس في العصر المملوكي يخضع لنظم ثابتة أو يجري داخل مؤسسات رسمية، بل كان يعتمد على العلاقة بين المدرس والطلبة من جهة، وعلى حرية الطالب في دراسة المواد التي يدرسها مع حقه في التنقل من

مدرسة لأخرى[١٢٠]. وقد ذكرنا مدارس بيت المقدس الرئيسة على عصر سلاطين المماليك، وينبغي ملاحظة أن هذه المدارس تباينت في حظوظها من الطلبة وذلك حسب شهرة المدرسين الذين يقومون بالتدريس فيها والوقف الموقوف عليها.

وكان يمكن للطالب الدراسة على يد أحد المدرسين في المسجد الأقصى، حيث يقوم بالتدريس فيه كبار مشاهير العلماء ورجال الدين ممن يقومون بتدريس العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية. وكانت الدراسة في المسجد الأقصى على هيئة محاضرات، حيث يجتمع الطلبة حول أحد الأساتذة في شكل حلقة، ويقوم الأستاذ بتملية مادته وشرحها بطريقته الخاصة ثم يفتح باب المناقشة والملاحظات[١٢١].

كذلك وجد نوع من التعليم عن طريقة الملازمة، كأن يبقى الطالب ملازماً لأستاذه مدة طويلة يكتسب خلالها معظم تعاليم أستاذه. وقد يدفع الطالب مبلغاً من المال لأستاذه مقابل ملازمته له، أو قد يكون تابعاً له يقوم بتنفيذ ما يطلبه منه من نسخ بعض الكتب، أو مساعدته في بعض شئونه. وقد يقضي الطالب معظم عمره ملازماً لأحد أساتذته، وقد ينتهي به الأمر أن يتزوج ابنته ويصبح خليفته في التدريس. وخير مثال على ذلك ما أورده مجير الدين الحنبلي عن الشيخ تقي الدين القرقشندي. مؤسس أسرة القرقشندي الشهيرة، إذ لازم شيخه خليل ابن كيكلدي، ثم: (تزوج ابنته وعينه معيداً بالصلاحية)[١٢٢].

ومن طرق التعليم المعروفة في العصر المملوكي، أن يدرس الطالب على عددٍ من المدرسين، كأن يتعلم اللغة من واحدٍ، والقرآن من آخر، والحديث من ثالث، وبذلك لم يكن الطالب يخصص نفسه لعلم واحد أو لفرع واحد من فروع المعرفة. ولا يعني هذا أنه لم يكن هناك تخصص في بعض العلوم، ذلك أن التخصص قد يأتي في مرحلة لاحقة، حيث يظهر تفوق الطالب في أحد العلوم، ومن ثم يواصل دراستها على غيرها من الفروع ويتخصص فيها. وقد يستفيد الطالب من الإجازات التي يحصل عليها من المشايخ الآخرين إذ يستطيع أن يتولى بعض الوظائف في المدارس مثل وظيفة الإعادة أو أن يتولى إحدى الوظائف الخاصة بأرباب الأقلام. وهناك إشارات كثيرة في كتاب " الأنس الجليل " تشير إلى حصول بعض الدارسين على عدد من الإجازات من شيوخ كثيرين وبعدها

تقلدوا بعض الوظائف مؤقتاً ثم واصلوا التعمق في تخصصاتهم الأصلية[١٢٣]. وإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للتدريس، أجاز له شيخه ذلك وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب، وشيخه، ومذهبه، وتاريخ الإجازة. وتتوقف قيمة الإجازة على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه.

وقد حدث خلال العصر المملوكي تشابه بين وظيفة المدرسة ووظيفة الزاوية، ذلك أن الجماعات الصوفية في بعض الزوايا كانوا يكونون فيما بينهم إحدى المدارس حيث يتوفر لهم داخل الزاوية الطعام والكساء والمأوى، إضافة لتخصص الزاوية في تدريس بعض المواد[١٢٤]. ومثال ذلك ما يرويه لنا مجير الدين الحنبلي عن الزاوية الناصرية التي تخصصت في دراسة علوم القرآن والنحو[١٢٥]. كذلك يذكر مجير الدين عن المدرسة الأشرفية: (وكانت عمارتها على هيئة عمائر مدارس القدس ليس فيها كبير أمر فإنها كانت تشمل على مجمع وطارقة وخلوة للشيخ على ظهر رواق المسجد ويقابل ذلك من جهة الغرب ساحة على ظهر إيوان المدرسة البلدية وفيها بعض الخلاوي)[١٢٦]. والواقع، فإنه يتأكد لنا مما ذكره مجير الدين الحنبلي في معرض حديثه عن كثير من التراجم أن المدرسة كانت زاوية أو خانقاة بالفعل، حيث كان الطلبة هم أنفسهم الصوفية النازلون فيها، كما كان شيخ الصوفية هو المدرس الذي يتولى التدريس وإمامة الصلاة إلى جانب مشيخة المدرسة.

وإلى جانب وظيفتها التعليمية، كانت المدارس أيضاً أمكنة لأداء الشعائر الدينية، كصلاة الجمعة والعيدين، وكذلك كانت أقرب إلى المساجد غير أنها تميزت بمساكن الطلبة الملحقة بها. كذلك جرت العادة في العصر المملوكي أن يكون بالمدرسة مدفن لواقفها حتى ولو توفى بمدينة غير بيت المقدس. وقد أورد مجير الدين الحنبلي أن الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين، نائب القلعة، عمر المدرسة الصبيبية في بيت المقدس، ولما توفى في دمشق سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م نقل إلى بيت المقدس: (ودفن بمدرسته)[١٢٧]. وفي الحقيقة، فقد حرص كثير من الواقفين على أن يدفنوا بمدارسهم التي بنوها لكي يحظوا بثواب قراءة الفاتحة على أرواحهم من الطلبة والصوفية حيث كان ينص على ذلك في شروط الوقف.

ولم تكن طرق التدريس والتعليم موحدة في مدارس بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك إذ اختلفت باختلاف المذاهب التي أنشئت لتدريسها، وباختلاف الهدف الذي أقيمت من أجله. ويورد مجير الدين الحنبلي أنه كانت في بيت المقدس مدارس للشافعية، وأخرى للمذاهب الأخرى كالحنفية والحنابلة والمالكية يدرس في كل منها الفقه على المذهب الخاص بها. وبصرف النظر عن اختلاف الدراسة الفقهية في مدارس بيت المقدس، فقد تركزت العملية التعليمية حول علوم الحديث، والقرآن، واللغة العربية، فضلاً عن تدريس القراءات والوعظ.

وتجدر الإشارة إلى أن مدينة بيت المقدس عرفت أيضاً في العصر المملوكي نوعاً من المدارس التي تدرس فيها المذاهب الأربعة، ولذلك راعى بناة هذه المدارس اختيار شكل مناسب في البناء كأن تكون على شكل إيوانات متعامدة ومتقابلة ويخصص لكل مذهب مكان مستقل، وخير مثال على ذلك المدرسة التنكزية. إلا أن هذا النوع من المدارس كان قليلاً في بيت المقدس حسب ما يتضح من دراسة المصادر العربية المعاصرة.

وبالنسبة لبناء المدارس في بيت المقدس، فالراجح أنه لم يختلف كثيراً عن المدارس التي وجدت في غيرها من المدن المملوكية. فقد كان البناء يضم مطبخاً وبيتاً للطهارة ومكاناً للصلاة، إضافة إلى إيوانات متعامدة متقابلة وفي كل إيوان عدد من الشبابيك التي تسمح بدخول الضوء الكافي حيث يجلس الطلبة في حلقات التدريس. وقد يوجد في بعض المدارس الكبيرة خلاوي ومساكن للطلبة وأخرى لشيخ المدرسة وللمدرسين.

وأما بالنسبة لفصول الدراسة، فكانت تعقد ما بين الصباح الباكر ومنتصف النهار، كما كانت تعقد ما بين الظهر وصلاة المغرب وبعدها يستريح الطلبة. ولقد حرص السلاطين والأمراء المماليك على اختيار المدرس الذي يقوم بالتدريس في المدارس التي أقاموها ذلك أن مركز المدرس كان يفوق مركز المدرسة، ولأن الطلاب كانوا يرتحلون إليه أينما وجد. وكان يعاون المدرس في مهمته المعيد، الذي يقوم بوظيفة إعادة الدروس للطلبة لكي يزدادوا فهماً، كما كان عليه أن يحضر الدروس التي يكلفه بها المدرس ليقرأها على الطلبة أثناء الدرس، وأحياناً قد يوجد في المدرسة الواحد أكثر من معيد واحد. ومن

الوظائف الرئيسة في المدارس وظيفة خازن الكتب الذي يقوم بتفريق المصاحف الشريفة على الطلبة للقراءة فيها ثم جمعها، إلى جانب المحافظة على مكتبة المدرسة وما تحويه من كتب. ومن الوظائف أيضاً كاتب الغيبة الذي يقوم بعملية حصر الغياب والحضور بالنسبة للطلبة. ومن الوظائف التي أشارت إليها المصادر المعاصرة وظيفة الوقاد الذي يقوم على إشعال القناديل، والمزملاتي الذي يشرف على تجهيز الماء الصالح للشرب وللطهارة، والبواب الذي كان عليه أن يلازم باب المدرسة ويمنع من لا غرض له من الدخول إضافة لمسئوليته في حفظ حواصل المدرسة من فرش وقناديل وزيت وغيرها. أما الفراش، فكانت مهمته كنس المدرسة ومسحها وفرشها، وكان يشترط فيه أن يكون من أهل الخير والصلاح ويسكن بالمدرسة.

ووجدت في المدارس الكبيرة في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك رعاية طبية شاملة للمدرسين والطلبة وغيرهم من أصحاب الوظائف. فقد كان ناظر الوقف يخصص رجلين أحدهما عارف بالطب والمداواة، والثاني عارف بالكحالة ومداواة أمراض العيون، ويحضران يومياً لمباشرة المرضى في المدرسة.

وكما ذكرنا من قبل، فقد تمتع أهل الذمة من اليهود والنصارى في بيت المقدس بقدر كبير من التسامح الديني الذي أتاح لهم الإشراف على شؤونهم الخاصة في التعليم. أما عن نظام التعليم في مدارس النصارى في بيت المقدس، فالراجح أن التعليم كان يتم داخل الكنائس والأديرة. وكانت الأديرة بالذات تحتوي على مكتبات ضخمة. وكانت معظم الكتب التي تدرس في الكنائس والأديرة مكتوبة باللغة السريانية، إضافة إلى استخدام اللغة العربية على نطاق ضيق أيضاً. وكان لكل مدرسة كنسية أوديرية رئيس يديرها. وكان يدرس في المدارس الديرية علم اللاهوت إضافة إلى مبادئ النحو، والصرف، والحساب، والموسيقى والخط. أما المدارس التي كانت تتبع الكنائس، فكان بها مدرسون من الشمامسة يقومون بتعليم الصبيان. كذلك وجدت بعض المدارس التي كانت بمثابة مراكز لتعليم الطب والرياضيات وغيرها من العلوم التطبيقية للنصارى في بيت المقدس[١٢٨].

أما بالنسبة لليهود، فكان الكنيس الخاص بهم هو محور الحياة التعليمية في بيت المقدس طوال العصر المملوكي. أما عن طريقة التعليم، فالراجح أن البالغين من اليهود كانوا يأتون للدراسة في أيام العطلات، خاصة أيام السبت، حيث يدرسون التوراة. كذلك كانت مناهج الدراسة تشمل تعليم القراءة، والترجمة والتفسير في الكتاب المقدس، وتدريس الأقوال المأثورة عن رجال الدين. وكانت اللغة العربية المكتوبة بالحروف العبرية هي اللغة المستخدمة في التعليم(١٢٩).

نظام الأوقاف:

تمتعت مدارس بيت المقدس، مثلها مثل مدارس بلاد الشام، بوقف الأوقاف عليها، التي ساعدت على دعمها واستمرار أدوارها التعليمية. وظلت الأوقاف العمود الفقري لتمويل المدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية طوال العصر المملوكي، ولذلك تميزت أغلب هذه المدارس والمؤسسات بالاستقلال المالي.

وكانت الأوقاف تنظم بطريقة خاصة، إذ كان يتم تعيين ناظر للوقف يتمتع بصفات أهمها: الأمانة، والعدالة، والكفاية، وغالباً ما كان يختار من بين أهل العلم، من القضاة وكبار العلماء. وكانت الأوقاف تتفاوت من حيث سعتها ودخلها، بحسب مكانة الواقف وثروته. فالمدارس والمؤسسات الكبرى التي كان يوقفها السلاطين والأمراء مثلاً، كانت أكثر اتساعاً وفخامة، وأوفر أوقافاً، وخير مثال لذلك المدرسة الأشرفية المنسوبة للسلطان الأشرف قايتباي. ونجد في وثيقة الحجة الشرعية الخاصة بهذه المدرسة أن الواقف أوقف عليها أجزاء من قرى كثيرة في فلسطين، في كل من الخليل، وغزة، واللد، ونابلس، والرملة، وبعض المباني من خانات، وحمامات، ومعاصر زيوت، وأفران، وطواحين وغيرها. كذلك أوضحت الوثيقة رواتب العاملين بالمدرسة وكل أوجه الإنفاق الضرورية وكيفية الصرف عليها من الوقف.

وفي الحقيقة، كانت الوقفية تقوم على أربعة أركان هي: الواقف، والموقوف، والموقوف عليه، والصيغة التي يؤدى بها الوقف(١٣٠). وفي الغالب، كانت الوثيقة تحتوي على العناصر التالية:

أولاً: مقدمة يذكر فيها فضل الوقف، وثواب الواقفين، كما يحدد فيها اسم الواقف والدافع والهدف من الوقف.

ثانياً: ذكر للعقارات الموقوفة على المدرسة أو غيرها من المؤسسات، وتحديد مواقعها وأنواعها وبيان مشتملاتها.

ثالثاً: ذكر تفاصيل عن المدرسة، وجهازها الوظيفي، والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيهم، والواجبات التي ينبغي عليهم القيام بها، وفي سياق ذلك قد تحدد الوقفية مواعيد الدروس، وقد تحدد الكتب التي تعتمد كمقررات دراسية.

رابعاً: تحديد استحقاقات ورواتب العاملين في المدرسة أو المؤسسة، ومخصصات وجرايات الطلاب، وقد تفصل الوقفية ما يصرف للطلاب من جرايات عينية، والجوائز والمكافآت التي تمنح للمبرزين منهم.

خامساً: تعيين ناظر الوقف وبيان واجباته، من حيث العناية بالوقف، وصيانته، واستقلاله، والإنفاق من ريعه حسب شروط الواقف.

ومن الشروط الهامة التي كانت تشترطها الوقفيات في المدرسين أن يكون الواحد منهم: (من أهل الخير والصلاح، حسن الاعتقاد، غير منسوب إلى بدعة أو شر)[١٢١]. كذلك كانت الوقفية تذكر الشروط التي يجب أن يلتزم بها المدرس فكانت أغلب الوقفيات تشترط أن لا يقوم المدرس بالتدريس في غير المدرسة التي يتم تعيينه فيها. وفي أحيان قليلة، كانت الوقفية تذكر شرطاً يعطي المدرس الحق في أن يجمع بين مهنة التدريس في المدرسة الموقوفة إلى جانب غيرها من المدارس. كذلك كانت الوقفيات تشترط إقامة المدرسين بالمدرسة، كما كانت تحدد مواعيد العمل والدراسة بشكل دقيق. وأحياناً كانت بعض الوقفيات تتضمن شروطاً لتحقيق رغبات الواقف وينص على ذلك صراحة.

وتضمنت الوقفيات شروطاً خاصة بالطلبة المرتبين بالمدرسة أو المؤسسة الموقوفة من حيث: صفاتهم، وشروط قبولهم، وأعدادهم، والواجبات التي يترتب عليهم القيام بها، وأماكن إقامتهم في فترة الدراسة وغير ذلك من الأمور. وكان تحديد عدد الطلبة في كل مدرسة أو مؤسسة خاضعاً لاعتبارات اقتصادية بحيث يكون عددهم متناسباً مع الدخل الذي تدره أوقاف المدرسة الملتحقين بها.

وعموماً، فإن الإنفاق السخي للواقفين كان له أكبر الأثر في ازدهار الحياة العلمية والتعليمية خلال عصر سلاطين المماليك، كما كان له أثر واضح في المجالات الاقتصادية والعمرانية، إذ غدت المدارس ومراكز التعليم في بيت المقدس محط رجال الكثيرين من العلماء وطلبة العلم من مختلف أنحاء بلاد الشام كما وجد بها بعض الطلاب من أقاليم بعيدة كالمغرب الأقصى. كما أن شيوع نظام الأوقاف شرع أبواب العلم أمام كل طبقات المجتمع، لا سيما الفقراء، مما يعد نقطة تحول هامة، ومرحلة انعطاف كبيرة في حياة الكثير من المشتغلين بالعلم، إذ تهيأ لهم من خلال الوقف نوع من الضمان المادي، ووقاهم شر العوز والفاقة أثناء مرحلة الدراسة.

المكتبات:

لعبت المكتبات دوراً هاماً في الحياة التعليمية في بيت المقدس. وفي الواقع، فإن الاهتمام بالمكتبات في العصر المملوكي يعتبر امتداداً لما بدأه صلاح الدين بعد استرداد بيت المقدس من الفرنجة (الصليبيين) إذ حمل إلى قبة الصخرة وإلى محراب المسجد الأقصى: (مصاحف وختمات، وربعات معظمات، لا تزال بين أيدي الزائرين على كرسيها مرفوعة، وعلى أسرة موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة ولبيت المقدس عامة قومة لشمل مصالحها)[١٣٢].

وقد حذا بعض أبناء البيت الأيوبي حذو صلاح الدين في تزويد مكتبات قبة الصخرة والمسجد الأقصى بالكتب النادرة. واستمر الحال على ذلك في عصر سلاطين المماليك. ولم يكن الاهتمام قاصراً على مكتبة المسجد الأقصى وقبة الصخرة فحسب، بل إن المدارس وغيرها من المؤسسات والمراكز العلمية ذخرت بالمكتبات. والواقع، فإن ظاهرة الاهتمام بالكتب والمكتبات في عصر السلاطين المماليك إنما ترجع إلى كثرة انتشار أسواق الكتب وتجارتها من جهة، فضلاً عن تعظيم كثير من السلاطين والأمراء المماليك للعلم وأهله من جهة أخرى.

وكان يشرف على خزانة الكتب موظف أطلق عليه " خازن الكتب " أو " شاهد خزانة الكتب "، وكان يشترط فيه أن يكون أميناً، يقظاً، مأموناً،

بالغاً في الأمانة والثقة، قادراً على القيام بخدمة الكتب عارفاً بترتيبها، كما كان عليه ترميم التالف من الكتب وحبكها عند احتياجها للحبك.

وكان هناك نوعان من الاستعارة للكتب: استعارة داخلية لطلبة العلم والمدرسين النازلين بالمؤسسة التعليمية، كما وجدت الاستعارة الخارجية والتي كانت مرهونة بعدة شروط كما يذكر السبكي: (وعلى خازن الكتب الضنة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته، وهو شرط صحيح معتبر، فليس للخازن أن يعير إلا برهن)[١٣٣].

وقد وجدت في بيت المقدس كثير من المكتبات الخاصة، والتي حرص كثير من العلماء على تكوينها واقتناء الكتب النادرة فيها. وكان يتم تزويد هذه المكتبات الخاصة عن طريق شراء الكتب أو نسخها، بأن ينسخ العلماء الكتب بأنفسهم أو يستأجرون ممن عرفوا بالاشتغال بالنسخ وحسن الخط للقيام بذلك. كذلك تشير المصادر المعاصرة إلى أن المهاداة بالكتب كانت من وسائل اقتناء الكتب النفيسة أحياناً. ومن أبرز المكتبات الخاصة في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك دار الكتب الفخرية، التي وقفها القاضي فخر الدين أبو عبدالله بن فضل الله (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، والتي بلغ عدد مجلداتها نحو عشرة آلاف[١٣٤].

وذخرت الكنائس والأديرة بعدد كبير من المكتبات القيمة في بيت المقدس. ومن أهمها على عصر سلاطين المماليك مكتبة كنيسة القيامة، ومكتبة القبر المقدس التي تحوي عدداً كبيراً من المخطوطات النادرة باللغات العربية واليونانية والسريانية[١٣٥].

وتعتبر مكتبة الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس من أغنى المكتبات في العصر المملوكي. وقد نشرت فهارس لمحتويات هذه المكتبة في القرن الماضي والتي تضم أكثر من ألفين وخمسمائة وثيقة تعود للعصر المملوكي باللغة العربية[١٣٦].

هوامش الفصل الرابع

١- عن مواطن العلماء الذين وفدوا إلى بيت المقدس خلال العصر المملوكي، انظر: المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٦٣٧.
- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٥٥.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١-٤)، حيدر أباد، الدكن، ١٣٤٨هـ، ج١، ص ٤٤٩.

٢- عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، دمشق ١٩٤٨م، ج١، ص ٧٨-١٤١.

٣- بدر الدين محمد بن أحمد العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٩.

٤- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٤.

٥- المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٢٥٤.

٦- عن الجعبري، انظر ترجمته في المصادر التالية:
- الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص ٥٣.
- الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٧٣ (ترجمة رقم ٢٥١٢).
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٥٠.
- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، ص ٨٢.

٧- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص ٢٧٣.
- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٩٣.

٨- شمس الدين محمد بن عبدالرحيم السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١-١٢)، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٤هـ، ج١٨ ص ١١٢.

٩- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٩٦.

١٠- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهبي في أخبار من ذهب، (١-١٨)، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥١هـ، ج٦، ص ١٥.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص ٩٠-٩٢.

١١- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٠٣.
- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص ٢٠٦.

١٢- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٢٤.

١٣- ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج٦، ص ١٣٨.

١٤- ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج٧، ص ١٢١.
- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٥٠٤.

١٥- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٨٣.
١٦- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٥٨.
١٧- ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٨٣.
١٨- ابن الوردي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٠٦.
١٩- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص ٣٣١.
٢٠- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص ١٩٢.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص ٩٠.
٢١- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص ١٩٩.
٢٢- السخاوي، الضوء اللامع، ج ١١، ص ١٢١ز
٢٣- السخاوي، المصدر نفسه، ج١١، ١٤٢.
٢٤- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٤٨.
٢٥- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٦٢.
٢٦- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣٢٨.
٢٧- ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص ٣٤١.
٢٨- ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٣، ص ٣٤٢ز
٢٩- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٤٨٠.
٣٠- ابن حجر العسقلاني، إنباء القمر، ج١، ص ٥١٩.
٣١- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٧.
٣٢- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٢٥٦.
٣٣- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨١.
٣٤- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٣٩.
٣٥- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية: (١-٥)، دمشق، ١٩٥٧ م، ج٥، ص ٢٥٤.
٣٦- السخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص ١٣٨.
٣٧- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٥، ص ٢٢٣.
٣٨- المقريزي، السلوك، ج٣، ص ١٦٣.
٣٩- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٥٤.
٤٠- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص ٨٧.
٤١- السيوطي، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فيليب حتى، نيويورك، ١٩١٧م، ص ١٤٨.
٤٢- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤١٣.
٤٣- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٩٥.
٤٤- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٣٨.
٤٥- السيوطي، نظم العقيان، ص ٢٦.
٤٦- أحمد عبد الرازق أحمد، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة، ١٩٧٤م،

ص ١٧٤-١٨٠.

-٤٧ قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٤١-١٤٤.

-٤٨ قاسم عبده قاسم المرجع السابق، ص ١٤٤.

-٤٩ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٢٨.

-٥٠ مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج ١، ص ٦.

-٥١ انظر على سبيل المثال:

مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٨٦، ص ٥٢٧، ص ٥٥٦، ص ٥٥٨.

-٥٢ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج١، ص ٩٩.

-٥٣ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٨٣.

-٥٤ مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٢٤.

-٥٥ مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٣٧.

-٥٦ جمال الدين علي بن يوسف بن القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت، (د.ت)، ص ٢٤٨.

-٥٧ موفق الدين أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ج٣، ص ٣٥٢.

-٥٨ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٥٥.

-٥٩ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٦٣.

-٦٠ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص ٢٧٣.

-٦١ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج١، ص ٢٧٥.

-٦٢ السيوطي، نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص ١٨٣.

-٦٣ Bon Sason, Jewish Society Through the Ages, New York, 1973, P. 225.

-٦٤ Felix Fabri, The Book of the wanderings, P.P. 379-381.

-٦٥ Wright, T., Early travels in Palestine, P. 83.

-٦٦ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٥، ص ٢٤٠.

-٦٧ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٣٧.

-٦٨ الزركلي، الأعلام، ج٧، ص ٣٢٨.

-٦٩ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٢، ص ٥٢٥.

-٧٠ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٤٥٥.

-٧١ The Jewish Encyclopedia, Vol. VII, P. 132.

-٧٢ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٦١-٥٩٦.

-٧٣ السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص ١٢٣.

-٧٤ سليمان إسحق عطية، تاريخ التعليم في فلسطين على عهد سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢٣.

٧٥- محمد الحافظ النقر، تاريخ بيت المقدس من الفتح العمري حتى نهاية العهد الأيوبي، ص ٢٢٩-٢٣١.

٧٦- كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج١، عمّان، ١٩٨٣م، ص ١٠٨-١٢٠.

٧٧- عبداللطيف إبراهيم، وثيقة السلطان قاتيباي: دراسة وتحليل، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٤٣٢.

٧٨- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ١، ص ٣٩٥.

٧٩- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص ١٤٦.

٨٠- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٨٧.

٨١- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٨.

٨٢- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩١.

٨٣- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٢٤١.

٨٤- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٤٨.

٨٥- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٨.

٨٦- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦١٩-٦٢٠.

٨٧- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧.

٨٨- Schaefer, K., Jerusalem in the Ayyubid and Mamluk eras, P. 216.

٨٩- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٩٥.

٩٠- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠١-٤٠٢.

٩١- محمد الحبيب بن الخوجة، يهود المغرب العربي، نشر جامعة الدول العربية، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٣٣.

٩٢- أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص ١١٤.

٩٣- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ١٨٧.

٩٤- Van Brechem, Jerusalem Ville, Vol. 25, P. 214.

٩٥- المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٤٤٢.

٩٦- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٢٩٠.

٩٧- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٥٨.

٩٨- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ١٨٧.

٩٩- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٨.

١٠٠- Dodge, B., Muslim Education in Medieval Times, The Middle East Institute, Washington, 1969, P. 3.

١٠١- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٥، ص ٩٣.

١٠٢- محمد بن محمد العبدري ابن الحاج المالكي، المدخل إلى الشرع الشريف، (١-٣)، المطبعة العامرية، القاهرة، ١٣٢٠هـ، ج٢، ص ٩٦.

١٠٣- السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص ١٣٠.

١٠٤- ابن الحاج العبدري، المدخل إلى الشرع الشريف، ج٢، ص ١٠٠.

١٠٥- ابن الإخوة، معالم القربة، ص ٢٦١.

١٠٦- ابن الحاج العبدري، المدخل إلى الشرع الشريف، ج٢، ص ٩٤-٩٩.

١٠٧- Dodge, B, Muslim education, P. 4.

١٠٨- عبداللطيف إبراهيم، "نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش" مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٨، ١٩٦٦م، ص ١٧٤.

١٠٩- ابن الحاج العبدري، المدخل إلى الشرع الشريف، ج٢، ص ١٨٢.

١١٠- ابن الحاج العبدري، المصدر السابق، ج٢، ص ١٠١.

١١١- ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٢١٦.

١١٢- ابن الحاج العبدري، المدخل إلى الشرع الشريف، ج٢، ص ١٠١.

١١٣- Van Brechem, Jerusalem Ville, Vol. 25, p. 214.

١١٤- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٣٤.

١١٥- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٧١.

١١٦- Felix Fabri, The Book of the wanderings, P. 396.

١١٧- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٠٣.

١١٨- عبد الغني محمود عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ص ٩٠.

١١٩- Ben Sason, Jewish society, P.P. 148-153.

١٢٠- Dodge, P., Muslim education, P. 7.

١٢١- Ibid, P. 10.

١٢٢- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٠٢.

١٢٣- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٥٢، ص ٥٥٤.

١٢٤- Dodge, P., Muslim education, P. 24.

١٢٥- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٨٦.

١٢٦- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦١٠.

١٢٧- مجير الدين الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٩١.

١٢٨- فائزة عبدالرحمن حجازي، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م، ص ١٦٨.

١٢٩- Alexander Max, Studies in Jewish History and Folklore, New York, 1964, P. 29.

١٣٠- كامل جميل العسلي، "الأوقاف والتعليم في القدس من أواخر القرن السادس حتى أوائل القرن الثاني عشر للهجرة"، مجلة الحضارة الإسلامية، ج٣، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمّان، ١٩٨٠م، ص ٩٦.

١٣١- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٣٠٢.

١٣٢- العماد الأصفهاني الكاتب، الفتح القسي، ص ٦٦.

١٣٣- السبكي، معيد النعم، ص ١١.

١٣٤- فيليب دي طرازي، خزائن الكتب العربية في الخافقين، (١-٢)، بيروت، ١٩٤٧، ج١،ص ٢٩٤.

١٣٥- فيليب دي طرازي، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٧٥.

١٣٦- فيليب دي طرازي، المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٧٧.

الخاتمة

من خلال دراستنا لتاريخ مدينة بيت المقدس خلال عصر سلاطين المماليك يمكن استخلاص بعض النتائج الهامة، ومنها:

أولاً: كانت موقعة عين جالوت (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) نقطة التحول الحاسمة في صراع المسلمين ضد الفرنجة (الصليبيين) والمغول، وكان لانتصار المماليك الحاسم في الموقعة نتائج مباشرة على بيت المقدس إذ دخلت تحت سيطرة القوة الناشئة لدولة المماليك.

ثانياً: لم تعرف مدينة بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك، الذي امتد لأكثر من قرنين ونصف من الزمان، مضايقات لأهل الذمة، بل إن المؤرخين والرحالة والحجاج الأوربيين واليهود أشادوا بحسن المعاملة التي كانوا يلقونها منذ أن تطأ أقدامهم الأراضي المقدسة في فلسطين إلى حين عودتهم لأوطانهم. والثابت، أن الذميين، من نصارى ويهود، من سكان بيت المقدس، ظلوا يعيشون تحت لواء الحكم المملوكي الإسلامي في أمن وحرية وطمأنينة، ولم تسجل سوى حوادث قليلة ظهر التوتر في العلاقات معهم نتيجة مؤثرات خارجية.

والواضح من الدراسة أن أغلب سلاطين المماليك، ومن خلال سياستهم الدينية التي لم تعرف التعصب، لم يفرقوا بين المؤسسات الدينية المختلفة، فكما عنوا بالمقدسات الإسلامية باعتبارهم حماة الإسلام والمسلمين، فقد كفلوا لاتباع الديانات السماوية الأخرى حرية العبادة ورعاية مقدساتهم ومؤسساتهم الدينية وعمارتها كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ويضاف إلى ذلك حرص السلاطين على إعطاء الحرية للذميين لتعليم أبنائهم بالصورة التي يرونها دون تدخل السلطات المملوكية في بيت المقدس.

ثالثاً: يعتبر العصر المملوكي عصر ازدهار واضح في الحياة العلمية والتعليمية في بيت المقدس. والواقع، فإن النهضة العلمية والثقافية وضحت منذ استرداد

صلاح الدين الأيوبي للمدينة من الفرنجة (الصليبيين) سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧ م، إذ عادت لها هويتها الإسلامية المميزة. وفي الحقيقة، فإن بيت المقدس ظلت طوال العصر المملوكي واحدة من أبرز المراكز العلمية والتعليمية ليس في فلسطين فحسب، بل وفي المشرق الإسلامي ونافست المراكز الكبيرة الأخرى مثل القاهرة ودمشق. صحيح أن بيت المقدس كانت مدينة صغيرة مقارنة بالقاهرة ودمشق، لكنها كانت مركزاً علمياً وثقافياً نشطاً يجذب إليه مشاهير العلماء والفقهاء للتدريس في مدارسها، خاصة المدارس المتمركزة حول المسجد الأقصى.

رابعاً: كان لتحول مدينة بيت المقدس إلى نيابة مستقلة في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أكبر الأثر في ازدهار الحياة في المدينة. وقد أتاح هذا التغيير ظهور جهاز إداري يقوم على إدارة شؤون الحياة في المدينة، كما أن السلاطين المماليك حرصوا على حقهم في تعيين من يتولون الوظائف الدينية الكبرى في المدينة مثل: القضاة، وناظر الحرمين، وخطيب القدس، ومشيخة المدرسة الصلاحية وغيرها من الوظائف.

خامساً: وضح من الدراسة العناية الفائقة التي أولاها بعض السلاطين لمدينة بيت المقدس من حيث توفير الأمن لأهلها، ورفع المكوس وإبطال المظالم والاهتمام بانتقاء الولاة والحكام والقضاة ومراقبتهم، وحرصهم على تغييرهم في حالات عجزهم أو تعسفهم ضد الرعية من سكان المدينة.

سادساً: ازدهرت الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك نتيجة استقرار الأوضاع السياسية من جهة، وبسبب ازدهار حركة التجارة والأسواق في المدينة. وكان لازدهار الحج الأوربي أكبر الأثر في تحقيق مكاسب اقتصادية لأهل بيت المقدس وفي ظهور عدد من الأسواق الموسمية المرتبطة بفترة الحج. كذلك تنوعت الحياة الاجتماعية وظهر الاهتمام بعدد كبير من المواسم والأعياد الاحتفالات الدينية سواء عند المسلمين أو النصارى. أما اليهود، فيبدو أن عددهم كان ضئيلاً في المدينة ولذلك لم نجد إشارات مؤكدة عن دورهم في الحياة العامة أو الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

المصـــادر و المراجـع

أولاً: المصادر العربية المطبوعة:

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، باعتناء الشيخ عبدالوهاب النجار، دار الطباعة المنيرية، القاهرة ١٣٥٧هـ

٢- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م)، كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

٣- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

٤- ابن أيبك الصفدي، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات،

ج١، تحقيق هلموت ريتر، ١٩٦٢م.

ج٢-٦، تحقيق ريد رنغ، ١٩٧٠ – ١٩٧٤م.

ج٧، تحقيق إحسان عبّاس، ١٩٦٩م.

ج٨، تحقيق محمد يوسف نجم، ١٩٧١م.

ج٩، تحقيق يوسف فان، ١٩٨٠م.

ج١٠، تحقيق جاكلين سويلة وعلي عمارة، ١٩٨٢م.

ج١٢، تحقيق رمضان عبدالتواب، ١٩٧٩م.

وصدرت جميع الأجزاء عن دار فرانز شتاينر، فيسادن، ألمانيا.

٥- ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (١-٤)،تحقيق محمد مصطفى، نشر جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة ١٩٦٠-١٩٧٣م.

٦- ابن البطريق، سعيد بن البطريق (توفى أواخر القرن الخامس الهجري)، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (تاريخ ابن البطريق)، تحقيق الأب لويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٩م.

٧- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف، (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٣-١٩٧٢م.

٨- ــــــــ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.

٩- ــــــــ منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، (١-٤)، نشر وليم بوبر، كاليفورنيا، ١٩٣٠-١٩٤٢م.

١٠- ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، تذكرة الأخبار في اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير)، دار الشروق العربي، بيروت، ١٩٦٤م.

١١- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الركن، ١٣٥٧هـ.

١٢- ابن الحاج العبدري، أبو عبدالله محمد بن محمد الفاسي (٧٣٧هـ/ ١٣٣٢م)، المدخل إلى الشرع الشريف، (١-٣)، المطبعة العامرة الشرقية، القاهرة، ١٣٢٠هـ.

١٣- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعياد المائة الثامنة (١-٤)، حيدر آباد، الركن، ١٣٤٨هـ.

١٤- ———— أنباء الغمر بأنباء العمر (١-٢)، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧١م.

١٥- ابن خلكان، القاضي شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبَّاس، دار، صادر بيروت، ١٩٦٤م.

١٦- الدمشقي، شمس الدين أبو عبدالله محمد المعروف بشيخ الربوة (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبزج، ألمانيا، ١٩٢٣م.

١٧- الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيبك (ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م)، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٢ كتاب " الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية "، تحقيق اوليرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م، ج٩ كتاب " الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر "، تحقيق هانس رويرت ريمر، القاهرة، ١٩٦٠م.

١٨- الذهبي، تاج الدين عبدالوهاب (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م.

١٩- سبط بن الجوزي، أبو محمد شمس الدين يوسف بن فزاوغلي(ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت).

٢٠- السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨م.

٢١- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٢-١٣٥٥هـ.

٢٢- السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (١-٢)، القاهرة، ١٣٢٧هـ.

٢٣- ———— نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فيليب حتى، نيويورك، ١٩١٧م.

٢٤- ابن شاكر الكتبي، فخر الدين محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات (١-٢)، دار الطباعة العامرة، القاهرة، ١٢٨٣هـ.

٢٥- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت (د.ت).

٢٦- ———— تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين (الذيل على الروضتين) تصحيح عزت العطار الحسيني، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.

٢٧- ابن شاهين، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس داويس، باريس، ١٨٩٤م.

٢٨- ابن شداد، القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٢٣هـ/ ١٢٣٤)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، تحقيق جمال الدين الشيّال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٩- ابن الصيرفي، علي بن داؤود إبراهيم (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧١م.

٣٠- ـــــــ أنباء العصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣١- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالحي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق عبدالعظيم حامد خطّاب، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٣م.

٣٢- ـــــــ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (١-٢)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٢م.

٣٣- ابن عبدالظاهر، محي الدين أبوالفضل عبدالله (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

٣٤- ـــــــ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، نشر عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

٣٥- ابن العبري، غريغوريس بن أهارون الملطي النصراني (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، مختصر تاريخ الدول، (تاريخ ابن العبري)، نشر الأب انطوان صالحاني، بيروت، ١٩٥٨م.

٣٦- ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١-٨)، نشر مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥١هـ.

٣٧- العماد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن صفي الدين أبي الفرج (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣٨- العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد (شيخ المحمودي)، القاهرة، ٦٦-١٩٦٧م.

٣٩- أبو الفدا، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).

٤٠- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٥٥هـ/ ١٣٤٢م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م.

٤١- ـــــــ التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة العامة، القاهرة ١٣١٢هـ.

٤٢- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق، ١٩٧٧م.

٤٣- ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت، (د. ت).

٤٤- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسّان، دمشق، ١٩٨٣م.

٤٥- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م.

٤٦- ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، مكتبة النصر، الرياض، ١٩٦٦م.

٤٧- مجير الدين الحنبلي، أبو اليمن عبدالرحمن (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمّان، ١٩٧٣م.
٤٨- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ٥٦-١٩٧٣م.
٤٩- ــــــ إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر مصطفى زيادة وجمال الدين الشيّال، القاهرة، ١٩٦٠م.
٥٠- ــــــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، بولاق، مصر، ١٣٧٠هـ.
٥١- ناصر خسرو (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشّاب، ط٢، دار صادر بيروت، ١٩٨٦م.
٥٢- النعيمي، عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، ط١، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨م.
٥٣- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٩٣م.
٥٤- الواسطي، أبو بكر محمد بن أحمد (توفى في القرن الخامس الهجري)، فضائل البيت المقدس، نشر معهد الدراسات الأسيوية والأفريقية، الجامعة العبرية، القدس، ١٩٧٩م.
٥٥- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١-٣، تحقيق جمال الدين الشيّال، وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة، ٥٣-١٩٦٠م، ج٤-٥، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ٧٣-١٩٧٧م.
٥٦- ابن الوردي، الشيخ زين الدين عمر (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، تاريخ ابن الوردي، النجف، ١٩٦٩م.
٥٧- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.
٥٨- يحيى بن سعيد الإنطاكي (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، تاريخ يحيى بن سعيد الإنطاكي، تحقيق لويس شيخو، بيروت، ١٩٠٨م.
٥٩- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب الكاتب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩١م.
٦٠- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الركن، الهند، ١٩٥٤-١٩٦١م.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

Palestine Pilgrims Text Society (P.P.T.S):
1- Daniel, The pilgrimage of the Russian Abbot Daniel, trans. by A. Wilson, in P.P.T.S, Vol. IV, London, 1895, Reprint, New York, 1971.
2- John of Wurzburg, Description of the Holy Land, trans. by A. stewart, in (P.P.T.S), Vol. V.
3- Theoderich, Description of the Holy Land, trans. by A. stewart, in P.P.T.S, Vol. V.
4- Burchard of Mount Sion, A description of the Holy Land, trans, by A. stewart, in P.P.T.S, Vol. VI.

5- Jean de Joinvilee, The life of st. Louis, in chronicles of the Crusades, trans. By P. shaw, London, 1976.
6- Felix Fabri, The book of the wanderings of Brother Felix Fabri, trans. by A. Stewart, London, 1892.
7- Souriano, T, Treatise on the Holy Land, trans. from Italian by Bellorini, Jerusalem, 1948.
8- Canon Casola P., Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem, trans. by Newett, Manchester, 1907.
9- Willian of Tyre, A history of deeds done beyond the seas, trans. by Babcock and Kerry, Octagon bookes, New York, 1976.
10- Pero Tafur, Travels and adventures in the Holy Land (1435-1439), published by George Routledge and Sons, London, 1926.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

1- Adler, E., Jewish Travellers to Jerusalem, London, 1962.
2- Ashtor, E., A social and economic history of the Near East in the Middle Ages, London, 1976.
3- Amnon Cohen and Bernard Lewis, Population and revenue in the towns of Palestine in the Sixteenth century, Princeton University Press, New Jersey, 1970.
4- Bon Sason, Jewish Society through the Ages, New York, 1973.
5- Cleve, Van, The Emperor Fredrick II, Oxford, 1972.
6- Dodge, D., Muslim education in Medieval times, Washington, 1962.
7- Fischel, W. J., Jews in the economic and political life of Medieval Islam, London, 1969.
8- Graham, S., With the Russian pilgrims to Jerusalem, London, 1927.
9- Goitein, S. D., Mediterranean society: The Jewish communities of the Arab World as portrayed by the documents of the Cairo Geniza, Berkely, 1976.
10- Jestice, P.G., Wayward monks and the religious revolution of the Eleventh Century, Leiden, 1997.
11- Lapidus, Lra, M., Muslim cities in the later Middle Ages, Harvard University press, 1967.
12- Marmorash, Old and new places in Palestine, Syria and Lebanon, Jerusalem, 1946.
13- Murphy O'connor, The Holy Land, Oxford University Press, 1980.
14- Powell, J., Anatomy of A Crusade (The Fifth Crusade), Philadelphia, 1986.
15- Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, trans. by Janet Shirley, Amsterdam, 1974.
16- Runciman, S., The Christian Arabs of Palestine, London, 1970.
17- Standshut, Jewish communities and the Muslim countries of the Middle East, London, 1950.
18- Smith, J., Historical geography of Jerusalem, London, 1909.
19- Van Brechem, Max, Materianx pour un corpus inscriptionum Arabicarum, Vol, 43, Cairo, 1922.
20- Wilkinson, J., Jerusalem Pilgrims before the Crusades, London, 1977.
21- Wolf-Ditter Hutteroth and Kamal Abdul-Fattah, Historical geography of Palestine, trans-Jordan and Southern Syria in the sixteenth century, Erlangen, 1977.

رابعاً: المصادر العربية الحديثة:

١- أحمد دراج، المماليك، والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م.

٢- ـــ وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣- أحمد عبدالرزاق أحمد، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة، ١٩٧٤م.

٤- ـــ البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.

٥- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٦١م.

٦- عبد الجليل حسن عبدالمهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨٠م.

٧- ـــ المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ودورها في الحركة الفكرية، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨١م.

٨- عبدالغني محمود عبدالعاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، (د.ب).

٩- علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٠- قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤م.

١١- كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٨١م.

١٢- محمد أبشرلي ومحمد داؤود التميمي، (تحقيق وتقديم)، أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، منظمة المؤتمر الإسلامي، استانبول، ١٩٨٢م.

١٣- محمد الحافظ النقر، القوى الفاعلة في المجتمع في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار المسار للنشر والتوزيع، المفرق، الأردن، ٢٠٠٢م.

١٤- ـــ تاريخ بيت المقدس من الفتح العمري حتى نهاية العهد الأيوبي، دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٣م.

١٥- محمد الحبيب بن الخوجة، يهود المغرب العربي، منشورات جامعة الدول العربية، قسم الدراسات الفلسطينية، القاهرة، ١٩٧١م.

١٦- محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام والجزيرة، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م.

١٧- مصطفى الحياري، القدس زمن الفاطميين والفرنجة، منشورات المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمّان، ١٩٩٤م.

١٨- ميخائيل مكس اسكندر، القدس عبد التاريخ – دراسة جغرافية تاريخية أثرية للمدينة المقدسة، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٩- نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.

خامساً: المصادر الأجنبية المترجمة:

١- بنيامين التطيلي (Benjamin of Tudelo)، رحلة بنيامين التطيلي إلى سوريا وفلسطين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٥٠م

٢- جوانفيل (Jean de Jounville)، مذكرات جوانفيل (القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.

٣- المؤرخ المجهول، يوميات أعمال صاحب الفرنجة (كتاب الجستا) (Gesta Francorum)، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٥م.

٤- فوشية الشارتري (Fulcher of Chartres)، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٠م.

سادساً: المقالات باللغات الأجنبية:

1- Goitein, S. D., “The social and religious history of the Jews”, in: speculum, Vol. 36, 1961, P.P. 935-956.
2- Al-Hiyari, M., “Crusader Jerusalem”, in Jerusalem in: history, by Kamel, J. al-Asali (ed), London, 1989.
3- Runciaman, S., “The pilgrimages to Palestine before 1095”, in: A history of the Crusades, by Setton (ed), Vol. I, PennsyLvania, 1969.
4- Russell, J., “The population of the Crusader states”, in: A history of the Crusades, Vol. V, by Zacour N. and Hazard, H. (eds), University of Wisconsin Press, 1985.
5- Schaefer, K., Jerusalem in the Ayyubid and Mamluk eras, Unpublished Ph.D. thesis, University of New York, 1989.
6- Mohamad El-Hafiz Al-Nager, “Jerusalem in the history of Islam up to the Ayyubid and Mamluk periods”, in: Islamic and Arabic Studies College Journal, issue No. 25, June 2003, P.P. 5-28.
7- Wolf-Leslan, “Ethiopian Itineraries”, in: speculum, Vol. 34, No. 2, 1959, P.P. 125-140.

سابعاً: المراجع الأجنبية المترجمة:

١- جب، هاملتون، صلاح الدين الأيوبي، ترجمة يوسف ابيش، ط٢، بيروت، ١٩٦٦م.

٢- رنسيمان، ستفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٦٧م.

٣- زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م.

٤- لسترانج، غي، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمايرة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، عمّان، ١٩٧٠م.

٥- عبَّاس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة علاء الدين منصور، دار الثقافة للتوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٩٠م.
٦- فان برشم، مارجيلت، القدس الإسلامية في أعمال فان برشم، دار الشام، دمشق، ١٩٩٤م.

ثامناً: المجلات والدوريات العربية:

١- إبراهيم مراد، "من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين"، في: بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، تحرير: إبراهيم مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ص ص ٢٢٧-٢٥٤.
٢- جمال الدين الشيَّال، "ملوك بني أيوب، اشتغالهم بالعلم وصلاتهم بالعلماء"، مجلة الرسالة، السنة ٢٢، العدد ١٠٨، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، سبتمبر ١٩٦٤م، ص ١٤-١٨.
٣- جمال صلاح مرقة، "مستشفى صلاح الدين الأيوبي (البيمارستان الصلاحي)، مجلة القدس الشريف، العدد ٣٨، أمانة القدس، عمَّان، أيار ١٩٨٨م، ص ص ٣٨-٤٤.
٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، "بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عهد المماليك"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمَّان، ١٩٨٣م، ص ص ٣٠١-٣٥٥.
٥- عبدالجليل حسن عبدالمهدي، "العلوم الدينية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمَّان ١٩٨٣م، ص ص ١٤١-٢٠٣.
٦- ـــــ "المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي"، مجلة التربية العربية الإسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمَّان، ١٩٨٩م، ص ٥٢١-٥٧٩.
٧- ـــــ "المرأة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة ١٤، العدد ٣٨، عمَّان، ١٩٩٠م، ص ٣٥-٧٥.
٨- عبدالعزيز الدوري، "القدس في الفترة الإسلامية الأولى"، في كتاب: القدس في التاريخ، تحرير كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمَّان، ١٩٩٢م، ص ١٣٠-١٦٢.
٩- عصام عبدالرؤوف، "الحياة السياسية في بلاد الهند في عهد الملوك والمماليك"، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٦-٩٢، ١٩٧٨م، ص ٢٣-٥٧.
١٠- عطية القوصي، "صلاح الدين واليهود"، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٤، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٤٠-٨٢.
١١- كامل جميل العسلي، "الأوقاف والتعليم في القدس من أواخر القرن السادس حتى أوائل القرن الثاني عشر للهجرة"، مجلة الحضارة الإسلامية ١-٣٦، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمَّان، ١٩٨٧م، ص ١٢٣-١٦١.
١٢- ـــــ "حارة المغاربة في القدس وأهميتها التاريخية"، مجلة القدس الشريف، العدد ١٣، أمانة القدس، عمَّان، نيسان ١٩٨٦م، ص ص ٣٨-٤٩.

١٣- ـــ " مؤسسات صلاح الدين الأيوبي وسلاطين الأيوبيين في بيت المقدس " ، مجلة القدس الشريف، العدد ٥٣ ، أمانة القدس، عمّان، أغسطس ١٩٨٩م، ص ٣٤-٤٤.

١٤- ـــ " مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس " ، ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، ١٩٨٣م، ص ٩٣-١١١.

١٥- محمد الحافظ النقر، " كتابات بعض الرحالة الأوربيين عن مملكة بيت المقدس الفرنجية " ، مجلة المنارة، المجلد ٤ ،العدد ١ ، منشورات جامعة آل البيت، ١٩٩٩م، ص ١٩٣-٢٢٨.

١٦- ـــ " التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة بيت المقدس في فترة الاحتلال الفرنجي (الصليبيين) ٤٩٢-٥٨٣هـ/ ١٠٩٩-١١٨٧م " ، مجلة المنارة، المجلد ٩، العدد ١ ، منشورات جامعة آل البيت، ٢٠٠٣م، ص ١٩١-٢١٧.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

قائمة المحتويات

الفصل الرابع

الحياة العلمية في بيت المقدس في العصر المملوكي

